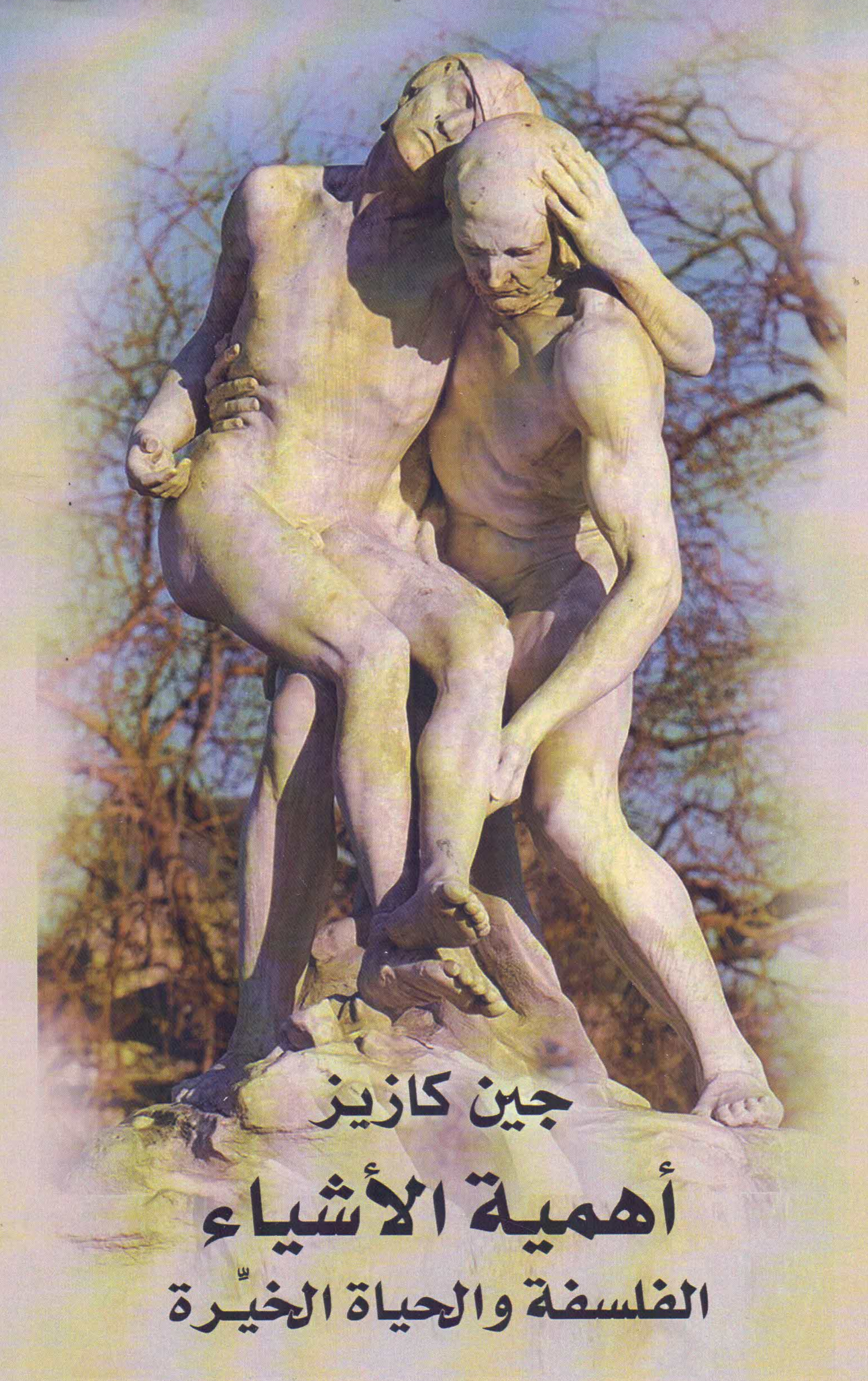


المركز القومى للترجمة

جين كازيز

أهمية الأشياء

الفلسفة والحياة الخيِّرة

ترجمة: عواطف شلبى

مراجعة: محمد أحمد السيد

2059

فى هذا الكتاب تتناول الكاتبة جان كازيز موضوعًا يشغل اهتمامات الفلاسفة منذ القدم؛ ألا وهو الحياة الخيرة، وتطرح العديد من الأسئلة حول ماهيتها وعناصرها الضرورية والاختيارية، وتحاول تقديم إجابات على تلك الأسئلة من خلال استعراض آراء الفلاسفة القدماء والمعاصرين، وأمثلة من التاريخ والأدب ومن الحياة والأحداث الواقعية. تقدم الكاتبة قائمة بالضرورات: السعادة، التعبير عن الذات، الاستقلالية، الأخلاقيات اللازمة لتحقيق الحياة الخيرة، وكذلك قائمة بالأشياء الاختيارية. وتستعرض كذلك العديد من الأفكار عن الجيد والردىء، الممكن والمستحيل، الأولويات المتقدمة والمتأخرة فى الحياة الإنسانية، وتفجر قضية مهمة: الزوال وما أهمية الحياة إذا كان كل شىء إلى زوال، وتتناول دور الدين فى الحياة الخيرة، وفى مشكلة الزوال، والآراء المختلفة من تلك القضية وغيرها من القضايا التى يطرحها الكتاب ويناقشها بعمق وموضوعية.

تصميم الغلاف: نسرين كشك

أهمية الأشياء

الفلسفة والحياة الخيِّرة

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر 2006 تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: رشا إسماعيل

- العدد: 2059
- أهمية الأشياء: الفلسفة والحياة الخيِّرة
- جين كازيز
- عواطف شلبي
- محمد أحمد السيد
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة كتاب:

THE WEIGHT OF THINGS: Philosophy & the Good Life
By: Jean Kazez

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: 2735452 فاكس: 27354554
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

أهمية الأشياء

الفلسفة والحياة الخيِّرة

تأليـــــف: جيـن كازيــز

ترجمـــــة: عــواطف شلبي

مراجعـــة: محمد أحمد السيد



2014

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كازيز، جين.
أهمية الأشياء: الفلسفة والحياة الخيّرة/ تأليف: جين كازيز؛
ترجمة: عواطف شلبي، مراجعة: محمد أحمد السيد.
ط ١ – القاهرة : المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤
٢٣٦ ص ، ٢٤ سم
١- الفلسفة – نظريات
(أ) شلبـــي، عواطف (مترجم)
(ب) السيد، محمد أحمد (مراجع)
(جـ) العنوان ١٠١

رقم الإيداع ٢٠١٢/٨٦٣٤
الترقيم الدولي I.S.B.N 978-977-216-071-6
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقدمة

إننا لا نفحص حياتنا في كل يوم، تمر بعض أسعد لحظات حياتنا ونحن في حال لا تسمح لنا بفحص أي شيء، فإنك تنظر إلى طفلك، أو ترى منظرًا من فوق قمة جبل أو تشاهد سيارتك الجديدة أو أي شيء آخر يمتعك فتقول لنفسك إنني لا أريد أكثر من هذا، أو إنك لا تفكر في أي شيء، فقط أنت تستمتع بهذا.

إن التأمل يمكن أن يبدأ لأسباب كثيرة، مثلاً في أعياد ميلادنا نفكر هل نحن نسير في الاتجاه الصحيح، أو إذا داهمنا مرض خطير أو عندما نقترب من نهاية الحياة هنا يثور التساؤل هل عشنا الحياة التي كنا نتمناها؟

وأحيانا يكون هذا التفكير مبعثه الآخرين، فعندما نقرأ عن عادات شعوب أخرى ذات ثقافات مختلفة فإننا نتساءل هل هناك شيء ينقصنا أم أن عاداتهم مضللة؟ أو إذا حدث تغيير غريب في حياة صديق فإننا نبدأ في تقييم أولوياتنا وكذلك أولويات ذلك الصديق.

كل هذه الأمور تدفعنا إلى الفلسفة، أي إلى الأسئلة الخاصة بالقيمة أو بمعنى أصح ما هو أفضل وما هو أسوأ، أو الأسلوب الذي يجب أن نتبعه في حياتنا. وقد عالج الأخلاقيون هذا الأمر منذ الأزمنة القديمة، في بعض الأحيان بطريقة مباشرة، فعند أفلاطون وأرسطو وكل المدارس القديمة التي جاءت بعدهما كان السؤال عن الكيفية التي ينبغي أن نحيا وفقًا لها، بمثابة سؤال عن " الخير الأسمى" "highest good"، أما القرن التاسع عشر فكان

وقت التركيز الشديد والمباشر على التساؤلات عن الحياة في مجملها، كانت كلمة "الخير" بالنسبة لنيتشه كلمة تدعو للتهكم فكان يدعو قراءه لأن يعيشوا في خطر، كان يقول لهم: " شيدوا منازلكم على فوهة بركان فيزوف". أما الوجوديون في القرن العشرين فقد ناقشوا هذا الموضوع "الحياة الطيبة" فقالوا إنه ربما لن يمكننا أن نعيش حياة طيبة تمامًا ولكن يمكننا أن نعيش ونحن أكثر تقبلاً للأحوال الإنسانية.

الآن ما زال الفلاسفة يعالجون نفس الأسئلة الأساسية حول كيف يجب أن نعيش؟ هل السعادة هي الشيء الوحيد ذو الأهمية؟ يقول روبرت نوزيك: لا توجد أطروحة نموذجية تجيب عن تلك القضايا الكبيرة (انظر الفصل الرابع إذا كنت متشككًا في إمكانية وجود مناقشات عقلانية حول القيم). ماذا يمكنك أن تضع في صلب هذا الموضوع "الحياة الطيبة"؟ هناك رأيان معاصران يجب أن يؤخذا مأخذ الجد وهما رأي بيتر سنجر ومارتا نوسابوم في هذا الموضوع: كيف يتعين أن نعيش؟ يقول سنجر: أن نعيش جيدًا تعني أن نركز على شيء خارج أنفسنا. أما مارتا نوسابوم وهي متأثرة بأفكار أرسطو فإنها تؤكد على تحقيق الإمكانيات الإنسانية الأساسية عند المرأة والتنمية الإنسانية.

وعلى الرغم من الاهتمامات الفلسفية التاريخية والمعاصرة بالحياة الطيبة فإن الناس اليوم عندما يفكرون في مسائل الحياة يتجهون إلى كتب الدين أو علم النفس أو إلى أقسام المساعدة الذاتية في مخازن الكتب، وهذا إلى حد ما هو خطأ الفلاسفة أنفسهم، فإن كتب الفلسفة نادرًا ما تكون ممتعة، أما الثلاثة الذين أشرت إليهم فهم كتاب جيدون، وسنجر هو الوحيد الذي يهدف إلى القبول العام.

المشكلة في كتَّاب الدين وعلم النفس أنهم في مواجهة موضوع الحياة لا يوجهون الأسئلة التي يوجهها الفلاسفة. هل الحياة الطيبة مرتبطة بالدين؟ إن كتب الدين تفرض افتراضًا واحدًا ولا تأخذ البدائل بجدية، أما معظم كتب علم النفس فإنها تفترض إجابة علمانية دون أن تأخذ موضوع الدين مأخذ الجد. هل هناك طريق صحيح للحياة بدلاً من أن تكون هناك طرق مختلفة لأناس مختلفين؟ هذا سؤال لن تجيب عنه نصيحة أو كتاب. هل هناك شيء واحد يجب أن يكون هدف كل شخص؟ يجب أن نقول هنا إن وجهات النظر تتعدد. ربما يكون مفيدًا أن يكون هناك كتاب يشرح كيف نعيش حياة طيبة. البعض يفكرون في أن يحددوا هذا لأنفسهم: ماذا يهم؟ وماذا لا يهم؟ ماذا يقع في المنتصف؟ لكن الأمر يحتاج لوصفة فلسفية.

إن القضايا التي تستحق بذل الوقت من أجلها هي تلك التي تتعلق بحياة الناس، وبهدف مناقشة عديد من القضايا فإننا نحتاج لدراسة حياة عدد مختلف من الناس، سوف ندرس حياة تولستوي، وحياة فيكتور فرانكل الذي نجا من معسكرات الاعتقال وعاش بعدها، وحياة قديسي الصحراء الذين عاشوا في القرن الرابع، وحياة آباء تكلي، وحياة متسلقي الجبال، وحياة محبي الإنسانية، وحياة موظفي محلات وول مارت، وحياة متسابق الدراجات لانس أرمسترونج، وحياة عبد هارب، وغيرهم، فإن دراسة حياة العديدين هي السبيل لفحص معقولية النظريات المجردة الغامضة. إنك تستطيع القول إن السعادة هي التي تهم أو الأخلاق أو غير ذلك، لكن هذه الأقوال تصبح معقولة أو غير معقولة فقط عند تطبيقها على حياة هؤلاء الأشخاص. وفي بعض الأحيان لا توجد الحالة موضوع الاختبار في العالم الحقيقي ولذلك يتجه البعض لمناقشة حياة شخصيات بعض الأعمال الأدبية أو الأفلام السينمائية أو حتى شخصيات من الخيال، ونحن سوف نتحدث عن شخصية "نيو" من فيلم "الماتريكس" أو شخصية مدير المنزل من فيلم "بقايا اليوم" وبعض الشخصيات الأخرى.

لقد بدأت في التفكير في أهم موضوعات هذا الكتاب في أثناء الفترة غير المستقرة من حياتي، بعد مولد أطفالي، إن إنجاب الأطفال يغير الاهتمامات في الحياة. فالأهمية الكبرى التي يعطيها بعض الناس للأبوة تطرح تساؤلات حول السؤال السابق عن القيمة. إنك تريد أن تترك أثرًا أو تحقق نجاحًا أو تثبت موهبتك، ربما تكون هذه الأشياء مهمة، ولكن عندما يحرمك الطفل من النوم، أو يلح عليك في طلب ما ربما تفقد السيطرة وربما لا، وحتى عندما يكبر الأطفال تظل الحياة هكذا وتبدأ في التفكير في أولوياتك ماذا كانت؟ وماذا أصبحت؟ وماذا ستصير؟ ولأنني كنت أمًا لأول مرة فقد تغيرت اهتماماتي من العمل إلى البيت والأسرة، ومن العالم الخارجي إلى عالمي الخاص. قبل أن نصبح أبوين كنت أنا وزوجي عضوين في منظمة العفو الدولية ومنظمة حقوق الإنسان، نشأت علاقتنا ونحن مهتمان بشيء خارج أنفسنا، في يوم لا أنساه عقب التطهير العرقي في رواندا عام ١٩٩٤ تحدثت سيدة من التوتسي عن ذكرياتها عن المذبحة، وفي مقابلة أخرى قابلنا رجلا قضى ثماني سنوات ينتظر الموت وأخيرًا ظهرت براءته وأطلق سراحه، أما بعد إنجاب الأطفال فقد اقتصرت عضويتنا أنا وزوجي على مجرد حمل بطاقات العضوية دون حضور الاجتماعات، لم يعد بإمكاننا حضورها، فهل تغيرت اهتماماتنا للأفضل أم للأسوأ؟

إن تغير توجهاتي من العمل إلى الأسرة، من العالم بأسره إلى عالمي الخاص جعلني أتأمل، وهي تجربة يمر بها كل الآباء. قبل مجيء الأطفال قد تفكر أحيانًا في الإيمان بالقدر وأنت تركب دراجة في طريق مزدحم أو وأنت تجري جراحة أو وأنت تأكل محارًا نيئًا، أما عندما يصبح لديك أطفال فإن الإيمان بالقدر يصير أمرًا حتميًا. إن الأمومة والأبوة تدفعاننا إلى التفكير في هذه الأمور التي كانت تبدو قبل ذلك بعيدة وغامضة، فهل الأشياء المهمة خاضعة للحظ؟ أو أن هناك سبيلاً لتفادي تلك النتائج؟

أيًا كانت الظروف الفردية التي تدفعنا بداية لفحص وضعنا الخاص أو للتفكير فيه فإنها تؤدي حتمًا إلى أفكار حول الجيد والرديء، الممكن والمستحيل، الأولوية المتقدمة والمتأخرة في الحياة الإنسانية. وهذا الكتاب سوف يفجر كل هذه القضايا متدارسًا كل ما قيل وكل ما يمكن أن يقال، وما يمكنه أن يقف في مواجهة الأدلة والمناقشات، بداية بالسؤال الأكثر وضوحًا ألا وهو: ما أهمية أن كل شيء إلى زوال؟ ثم تجربة كل شخص حيال لحظة الفناء التي تعني أن كل شيء لا معنى له. إن طفلي الذي لم يتعدَّ التاسعة من العمر كثيرًا ما يصدمني بقوله: "إننا سوف نموت جميعا فهل هناك معنى لأي شيء؟"! أعتقد أنه أخذ هذا السؤال من المسلسل الكوميدي الذي يعشقه "كالفين وهوبس"، لكن هذا التفكير من جانبه شيء متعب. فتولستوي وسط إنجازاته التي يحسد عليها بدأت أفكار الفناء تراوده حتى حولت حياته، وكان لا بد له أن يؤمن بالإله الأبدي حتى يستعيد إحساسه بأن الحياة تساوي شيئًا، فهل الزوال مشكلة أصلية؟ وهل الدين هو الحل؟ هذا هو أحد الأسئلة الرئيسية في هذا الكتاب، ففي الفصل الأول أناقش هذا الموضوع وأعود له مرة أخرى قرب نهاية الكتاب.

إلام نطمح حتى نعيش حياة طيبة؟ إن السؤال صعب ويجب أن نحاول الإجابة عنه. لنبدأ بأن نفكر هل الحياة المملوءة بهذا أو بذاك تسير في الاتجاه الصحيح؟ من أنا لأقول هذا؟ إنني أناقش في الفصل الثاني الأمر كله؛ كيفية الحكم على هذا أو ذاك، وكذلك أناقش بعض الحيوات الغريبة التي ستجعلك تقتنع بأنه لا توجد حياة تشبه الأخرى. هناك أهداف طيبة وأخرى سيئة، لكن ما هي؟ إنني أناقش في الفصلين الثالث والرابع فلسفة الممكن أخذًا في الاعتبار الفلاسفة القدماء والنفعيين في القرن التاسع عشر.

تبدأ عملية البناء في الفصل الخامس؛ ماذا نريد أن نبني؟ بعد كل ما قيل وكل ما تم عمله لا أعتقد أنه يوجد شيء اسمه الحياة الطيبة، أو أن تكون هناك طريقة للحياة أفضل من الأخرى، إذا كانت حياة تأمل فلسفي، أو تقوى دينية أو لهو وشمبانيا وكافيار، لا نستطيع أن نزعم أن أيًا منها أفضل من غيرها. إجمالاً للقول فإن الحياة أحيانًا تسمى طيبة وأحيانًا تسمى سيئة، إننا نريد فقط أن نوضح ما هو الشيء الذي يجعل حياة ما طيبة وأخرى غير طيبة. إننا نستطيع أن نحدد ملامح الحياة الطيبة دون أن نحدد أسلوب حياة معين.

في الفصل الخامس أتحدث عن تلك الملامح، هل هناك قائمة بالضرورات اللازمة لكل حياة؟ وأعود للسؤال في الفصل السادس واضعة إياه في مناقشات عاطفية حول إمكانيات الحياة للأشخاص من ذوي الاحتياجات الخاصة الحادة. ولأن هناك ضرورات كثيرة فإنني أظن أننا حتمًا سنتطرق إلى وجهات مختلفة. وفي الفصل السابع أبحث عن وسائل حل الصراعات. إنه لشيء ذو إغراء أن يكون للأخلاق مكان بارز في الحياة، إنها الشيء الأهم، أليس كذلك؟ في الفصل الثامن نبحث الأخلاق.

أما في الفصل التاسع فإنني أعود لأزمة تولستوي وبصفة عامة دور الدين في الحياة الطيبة، إذا كنت تريد معرفة موقفي في هذا الأمر فإنني سأدعك تعرف موقفي الآن، ستضايقك إجابتي الدبلوماسية عن هذا التساؤل، إن هناك شيئًا صحيحًا وشيئًا خاطئًا في إدانة تولستوي بأنه وجد أن لا معنى للحياة بدون دين.

في الفصل العاشر أربط الأشياء والنهايات المفككة، إذا كانت هناك أهداف ضرورية فهناك أخرى اختيارية، أشياء من الجيد السعي لها إذا أردت. هل الأشياء التي نهتم بها تناسبنا أخذاً في الاعتبار عائلاتنا، أو الأعمال الفنية – إذا كنا نحبها – تنظيم سباقات ماراثون، طهي طعام شهي، القيام بأعمال إيجابية في العالم، التعبير عن أنفسنا، معرفة العالم حولنا؟

إذا كنت قد اقتنعت بمناقشاتي أو لم تقتنع، فإني أتمنى أن تدخل في ذلك الجدل الذي استمر قروناً طويلة حول هذه المسائل.

الفصل الأول

هذا العالم الزائل

لا شيء يبقى للأبد، المشروع الذي قمت بالعمل فيه طيلة عام سيتم وسوف ينسى بعد برهة. يومًا ما أنت ستذهب وكذلك أبناؤك وأبناء أبنائك، حتى الكتاب الذي تؤلفه، أو أي عمل فني مهم أو نظرية مهمة يمكن أن تحدث ضجة كبيرة ثم تخفت ضجتها، هذه الأفكار يمكن أن تشكل أسلوب حياتنا، فإذا أردنا أن نتغلب على الزوال فيجب أن نختار تركيز نشاطنا على ما يحقق نتائج باقية فمثلاً: إصلاحِ المنزل أهم من إقامة حفل، الزواج أهم من صداقة مؤقتة، نشر كتاب بدلاً من نشر مقالة، الاهتمام بالآخرة أهم من الاهتمام بهذه الحياة الزائلة.

لكن لماذا نختار أيًا من تلك الأشياء؟ هل الزوال مشكلة فعلاً؟ ربما لا تهتم بخلود أي شيء فهل أنت مخطئ؟

يقول ليو تولستوي: "إن عدم الدوام شيء مؤلم جدًّا"؛ عندما بلغ تولستوي الخمسين من العمر في عام ١٨٧٨ كان قد حقق شهرة بالغة بعد روايتيه أنا كارنينا والحرب والسلام، وحقق ثراء بالغًا وأنجب تسعة أطفال من زوجته المخلصة، وبعد أن عاش يعمل في ضيعته الواسعة القريبة من موسكو محاطًا بأفراد أسرته بدأ كل شيء يتهاوى وسكنته فكرة أن كل شيء إلى زوال؛ الناس يموتون والأشياء تتحطم، والشهرة تنحسر، واللحظات العظيمة تمر، يقول تولستوي في سيرته الذاتية: "إن أعمالي العظيمة مهما كانت سوف تنسى إن عاجلاً أو آجلاً لن تبقى، ما هذه الضجة المثارة حولها؟... هذه ليست تأملات

فلسفية لشخص عاطل بل إن حياتي قد وصلت إلى لا شيء".. وهكـذا وصـل تولستوي إلى مرحلة من الاكتئاب فتوقف عن الكتابة وانسحب من أسرته.

لماذا تكون الحياة غير ذات قيمة إذا لم يكن هناك شيء دائـم؟ إننـي أتعاطف مع حالة اليأس التي وصل لها تولستوي. في حالة نفسية سيئة أجـد من غير المجدي بذل جهد من أجل أشياء ستمر سريعًا مثل حفل عيد مـيلاد طفل أو القيام بإجازة أو إقامة حفل عشاء. ولكن هل هذا حقيقي؟ إذا أعملنـا العقل فلن نستطيع أن نتفهم بسهولة أزمة تولستوي.

إن هناك أشياء كثيرة ليس لها آثار باقية، لكنها بلا شك ذات قيمـة لا يمكن إنكارها، مثلاً الطفل يقضي ساعات ممتعة يبني فيها قصرًا على رمال الشاطئ ولا أحد يسجل هذا الحدث وينمحي كل أثر له بعد قليل، فهل نستطيع أن ننكر أن هذا الشيء الصغير له أهمية في حياة الطفل؟ لماذا يراودنا الشك في أن حدثًا عابرًا سرعان ما ينسى مثل حفل عشاء عيد الشكر أو حفل عيد ميلاد أو إجازة ممتعة؟ هي أحداث لا أهمية لها.

إن تصور عدم أهمية بعض الأحداث يأتي من تصورها بعـد زمـن طويل، فأنت إذا تخيلت نفسك تعيش في عالم الألفية العاشرة وقد اختفت تماما معالم الحياة التي نعيشها الآن الألفية الثالثة؛ سوف ترى أحداثها بلا أي دلالة ولا معنى، إن ما يبدو لنا الآن شيئًا مهمًا سوف يكون وقتها بلا أية أهمية.

لكن هل هذه النظرة الخلفية ومن هذا البعد تكون دقيقة؟ إنها مثل نظرة شخص يرى شيئًا من مسافة بعيدة جدًا، إن ما يأتي للذهن سيكون مثل مشهد من الفيلم السينمائي "الرجل الثالث" حيث ينظر أورسون ويلز الذي يقوم بدور المجرم الغامض من فوق قمة عالية ويشير إلى الناس قائلاً لصديقه: "ألا ترى أنهم مثل النمل لا يجب أن نعبأ بهم؟"، كان هذا هو المبرر الذي استند إليـه وهو يبيع مصلاً مغشوشًا في السوق السوداء بفيينا في فترة ما بعد الحـرب

متسببًا بذلك في مصرع أطفال أبرياء، ويبدو للحظة كما لو كان على حـــق، لكن سرعان ما ينجلي الموقف فالناس ليسوا نملاً، ولكنهم ظهروا كذلك لأنه رآهم من بعيد، وفي نفس السياق فإن ساعة ممتعة على الشاطئ ليست عديمة الأهمية لكنها تبدو كذلك إذا مر عليها زمن طويل.

فهل كانت أزمة تولستوي نتيجة لتبني نظرية الألفية العاشرة؟ ربما كان ذلك، لكن هناك جوانب أخرى للأمر. إن كلاً منا يسابق الـــزمن، إن فتـــرة المستقبل المتاح لي الاستمتاع به تقل تدريجيًا، إذن ليس هناك وسيلة لمواجهة انحسار فترة المستقبل إلا بالرجوع للماضي، ولكن هذا شيء مـــستحيل إذ لا يمكننا أن نقوم برحلة للماضي ونعيش مرة أخرى لحظاتنا التي استمتعنا بها. إن حالتنا كبشر تضعنا أمام مشكلة الزوال ولا تخفف عنـــا وطـــأة المـــشكلة بمنحنا فرصة السفر في الزمان، ويزعجنا الشعور بأن لحظات حياتنا تفلـــت منا ولا تعود. إننا نعتاد على عناصر تلك الحقائق: الزمن والموت، ولو حدث أن فقدنا قدرتنا على الاصطدام بها فإنه من المهم أن نفكر في كيفيـــة إدراك هذه الحقائق لأول مرة فمثلاً كان طفلاى لا يعيان بالمرة ما هو الموت حتى بلغا سن الثالثة من العمر عندما انبعثت رائحة كريهة في البيت وعرفنا أنهـــا رائحة سنجاب ميت فقالت طفلتي: "بالطبع الناس لا يموتون أبدًا، هـــل هـــم يموتون؟"، وكان طبيعيًا ألا أخفي عنها تلك الحقيقة فقلت لها بطريقة لطيفـــة: "نعم الناس يموتون عندما يكبرون في السن، ويصبحون على شفا المـــوت". ولدهشتي كانت تلك الإجابة مؤلمة جدًا لابنتي وشقيقها التـــوءم. ويبـــدو أن تولستوي في منتصف عمره قد مر ثانية بتلك التجربة المؤلمة التي مرت بها ابنتي عندما علمت بأنها سوف تموت يومًا ما، ففي قـــصته " مـــوت إيفـــان إيليتش" التي كتبها بعد كتابة الاعترافات نجده يصف الموت الوشيك الحدوث بتفاصيل مخيفة مرعبة، يمرض إيفان إيليتش بعد حادثة بسيطة ويدرك أنـــه يقترب من النهاية ولكنه لا يشعر بالتوافق مع هذه الورطة، إنه يـــشعر فـــي

أعماقه أنه يواجه الموت ولكنه بعيد كل البعد عن تقبل هذا الشعور. إن تولستوي يتألم أيضا لسنوات طويلة لفكرة أنه زائل ولا يتقبلها بسهولة.

هل من الممكن أن ننظر إلى فكرة زوالنا ونواجهها ونقبلها؟ تأتي الإجابة عن هذا السؤال بالإيجاب من شخص نعجب أنها تجيء منه هو بالذات: إنه فيكتور فرانكل الذي أنتزع من بيته في فيينا في العام 1942 وأرسل إلى سلسلة من معسكرات الاعتقال حيث عمل بها طبيب أعصاب وطبيبًا نفسيا، كان فرانكل يواسي الأسرى وهم على شفا الموت ويشجعهم قائلا: "إن السلوى والعزاء تأتي من التفكير في أن الماضي لم يكن هباء"، وعلى الرغم من أن زوجته ووالديه كانوا قد قتلوا فإنه عاش بعدهم وكتب وصفًا تفصيليا للحياة في معسكرات الاعتقال في كتابه " الرجل يبحث عن المعنى" حيث يشرح مفهومه عن الماضي قائلاً:

> "إن الماضي لا يضيع، كل شيء يبقى مختزنًا.. عادة يهتم الإنسان بالأشياء الخارجية، ويغفل المخزون الكامل من الماضي، حيث تختزن كل أفراحه وملذاته ومعاناته وأفعاله، لا شيء يضيع، كل شيء يبقى، إنني أستطيع أن أؤكد أنني كنت، وهذا هو الوجود الحقيقي.
>
> وما دمت أحيا فإنني أستطيع أن أحصل على الرضا من أحداث الماضي التي مرت بي مثل حفل زواجي".

أما الاقتراح الجذري الذي يقدمه فرانكل فهو أنني عندما أفنى فإن هذه الأحداث لن تختفي فمثلاً يوم زواجي رغم أنه قد مضى إنه ما زال شيئًا مجمدًا لم يتغير كجزء من الماضي وسوف يبقى آمنًا مصانًا حتى بعد رحيلي.

لكن أليس من الأفضل أن يبقى الماضي حقيقة دائمة وأن نعيش للأبد، يجيب فرانكل عن هذا السؤال بالنفي مضيفًا: "إن الموت راحة لأنه يدفعنا

لأن نكمل خططنا وننفذ مشروعاتنا.. بدون حتمية الموت فإننا سوف نمضي أيامنا بلا تحقيق شيء.. لماذا أتعلم اللعب على الجيتار الآن إذا كان بإمكاني أن أتعلمه بعد مائة عام أو حتى بعد ألف عام؟".

إن فرانكل لا يريد أن ينكر أن النازيين قد ارتكبوا جرائم رهيبة بقتلهم ملايين الناس وتعذيبهم تعذيبًا رهيبًا لا يتصوره عقل وحرمانهم من سنوات من أعمارهم وتعذيب ذويهم المقربين بفقدانهم، ولكن هدف فرانكل أن يجعل هؤلاء الناس يتقبلون ولو جانبًا واحدًا من جوانب هذا الوضع المؤسف ألا وهو أن الحياة فانية وأن كل شيء إلى زوال وبذلك يساعدهم لكي يتقبلوا هذا ويخفف آلامهم.

أتعشم أن يكون كثير من الأسرى قد شعروا بالارتياح وأخشى أن يكون البعض لم يصلوا لهذا فإن موتهم كان مأساويا رغم قناعتهم بحقيقة أن الموت آت لا محالة، فإن الناس عندما يموتون مبكرًا دون أن يحققوا شيئًا يذكر فإن المخزون في ماضيهم لا يكفي ليشكل حياة آدمية كاملة، فمثلاً إيفان إيليتش لم يكن ليجد راحة في كلمات فرانكل وهو راقد على فراش الموت يراجع حياته وكيف قضاها دون تحقيق الكثير، لقد استنفد طاقته في المحافظة على المظاهر، إنه يفكر في أنه يحتضر بسبب حادثة تافهة وقعت له وهو يعلق ستائر.

إن حياته كانت قصيرة وبلا قيمة والأضواء على وشك الأفول ولن يسعفه الآن إلا مزيد من الوقت الذي – مع الأسف – لن يتاح له.

لكن ماذا عن تولستوي؟ في وقت أزمته كان تولستوي قد حقق بالفعل الكثير، كان مخزونه مملوءًا بالعطاء، إن تولستوي هكذا يكون مرشحًا لتطبيق آراء فرانكل، فإذا تخيلناهما في حجرة تولستوي المريض أمام فرانكل الطبيب النفسي، فماذا يحدث؟ إن تولستوي بالذات مريض عنيد، إن لديه في

مخزون الماضي الكثير الذي يجعله ويجعلنا أيضًا نحيا بمعنى آخر ولكنه لا يحقق رغبة تولستوي القوية في البقاء، إن تولستوي قد وصل إلى قناعة بأن حياته ليس فيها أشياء ذات قيمة فيما عدا القليل جدًا، إن عقله أحيانًا هو عقل إيفان إيليتش، يبدو أن تولستوي لم يكن يريد النهاية التي يحققها الموت لقد عاش وعمل بجد دائمًا حتى قبل أن يغزو فكره هاجس الموت.

بالنسبة للكثيرين فإن مواجهة فكرة الفناء تختفي، ربما يحركها أحيانًا موت مفاجئ أو أزمة صحية تمر بنا، لكننا في معظم الوقت نحب أن نسدل ستائر النسيان لتخفي النهاية المحتومة، ويتعلم الأطفال مبكرًا كيّف يفعلون ذلك. لقد مرت ست سنوات منذ عرف ابناي الموت لأول مرة ثم ظلا لعدة أشهر يتذكران هذا الأمر بعيون تملؤها الدموع، وبعد ذلك خفت حدة الأمر وصارا الآن لا يذكرانه. ولكي نعرف لماذا تلح فكرة الزوال على تولستوي فإننا بحاجة للنظر في الأمر من زاوية أخرى.

هناك تقليد دام طويلاً في الفلسفة ينظر إلى الزوال باعتباره سمة سلبية، وإلى الثبات باعتباره سمة إيجابية.

وهذا الرأي يعبر أفلاطون عنه جيدًا، وكان تولستوي قد تعلم اليونانية قبل أزمته بعشر سنوات وقرأ كلاسيكياتها بما فيها أفلاطون في لغتها الأصلية.

يقول تولستوي: "إن قراءة الأصول مثل الشرب من ماء الينبوع ماء نقيا عذبًا طازجًا بلا شوائب، أما قراءة الترجمات فإنها مثل شرب الماء المغلي المقطر".

يرى أفلاطون العالم أمامنا مجرد صورة باهتة لحقيقة أعظم، إننا نعيش في عالم دائم التغيير وصيرورة دائمة ليصبح في متناول حواسنا، لكن بعيدًا

عن حواسنا هناك عالم غير منظور.. إن معظم الأشياء الجميلة الموجودة حولنا تدين في جمالها إلى الأشياء الجميلة التي لا تدركها عقولنا ولا حواسنا والموجودة في ذلك العالم الآخر وهو ما يسميه أفلاطون الجمال الأصلي أو الجمال نفسه. ولكل شيء في عالمنا المحسوس نظير في العالم الآخر، الأشياء الطويلة والمستطيلة وحتى المقاعد وكل شيء.

إن التغير سمة سلبية متأصلة في عالم الصيرورة، إن مساوئ التغير هي حقيقة قاسية لا يوجد تفسير لها، إن أفلاطون لا يظن أن الأشياء العابرة والأنشطة العابرة بلا قيمة، إنه لا يستخدم مفهوم الأرجوحة الدائرية الذي يظهر كل شيء بلا أهمية، هناك أعمال طيبة، كتب طيبة، أناس جيدون، وأشياء أخرى في عالم الوجود، كل هذه الأشياء يمكن أن تكون مملوءة بقدر كبير من الجودة، ولكنهم يعانون من عيب ميتافيزيقي أساسي على الرغم من أنهم جيدون، هذا العيب هو أنهم زائلون أو غير دائمين، إن أحد مصادر أزمة تولستوي هو حساسيته المفرطة لهذا العيب (إن كان هذا حقا عيبًا)، هو يشعر أن حياته قد شرخت تمامًا رغم كل منجزاته والسبب أنها فانية.

هل نستطيع أن نتغلب على الزوال؟ إننا مأسورون في دائرة الوجود، إننا لا نستطيع أن نحيا حياتنا في مملكة البقاء العليا التي ليس بها تغير، لكن أفلاطون يرى أن هناك طرقًا للوصول إلى البقاء الأبدي؛ يستطيع أحدنا أن يفعل ذلك بالعقل إذا تأمل في فكرة الجمال نفسها أو الطيبة أو العدالة وحاول أن يفهم ما هي بالضبط فيكون هكذا متأملاً في الأشياء الباقية في مملكة الأبدية، إنه نفسه لن يبقى للأبد ولكنه يحصل على فترة راحة عقلية من التغيير المستمر، إننا أيضًا يمكننا أن نسلك طريق العدالة ونخلق فنا يتماشى مع الجمال، إننا لن نكون خالدين أنفسنا ولكن سنشعر بالارتياح لأننا خلقنا مرآة تعكس مملكة الخلود.

الأمل في الهروب من الموت عبر عنه أفلاطون في إحدى أعظم محاوراته وهي محاورة فيدون Phaedo، يجري هذا الحوار في الزنزانة بالسجن الذي حكم على سقراط أن يقضي فيه أيامه الأخيرة بعد أن أصدرت الهيئة القضائية العليا حكمها عليه بتهمة الكفر وإفساد النشء، وفي آخر الحوار يشرب سقراط السم منفذاً حكم المحكمة عليه بالموت، يقول أفلاطون محاولاً التخفيف على صديقه: "لماذا لا يخيفه الموت؟ إن أرواحنا يمكنها أن تغادر إلى مملكة ما بعد الموت معتمدة على ما قدمناه في حياتنا.. إذا انغمست في ملذات الحياة الدنيوية فإن نفسك ستعجز عن مفارقة البدن، أما إذا عشت حياة فلسفية متأملة فإن روحك سوف تتحرر من ربقة الجسد وتترك الحياة الدنيوية وتتوحد مع الأشياء الأبدية". (تساءل بعض النقاد عن مدى جدية أفلاطون وأرسطو في هذا الشأن، هل كان هذا مجرد تهدئة للأتباع المذهولين بهذه القصة الطفولية؟ إن أفلاطون يقول بعد ذلك في الحوار: "لا يستطيع رجل عاقل أن يصر على أن هذه الأشياء هي كما وصفتها ولكني أظن أنها ملائمة لرجل ليخاطر من أجل العقيدة").

إننا نستطيع أن نشبع الرغبة القوية في الخلود إذا كنا نعيش حياة مختلفة تمامًا عن الحياة الناجحة التقليدية، إننا لا يجب أن نركز على المظاهر السطحية مثل جمال الشكل والثراء والممتلكات المادية، كما يجب ألا نركز على أزواجنا وأبنائنا، إن أفلاطون يعد سقراط مثلاً في هذا الصدد عندما وجده لا يتجاوب مع زوجته وأولاده عندما حضروا إلى السجن لرؤيته قبل الموت.

إذا كان الخلود يجب أن يتحقق في حياة تستحق أن نحياها ما هو الملجأ الذي نلجأ إليه طلبًا للمساعدة، إذا لم نستطع الإيمان بالصور الأفلاطونية؟ هناك فرائض أديان العالم العظيمة والحقائق والوسائل الدائمة المرتبطة بها؛

إن كتب التوراة الأولى تعقد ميثاقا بين "الناس المختـــارين" والإلـــه الأبـــدي وتجعل لهم علاقة به وطاعة أوامره، هناك وعد بنوع من الهروب من الحياة العادية ولكنه ليس وعدًا بالبقاء بعد الموت. أما في العهد الجديد فيتغير التأكيد إلى التغلب على الموت، وفي الإنجيل المسيحي هي "الخبر العظيم" والوعد. ويبدو البوذيون كما لو كانوا هم أيضًا يحتضنون فكرة الأبدية، وحتى عنـــد البوذيين هناك عنصر أفلاطوني، فعند البـــوذيين ينجـــو الكامـــل المـــستنير "الأراهات" من دائرة تكرار المولد ولكنه يدخل في دائرة البقاء الأبـــدي. إن طريق أفلاطون للأبدية يبدو غامضًا ولكن الطرق المماثلة تبدو مألوفة لـــدى المتدينين في كل مكان.

إن أزمة تولستوي قد حلت تدريجيًا، في البداية اتجه للفلسفة والعلم من أجل إيجاد طريقة للخروج منها، ولكنه لم يجد فيها ما يرضيه، بعد ذلك وجه اهتمامه إلى الفلاحين في مزرعته فتعجب من استمرارهم في أعمالهم رغـــم حقائق المرض والموت ووجد أن السبب هو الاعتقاد الديني وعندما بدأ يعمل معهم في الحقل انتقل له الإيمان، كانت مشكلة تولستوي الأصلية هي شعوره المؤلم بالزوال، ونجح اعتقاده الديني في حل تلك المشكلة. كيف تغلب علـــى الشعور بأن لا شيء يهم؟ يقول تولستوي:" كلما وجهت لنفسي السؤال كيـــف أعيش، أجد الإجابة دائمًا (طبقًا لقانون الله). إن تلك الإجابـــة هـــي الراحـــة الدائمة أو العذاب الدائم، أما السؤال الآخر وهو: ما هـــو الـــشيء الـــذي لا يحطمه الموت؟ والإجابة هي: الاندماج مع اللانهائي.. مع الله والسماء".

بالنسبة لتولستوي فإن الاندماج مع اللانهائي هو جوهر الإيمان، وهو يرى هذا العامل متساويًا في كل تقليد ديني، أما باقي المعتقدات الدينية فهـــي بالنسبة له مجرد خرافة. لقد كتب عن قصص الكتاب المقدس باحتقار واضح غير مستتير يقول تولستوي: "لا توجد عقيدة تعطي مواعظ غير متوافقة مع

العقل أو الأفكار والمعرفة المعاصرة كتلك التي تقدمها الكنيسة المسيحية.. ناهيك عن كل الهراء الذي يقدمه العهد القديم". ونظرًا لكلام تولستوي هذا فقد اعتبرته الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ناقدًا مشاكسًا وحرمته نهائيًا من كل الحقوق الكنسية. وقد تغيرت حياة تولستوي عندما وصل للإيمان أصبح محتقرًا لرواياته الشهيرة ثم نقل حقوق طباعتها لزوجته. نعم إن الروايات خالدة نسبيًا أكثر من حفلات الشاي في مراقص موسكو وأيضا أكثر خلودا من الأطفال ولكنها ليست أبدية، وعندما عاد تولستوي للكتابة في الأدب في أوقات متباعدة، كرس نفسه لكتابة مقالات في الموضوعات الدينية وصار يحتقر حياة المجتمع الراقي تلك التي كانت عائلته تحبها وقت إقامتها في موسكو، ولم يعد يستطيع الصبر على الفوضى التي يحدثها الأطفال والمدرسون والخدم والزوار الذين يحيطون به طيلة العام في أثناء إقامته مع أسرته في بيته بالمزرعة، ثم بدأ بصورة متقطعة يبتعد عن أكل اللحوم وشرب الخمر، وممارسة الجنس، وبعد ذلك كان يهجر عائلته من أجل مساعدة المحتاجين خلال أوقات المجاعة، أو ليعيش في حالة تقشف داخل أحد الأديرة.

العيش من أجل البقاء يعني تبني مجموعة أولويات وجعلها تقود القرارات الحياتية اعتمادًا على نوع البقاء الذي نفكر فيه والطريقة التي يمكن تحقيقه بها، يجب العيش كما فعل أرسطو أو كما فعل تولستوي بعد تحوله، لكن السعي من أجل البقاء يمكن أن يشكل حياتنا حتى لو شعرنا أنه لا أمل في ربط أنفسنا بأي حقائق حياتية، إن محاربي الملاحم البطولية مثل الإلياذة يظنون أن من الأقيم الموت ببطولة على أرض المعركة عن العودة إلى أمان البيت ودفء الحياة الأسرية لأن الشهرة سوف تحقق لهم الخلود، إنهم يشعرون بالراحة في الاعتقاد بأن ذكرى أعمالهم البطولية سوف تبقى، أما في التفكير العصري فإننا نجد الخلود في الكتب والأعمال الفنية والموسيقية،

وآخرون يجدون البقاء في إدارة مشروع أو تخطيط مدينة أو منع تفشي مرض أو تجميل حديقة، وآخرون يجدونه في أن يتركوا وراءهم أبناء يعيشون بعدهم ومن بعدهم أطفالهم وهكذا لأجيال عديدة.

الرغبة في البقاء يمكن أن تدفعنا أيضًا للرجوع إلى الماضي بفحص سجلات أسلافنا لنشعر أننا جزء من عائلة يرجع تاريخها إلى مئات السنين، إن التاريخ والأدب والسير تعطينا الشعور بتحدي الزمن. مؤخرًا قضيت عدة أسابيع أحيا في العصر الثلجي، ثم سافرت إلى روسيا في القرن التاسع عشر، ثم توقفت في روما في القرن الأول، لقد كان شائقًا أن أخرج من القرن الواحد والعشرين لبعض الوقت، فشكرًا للروائي، وكاتب السير، والمؤرخ الذين أعطوني الفرصة لذلك.

أما بالنسبة لتولستوي، فإن البقاء عن طريق الأطفال والكتب والشهرة ليس بقاء بالمرة، لقد كانت عنده كل هذه الأشياء ولم تمنحه أية راحة من الشعور بعدم الجدوى، فبدون حقائق سامية أو ذات علوية أو الآخرة فإنه لا توجد إمكانية لحياة طيبة ذات معنى الآن في الولايات المتحدة حيث تعطي الأغلبية العظمى من الناس للدين مكانه مهمة في حياتهم، يوجد كثيرون يتفقون مع تولستوي في الارتباط بين الدين والحياة، الدين هو أساس الحياة الطيبة، إذا لم يكن هناك إله فإننا سنكون مساكين كما كان تولستوي وقت أزمته، وهذه هي رسالة كثيرين من الكتاب المسيحيين المشاهير في مجال مساعدة الذات مثل ريك وارن مؤلف الرواية الذائعة الصيت "هدف الحياة"، إن فكر تولستوي المسيحي بعيد جدًا عن ذلك لكنه هو القديس القائد للفكرة الأساسية: "إن لم يكن هناك إله، فإن حياتنا لا عائد منها".

إنه من الصعوبة بمكان أن نجد إشارات علنية للتركيز اللاديني على البقاء، سيبدو شيئًا غير عصري، أو تبدو غطرسة مجرد أن تقول إن هدفك

من تأليف كتاب هو الرغبة في أن تترك وراءك شيئًا باقيًا، أو إنك تريد أطفالاً حتى تترك خلفك شيئًا دائمًا، إننا عادة لا نتحدث بهذه الطريقة ولكن هذا لا يعني أن هذا هو شعورنا الحقيقي، إنني أحب أن أفكر في أنني عندما أذهب فإن أولادي وأحفادي سوف يبقون، لو كان عندي شيء مثل رواية الحرب والسلام لكانت مشاعري أفضل وأنا على فراش الموت، لكن هل إعطاء مثل هذه الأفكار دور كبير سيكون شيئًا ذا معنى.

إنه شيء حيوي أن نتغلب على الزوال بطريقة أو بأخرى. لاحقًا سوف نعود لهذا الموضوع موضوع البقاء ونتدارس بعض الإجابات عنه، لكننا لن نستطيع أن نفعل هذا قبل دراسة بعض الموضوعات الأساسية.

الفصل الثانى
حيوات غريبة

ما الشيء الذي يجعل الحياة طيبة؟ هل هناك مقوم واحد أم عدة مقومات؟ أو لا توجد مقومات على الإطلاق؟ هل السعادة هي كل ما يهم؟ أو أن هناك أشياء أخرى لها نفس الأهمية؟ هل كل حياة طيبة لها نفس السمات أم أنها تختلف عن بعضها؟ تلك هي الأسئلة التي يتناولها هذا الكتاب والإجابة عنها تعني وضع أحكام عن الحياة: هذه بها عيوب لماذا هي كذلك؟ وماذا ينقصها؟، وتلك عظيمة كيف هذا؟ ما الشيء الذي جعلها كذلك؟ لكن إصدار الأحكام هكذا فيه مخاطرة يجب ألا نقع فيها.

إننا بالفعل نصدر أحكامًا طيلة الوقت، فإذا كنت مدرسًا في مدرسة عامة فإنك دون أن تدري ستجد نفسك للحظة تقارن بين أيها أفضل: المرتب الكبير الذي تتقاضاه شقيقتك التي تعمل ببنك استثماري، أو التأثير الإيجابي الذي يتاح لك من خلال عملك. المرأة العاملة تفكر أحيانًا في جارتها التي لا تعمل والتي تنعم بالوقت الطويل المتاح لها للقيام بتزيين بيتها، إننا جميعًا نصدر أحكامًا طيلة الوقت، فهل هذا ما يجب أن يكون؟ في بعض الدوائر المستنيرة، يفترض أن الحياة الإنسانية تأخذ أشكالاً لا تحصى ليس من بينها شيء أفضل من الآخر، التركيز في الحياة يمكن أن يكون على الإله، أو الأسرة أو العمل أو الحرب أو الفن أو الرياضة أو الممتلكات، لا يوجد أساس للحكم على أي منها بأنه جيد والآخر بأنه سيئ، الاتجاه إلى إصدار أحكام قد يبدأ في بعض الأماكن ويتقدم في طرق متعددة ليبدو أن ما يستحق منها التركيز عليه هو الذي يحصي الطرق المختلفة للحياة في مجتمع واحد

وليس في حقب تاريخية أو اجتماعية مختلفة، في مواجهة هذا يمكنك أن تحدد فكرة الصواب والخطأ، الجيد والسيئ، أو بدلاً من إنكار الحقيقة الأخلاقيـــة، يمكنك أن تنتهي إلى القول بأن الحقيقة الأخلاقية مسألة نسبية. هناك حقـــائق لك وحقائق لي، حقائق لنا وحقائق لهم، كل جماعة لها ثقافتها: الرومـــانيون القدماء، المايا، الصينيون اليوم، كل جماعة لها خصائصها وحقائقها خوفاً من الوقوع في العنصرية أو الإمبريالية الثقافية، فإننا – بـــالأخص – نريـــد أن نتحاشى الحكم على شعوب مختلفة في أماكن بعيدة.

إن أبرز قضايا الأخلاق تتعلق بالطريقة التي نعامل بها الآخرين؛ هل القتل دائما خطأ؟ هل الكذب أحيانا حق؟ هناك جانب آخر من الأخلاق يتعلق بكيف نعيش حياتنا، وهنا توجد أسئلة محددة المجال مثلاً: هل يحـــق لنـــا أن نتعاطى المخدرات؟ أو نغطي أجسادنا بالوشم؟ وتوجد أيضا أســـئلة أوســـع مجالاً مثل: كيف نحيا حياتنا؟ ما هي الأولويات ذات المعنى؟ ما هي الأنشطة التي نملأ حياتنا بها؟

إن استخدام النسبية فيما يتعلق بالنوع الأول من الأسئلة شـــيء بعيـــد تمامًا عن العقل، فمثلاً هل كان المايا محقين في التضحية بالإنسان لمجرد أن ثقافتهم تدفع لهذا العمل؟ هل يمكن أن يكون الكذب مباحًا لأن الكاذب يظـــن ذلك؟ أما عندما يأتي الدور على الأسئلة الأكبر والأهم حول الطريقـــة التـــي نعيش بها حياتنا فإننا نميل أكثر إلى التسامح.

إنه لأمر له إغراء أن نظن أن المنحى الذي تتخذه حياة الإنسان لـــيس أمرًا أخلاقيًا وإننا لا يجب أن نفكر في الجيد والسيئ، والـــصحيح والخطـــأ، ولكن في الميول المختلفة وكل له ميوله، إننا يجب –على الأقل- أن نعطـــي للحديث الأخلاقي النسبية، مثلاً أن نقول إن الذهاب للعمل جيد بالنسبة للمرأة العاملة أما الأم فالبقاء في المنزل جيد بالنسبة لها.

كل هذا شيء مغر، لكنا في الحقيقة لا نستطيع توجيه الأسئلة حول أسلوب حياتنا بعيدا عن الأخلاقيات، سيكون غريبًا أن نربط مغزى الأخلاقيات بالأسلوب الذي نعامل به الآخرين ولا نفعل ذلك مع الأسلوب الذي نعامل به أنفسنا، إننا لا نستطيع أن نضع اهتمامًا بالسؤال الضيق حول كيف نعامل أنفسنا ولا نفعل ذلك مع الأسئلة الأوسع حول الأسلوب الذي ندير به حياتنا، إن لغة الأخلاقيات – ربما ببعض الاختلافات- هي اللغة الأحق بمناقشة هذه الأمور.

إن عدم رغبتنا في إطلاق أحكام له ما يبرره ويقوم على أساس متين، لكن الحقيقة هي أن النسبية فيما يتعلق بأساليب الحياة ستعطي غطاء لبعض أنواع الحياة الشديدة الغرابة، بعد التفكير في هذه النقطة لبرهة من الوقت سوف نسأل إن كان هناك سبب وجيه لتبني الجانب الثقافي من النسبية أو الجانب المتطرف الذي يقول إن كل فرد له حقائقه الأخلاقية. أعتقد أنه لا يوجد سبب وجيه لذلك. ولكن إذا استطعنا مقاومة إغراء النسبية فعلينا أن نواجه السؤال كيف نستطيع أنا وأنت دون أن نكون رجال دين أو شعراء أو حكماء، أن نقرر طبيعة الحياة الطيبة؟ إننا – دون أن نقع في حرج – سوف نحتاج على الأقل لمعرفة الخطوط الخارجية للإجابة.

إن المثل المفضل لديّ للأسلوب الغريب في الحياة سوف يأخذنا بعيدًا جدًا إلى صحراء مصر وسوريا في نهاية القرن الرابع الميلادي حيث بدأت الرهبنة المسيحية. أول الرهبان كانوا نساكًا ابتدعوا أساليب لحرمان أنفسهم من متع الجسد. إن تولستوي كما رأينا اتجه إلى حد ما إلى الزهد، ولكننا إذا قارناه بهؤلاء فسوف نجده تابعًا لمذهب اللذة، إن أغرب حياة بين حياة هؤلاء النساك هي حياة سيمون الذي لقب بالإستايليتس وهي كلمة يونانية تعني العمود. في كتابه الرائع "تاريخ الأخلاقيات الأوربية" الصادر في العام ١٨٩٦ يقول عنه و. اي. إتش. ليكي:

"لقد بنى بنجاح ثلاثة أعمدة ارتفاع الأخير ستون قدمًا، أما محيطه فلا يكاد يصل إلى قدمين مكعبين، فوق هذا العمود استمر معرضا لكل تقلبات المناخ، وبسرعة وبلا توقف كان يحني جسده في الصلاة حتى يصل إلى قدميه، وقد حاول أحد المشاهدين أن يحصي عدد تلك الحركات السريعة ولكنه توقف بسبب الملل بعد أن أحصى منها ١٢٤٤ حركة".

كان سيمون يطمح إلى العظمة، وقد اعتقد المجتمع المحيط به أنه حققها. كتب ليكي عنه:

"جاء الحجاج من كل مكان واحتشدوا تقديرًا له، وشيعه إلى قبره جمع من الأساقفة، ويقال إن نجمة متألقة كانت تلمع فوق عموده فيما يشبه المعجزة، واعتبره الجميع المثل الأعلى للقديس المسيحي، بينما حاول كثيرون تقليده أو التشبه به في التكفير عن الذنوب".

وفي قصته "في بلاط الملك آرثر" أدمج الكاتب مارك تواين الوصف الذي وصف به ليكي الراهب سيمون ولكنه ظن أن القارئ لن يستطيع أن يتحمل كل تلك التفاصيل المفزعة وقال في الهامش: "إن هذا الكتاب هو قصة وليس تاريخًا، وإن معظم التفاصيل الصريحة التي يقدمها المؤرخون أصعب من أن تعاد كتابتها". إن كل التفاصيل توضح كم كانت حياة سيمون غريبة (هل لديك أدنى شك في ذلك؟)، إنني لا أستطيع أن أقاوم رغبتي في الاقتباس ثانية، إنني أقتبس من ليكي قوله:

"لقد قيل لنا إن القديس سيميون وقف على رجل واحدة لمدة عام وكانت رجله الثانية مغطاه تمامًا بالقرح بينما كان كاتب سيرته مكلفًا بالوقوف بجانبه ليجمع الدود الذي يسقط من جسده، ويعيد وضعها في أعضاء جسده بينما يقول لها القديس: كلي ما أعطاك الرب".

كان سيمون أحد نساك الصحراء الذين يعدون بالآلاف، كل منهم له أسلوبه الخاص، فمثلاً أحد الرهبان عاش في حفرة وكان يأكل في اليوم خمس حبات تين فقط، أما القديس إسبيوس فقد حمل مائة وخمسين رطلاً من الحديد وظل يطوف بها ثم عاش في بئر جافة لمدة ثلاث سنوات، ثم كان هناك طائفة دينية يطلق عليها اسم أكلة العشب لا يعيشون تحت سقف قط، ولا يأكلون اللحم ولا الخبز، بل كانوا يعيشون كل وقتهم فوق الجبال ويأكلون العشب كالبهائم.

إن الوقت الذي قيل إن السيد المسيح قد قضاه في الصحراء بعد تعميده كان مصدر الإلهام لنساك الصحراء، ذكر أثناسيوس الذي كتب سيرة القديس أنتوني أول راهب شهير، أن ذلك الراهب كان يدفع عن نفسه الشياطين بنفس الأسلوب الذي كان يتبعه السيد المسيح. كما أن المعاناة الرهيبة التي كان سيمون ينشدها يبدو أنها كانت تقليدًا لمعاناة السيد المسيح على الصليب.

ويقول بعض الدارسين إنه ليس من قبيل المصادفة أن الزهد المبالغ فيه قد انتعش في السنوات التالية لتحول الإمبراطور الروماني قسطنطين إلى المسيحية في العام ٣١٣ ميلادية وعندما أصبحت المسيحية هي الدين العام، واختفى زمن الشهداء، بدأ المسيحيون يفكرون في سبل جديدة للتعبير عن إخلاصهم، فإذا كان الوصول لجنة السماء عن طريق الاستشهاد لم يعد له مكان فإن البديل أصبح التقشف بأقصى درجاته.

يشير الدارسون إلى أن أسلوب الحياة الصعب لم يكن اختبارًا للوصول إلى الجنة ولا هو مجرد تقليد بل إن قديسي الصحراء كانوا يأملون حقًا في تحقيق الكمال الدنيوي، وقد نبع هذا الأسلوب في الحياة من أفكار حول ما هو مطلوب لأفضل حياة ممكنة، وتأتي كلمة الزهد asceticism من الكلمة اليونانية askesis التي تعني تدريبا أو تمرينا، أما الشخص الذي يطلق عليه

صفة asketikos فهو الرياضي، فالرياضي أو عداء الماراثون لهما نظام مشترك ونوع خاص من النظام يتلخص في إنكار الرغبات الحسية، وبنفس الأسلوب الذي يرغب العداء أن يتوقف ويستريح ويبرد جسده يعمل الزاهد على ألا يعتلي العمود، أن يخرج من البئر، أن يتظلل من الشمس، أن يأكل شيئا آخر غير التين، وربما يكون الزهاد قد شعروا بنوع من المنافسة كتلك التي يشعر بها الرياضيون، وإن كان كل يهدف إلى شيء مختلف، فالزهاد رياضيون من نوع مختلف رياضتهم رياضة روحانية.

ولأنهم زهاد فإن قديسي الصحراء كان يزورهم الكثيرون، كانت أماكنهم في الصحراء لا تبعد عن المدن إلا أميالاً قليلة، لذلك فإن الحجاج لم يكن عليهم السفر طويلاً، وقد أظهر نحت بارز يرجع تاريخه للعام ٥٠٠ سيمون فوق عموده وبالقرب منه أحد الحجاج متسلقا فوق سلم، وبسبب نظامهم الصارم ظن الناس أن الزهاد قادرون على صنع المعجزات مثل شفاء المرضى وإنقاذ الأرواح، وقد ذاع صيت هؤلاء الزهاد عن طريق ما كتبه الكثير من الحجاج، وصاروا مصدر إلهام في سائر أنحاء الإمبراطورية الرومانية.

لقد عاش قديسو الصحراء وفقًا لمفهومهم عن الحياة الأفضل، وطبقًا لمعايير ثقافية معينة، لذا فإنه لا توجد نسبة من الاتفاق على أن هناك شكوكًا حول هذه النوعية من الحياة، لكن الشكوك لا مفر منها، فهل الجلوس في الأبيار، والوقوف فوق الأعمدة، وأكل العشب كالأبقار، هل هذه يمكن أن تعتبر أساليب طيبة للحياة؟

الوقوف على الأعمدة لمدة ثلاثين عامًا لا يصنع حياة طيبة، هذا هو شعورنا فهل نحن غير متسامحين؟ هل نحن ضيقو الأفق؟

إذا نظرنا إلى الأشياء من منظور نسبي فإن قديسي الصحراء يجب أن يحكم عليهم بطريقة إيجابية. إن الأنظمة الأخلاقية التي يتبعونهـا يمكـن أن تكون غير صحيحة بالنسبة لنا، لكنها صحيحة بالنسبة لهم هكذا تقول النسبية، لكن هذه العبارة (صحيح لـ...) هي عبارة غريبة، إننا لا نستطيع أن نفكـر في أمور مثل لون السماء وجيولوجية المريخ، ونشوء الإله أو وجـوده، ثـم نقول إنها صحيحة بالنسبة لشخص وغير صحيحة بالنـسبة لآخـر. فكيـف ينطبق هذا على النظم الأخلاقية؟

إن النسبية ستجيب عن هذا السؤال بلفت انتباهنا إلى المظهر المحيـر للصدق الأخلاقي الأسلوب الذي يدفعنا ويشدنا، عنـد معرفتنـا أن إطعـام الرضيع الجائع صحيح إذا سمعناه يبكي من الجوع، لحظتها يجب أن نسارع لإطعامه.. أسلوب واحد لهذا الدفع والشد هو اعتبار أن الأخلاقيات هي نظام أمر ونهي.. هناك أوامر مثل "أطعم الصغير"، "قل الصدق"، وهناك أوامـر تتناول بصفة عامة الأسلوب الذي نعيش به مثل: "قاوم الرغبـات الجـسدية" أو "طور مواهبك".

الأوامر تصدر من شخص لشخص آخر، وهناك نـوع فـردي مـن النسبية يرى أن الأوامر تصدر مني شخصيًا إلى نفـسي لأسـباب ثقافيـة، والأمر هو الثقافة التي زرعها فينا الآباء، المعلمون، الحكام، المـشرعون... إلخ، الأوامر تصدر لكل شخص في جماعة اجتماعية معينة، إذا كان العيش بأسلوب أخلاقي هو أمر متعلق بإطاعة الأوامر فإن من المعقـول أن نـسأل عما يدفع أي شخص لأن يطيعها، ماذا يعطي لتلك الأوامر قوتها؟ حـسنًا إذا لم أتبع أوامري الخاصة، سوف أشعر بعدم الارتيـاح، سـيراودني شـعور بالذنب، أما إذا كانت الأوامر ثقافية فإنها ستكون موضع جزاء أو عقاب. ما دامت الأوامر ملزمة لمجموعة من الناس فإن مفهومهـا يعنـي أن هنـاك

متطلبات أخلاقية تصلح لي ولا تصلح لك، أو تصلح للمصريين في القـرن الرابع ولا تصلح للأمريكيين في القـرن الواحـد والعـشرين، إن قديـسي الصحراء كانوا يطبقون المتطلبات الأخلاقية التي كانت صحيحة بالنسبة لهم، النسبيون يضيفون أننا يجب ألا ننتقد حقيقة أن هذه المتطلبات كانت صحيحة بالنسبة لهم، فنعطيها، كما نعطي السلوك الذي يسلكونه، حصانة ضد التحدي.

هل هذا هو الأسلوب الصحيح للنظر إلى الحديث الأخلاقي؟ هل توجد جذوره في الأوامر التي تنطبق على هؤلاء السكان دون هؤلاء، أو على فرد في وقت معين؟ هذا التفسير ينهي بريق الحديث الأخلاقي بما فيه هذا النـوع من الحديث الذي يقول إنه خطأ دائما أن نقدم تضحيات إنسانية، إنه يـدفعنا لأن نتقبل ما يفعله المايا عندما نريد فعلا أن نختلف أو نرفض، هذا إذا قبلنا بالنسبية. لكن دعنا نركز الآن على الحديث الذي هو لب هذا الكتـاب، فـي الحقيقة ليس هناك شيء ممكن أن نقوله ضد أسـلوب قديـسي الـصحراء والأسلوب الأمثل للحياة إذا نحن تبنينا نظرية النسبية ألا وهي أن تلك الحياة صحيحة بالنسبة لهم وغير مناسبة بالنسبة لنا، فهل هذه البيانات النسبية حجج مقبولة؟

المناقشة هكذا تقف بعيدا جدا، عندما يكون هنا مطلب يعـرف بأنـه صحيح فلا معنى لتحديه، إننا لا نضيع وقتنا في تحدي الحقائق، لكن لمـاذا نعطي نفس الحصانة للأفكار الأخلاقية التي تـصدق فقـط علـى شـخص أو جماعة؟ إن مبدأً أخلاقيًا صحيحًا بالنسبة لشخص هو الكامن وراء الأوامر السائدة، إنه المبدأ الذي ينتظر أن تتبعه تلك الجماعة، لماذا تصبح أية مبادئ محصنة ضد الفحص أو الاختبار أو التجريب ما لم تكن معروفة مقدما بأنها صحيحة.. ويحتمل أيضا أن ترفض؟ إن النسبي يحتاج لأن يعطينا سببًا جيدًا للقيد، إن النسبي ربما يجد القيد من الشعور بعـدم الاعتـدال، إن النـاس لا

يمكنهم أن يتخطوا المستويات الصحيحة بالنسبة لهم أو لثقافاتهم. فالقديس سيميون كانت مكافأته أنه حقق الارتياح في العيش وفقا لمُثُله وأنه حظي بتقدير الحجاج، كيف نستطيع أن نحكم على حياة سيميون الغريبة بينما لم يكن لديه أي سبب ليعيش حياة أخرى؟

إجابتي هي أن سيميون كان عنده بالفعل سبب لأن يعيش بطريقة مختلفة، إن القواعد الأخلاقية المتأصلة في الفلسفة اليونانية والتي كانت وما زالت موجودة في القرن الرابع كانت ستقول لسيميون أن يلبي احتياجات الجسد ولكن باعتدال، أخذًا بتلك النصيحة، ولكان سيميون قد وجد أسبابًا كثيرة كي يبالي بها، تخيل كم الراحة التي كان سيحصل عليها لو أنه نزل من على العمود وأخذ حمامًا ساخنًا ثم نام في فراش نظيف، تخيل كم كان ممتعًا للرجل الذي لم يأكل إلا التين لو أنه أكل قطعة خبز، وللآخر الذي يعيش في البئر لو أشبع رغبته في النور والهواء الطلق.

من الصعب الاعتقاد بأن الزهاد لم يكن لديهم أي شك في جدوى حياتهم، الرجل الذي جلس في البئر ثلاثة أعوام لا بد أنه فكر أحيانًا في معنى ما يفعله سيميون، لا بد أنه أحيانًا راودته الشكوك حول جدوى الوقوف على العمود، آخرون من الزهاد الذين عاشوا في الصحراء في ذلك الوقت ربما يكونون قد حكوا رؤوسهم بأظافرهم مرات ومرات متسائلين هل أعمال الزهد المجيدة لها أية قيمة؟ حتى ولو كان ما يفعلونه مجرد غيرة من شهرة سيميون.

معظم الناس يكافحون ليعرفوا ما يجب أن ينظروا له على أنه سيئ أو جيد، صحيح أو خطأ، حقيقي أو زائف، وهناك قليل من الثقافات تلقن الأفراد مبادئ أو معتقدات أو أسلوبًا واحدًا في التفكير ولا تدع مجالاً للأفكار الخاصة، هناك دليل واضح على إمكانية التغيير الذهني العقلي في اعترافات القديس أوغسطين العالم اللاهوتي الشهير الذي عاش في شمال إفريقيا وفي

روما من العام ٣٥٤م حتى العام ٤٣٠م، كشاب ورجل حديث السن عاش القديس أوغسطين حياة الاستمتاع، دفعته دراساته لأن يقبل منافسًا لمسيحية القرن الرابع، ثم صار أفلاطونيًا، لكنه غير فكره وعاد للمسيحية ولفترة من الزمن تبنى أسلوب الرهبان في العيش لكن دون الانعزال النهائي أو زهد قديسي الصحراء، وعلى مدى حياته ظل يتنقل من مفهوم للمسيحية إلى آخر.

إن قصة حياة السيد هاما جوتاما (البوذا) في القرن الخامس قبل الميلاد لهي قصة أخرى من قصص تطور المفاهيم حول كيفية العيش، قصة تبنيه ثم نبذه لفكرة الزهد. ولد السيد هاما أميرًا بإمارة على سفح الهمالايا وعاش حياة بذخ ورفاهية ومتعة في حماية والده الذي أبعد عنه كل قلق أو كفاح أو معاناة، وفي أثناء خروجه من القصر لمح حياة حقيقية فقرر أن ينبذ حياته حياة النعيم ويتخلى عن امتيازاته وانضم إلى خمسة من النساك وراح يتجول لمدة ست سنوات متأملاً، ومتسولاً الطعام القليل الذي يسمح لنفسه به، وفارضًا على نفسه حياة الحرمان من كل شيء، وعندما بلغ سن الخامسة والثلاثين قرر أن الزهد ليس مجديًا وترك صحبة رفاقه الخمسة الذين ضايقهم ذلك. وتقول الأسطورة إنه جلس طيلة الليل تحت شجرة وفي الصباح حصل على إشراقة المعرفة، ثم تطورت صحوته عبر وقت طويل إلى تعليماته التي هي أساس البوذية.

هؤلاء هم مفكرون عظماء وربما كان لدى المفكرين العظماء القدرة على التغيير أكثر من بقية الناس، لكن الناس العاديين يغيرون أفكارهم أيضًا إنهم يستطيعون أن يتساءلوا عن أسلوب حياتهم. عندما تكون لدينا شكوك عن أسلوب حياة ليس لنا فإن شكوكنا لا تكون عادة بعيدة عن الحياة التي نحكم عليها.

لم ينعم أسلوب حياة قديسي الصحراء بالقبول طويلاً، لقد تم سريعًا استبدال أساليب الحياة المتطرفة بأخرى أكثر اعتدالاً، حلت الأديرة المشتركة

محل حياة الوحدة التي كان الرهبان يعيشونها، حل محل التركيز على الطهر وضبط النفس الاهتمام بأشياء أخرى مثل أعمال الخير كالإحسان والصدقة، ربما كانت شكوكنا حول الوقوف لمدة ثلاثين عامًا فوق عمود أيضًا محل شكوك قديسي الصحراء أنفسهم ولو بدرجة أقل.

إذا كنا نسمح لأنفسنا بأن نتشكك في أسلوب حياة قديسي الصحراء فكيف نتوقع أن نكتشف أي شيء حقيقي حول الأسلوب الذي يجب أن يحيا عليه الشخص بدلاً من مجرد الأشياء التي نعتبرها صحيحة بالنسبة لنا؟ كيف نستطيع أن نتوقع أن نكتشف أية حقائق أخلاقية إيجابية؟

يرى بعض الفلاسفة المعروفين أن هذا شيء موجود، إيمانويل كانت الفيلسوف الألماني الذي عاش في القرن الثامن عشر يعتنق مفهوم الأخلاق، ويقول إنه يوجد هناك أمر أخلاقي صحيح وملح يربط كل الناس بالتساوي بصرف النظر عن الزمان والمكان لا ينبع من الثقافة ولا المؤسسات المحلية ولكن من العقل نفسه، إن هذا الإلزام الأخلاقي الذي يقول لنا عنه إيمانويل كانت يعني أن كلاً منا يجب أن يتصرف وفقًا لمبادئ عامة نأمل أن يتبعها الجميع، ومن ناحية أخرى فإن أوامر الإله يجب أن تكون الأساس الذي نرجع إليه عند التقييم الأخلاقي، واعتمادًا على الآراء الدينية وآراء إيمانويل كانت فإن سيطرة الأخلاق تصبح هي الأساس وتكون النسبية الثقافية خاطئة، فإن الأوامر الأخلاقية تنطبق على الجميع بصرف النظر عن الثقافات.

كل هؤلاء الفلاسفة يدركون كيفية معاملة الآخرين وأيضًا الوسيلة التي نحيا بها حياتنا. الأسئلة حول كيفية معاملة الآخرين وأيضًا الوسيلة التي نحيا بها حياتنا، الأسئلة حول كيف يتعين أن نعيش حياتنا، لا توجد فقط خارج الأخلاق الصحيحة أو على قمة المدن، إنها بارزة عند الإغريق وبالتأكيد في نظرية الأوامر الإلهية الموجودة في أي من نسخ الإنجيل وهي الفكرة الرئيسية عند إيمانويل كانت.

كل هذه النظريات تدرك أساس الحقيقة الأخلاقية سواء أكانت إملاءات العقل أو أوامر الإله، الشكل الجيد، أو الطبيعة الإنسانية. ومن ناحية أخرى ليس صحيحًا أن الفلاسفة يصنعون إدراكهم العميق على أية أسس، إن النظريات والأفكار الباقية تنبثق من عملية فصل بين النظريات، متابعة مضامينها، اختبارها على أمثلة معينة، وأمثلة مختلفة، وهذه العملية هي المسماة اللهجات المرسومة بإتقان في حوارات أفلاطون. ربما يكون واحد أو الآخر من آراء التأسيين صحيحًا، ولكن هذا ما سأفترضه بقدر الإمكان في هذا الكتاب بعيدًا عن التفكير الجيد، أو حتى مجرد النظرية؛ فإن الحقائق الأخلاقية تخرج أفكارًا صحيحة ليس لي أو لك فقط، ولكن لثقافة أو الأخرى هي صحيحة، فمثلاً في هذه النقطة نعرف أن العبودية سيئة، القسوة بدون مبرر سيئة، المتعة أفضل من الألم، النقاء العنصري مثلاً لا قيمة له، المال، القوة، الشهرة ليس لها قيمة جوهرية، حتى بعض الأفكار التي تحظى بموافقة كونية يمكن أن تكون حقائق أخلاقية، مثلاً: الحيوانات تستحق الاهتمام، النساء لا بد أن يتمتعن بنفس الحريات التي ينعم بها الرجال، التعذيب دائمًا خطأ... إلخ.

حتى ندخل إلى الحقائق الأخلاقية فإننا يجب أن نكون مهيئين كي نفكر جيدًا، أن نأخذ في الاعتبار الآراء القديمة، نستمع إلى الاعتراضات، نتمعن في المناقشات المضادة، نأخذ بجدية إمكانية أن يكون أحد على خطأ أو أنه سيثبت خطؤه فيما بعد، هذا يشدنا للأمور المنافية للطبيعة والعقل (المزعومة). للخوض في هذه الأمور الكبيرة كتلك الموجودة في هذا الكتاب – في الواقع – لسنا بحاجة لأن نكون رجال دين ولا حكماء لنبدأ، إننا نحتاج فقط لأن نكون على استعداد للتفكير.

ما التفكير الجيد؟ ما التفكير السيئ؟ ما الفارق بين التفكير الأخلاقي والأنواع الأخرى من التفكير؟ وما الحقيقة الأخلاقية؟، وكيف تكون مختلفة عن الأنواع الأخرى من الحقائق؟ كل هذه الأسئلة كامنة تحت هذا الاقتراح. إننا يجب أن نفكر هل نتركهم هكذا؟ النقطة هي أنه علينا أن نضع السؤال: كيف يجب أن نعيش؟ إننا لا نحتاج إلى مؤهلات أو قوى خارقة حتى نبدأ.

إن التفكير والتأمل حول ما هي الحياة الطيبة هو أمر مشروع، ولكن يجب أن يؤخذ بتواضع. إننا نكون في وضع أفضل إذا قدمنا متطلبات معقولة حول ما هو ذو قيمة بالفعل إذا نحن تعرفنا أكثر وبعقول مفتوحة على أنماط الحياة الإنسانية في الماضي والحاضر، وفي العالم من حولنا. كيف أستطيع أن أفعل هذا؟ ربما بأن أندمج مع كل أسلوب للحياة، مثلاً بأن أعيش كراهب في التبت لعدة سنوات، ثم بالعيش كعضو في جماعة نوبيت، أو ربما كزوجة رابعة لرجل دين وهكذا وهكذا، المشكلة أنني لن أنتهي أبدًا وكل هذا التغيير سيجعلني مضطربة، ولن أكون في وضع مثالي أستطيع منه أن أحكم على الحياة. الأفضل أن أعترف بهذا في الإمكان دائمًا، إننا بدلا من أن نحقق صدق البصيرة فإننا نخلط ميولنا الثقافية والشخصية، إن الفلاسفة الذين يطلبون الأسس الموضوعية لآرائهم الأخلاقية، هؤلاء الذين يبحثون ويفكرون جيدًا قد أعمت عيونهم متطلبات عصورهم وتأملاتهم الشخصية، يقول أفلاطون إن المجتمع المثالي هو المجتمع الطبقي التكوين والذي يحكمه الفلاسفة، أما أرسطو فإنه يدافع عن العبودية، بينما يقول كانتْ في موضوع غامض إن العادة السرية أسوأ من الانتحار. ما نستطيع أن نفعل هو أن نفكر في الأشياء جيدًا بأمل أن نصل إلى نتائج تستطيع أن تقف في وجه المزيد من الاختبار.

إن فهم الاختلافات الفردية والثقافية يعد أمرًا مهمًا، إننا عادة نحكم بسرعة على الجار الذي يحيا بأسلوب مختلف، والأخت التي تمتهن مهنة أخرى. إذا فهمنا قديسي الصحراء جيدًا أكثر وأكثر لوجدنا شيئًا جيدًا في حياتهم، إذا كان النظام جيدًا فهم منظمون، إذا كان الإخلاص شيئًا جيدًا فهم مخلصون، إذا كانت هناك حقيقة حياة بعد الموت فإنه من العقل العمل من أجلها، وحتى بعد كل ما قيل فإنه ما زال هناك شيء مفقود في قضاء الحياة وقوفًا على عمود أو داخل بئر أو أكل العشب. حتى نعرف السبب علينا أن نفكر في أسئلة كثيرة حول ما يجعل الحياة تسير سيرًا جيدًا.

الفصل الثالث
العقل والحظ

نريد أن نعرف: ماذا يجعل الحياة طيبة؟ ما الذي ينبغي أن نهدف إليه؟ وما الذي ينبغي أن نتخذه بداية لأولوياتنا؟ ماذا يهم أكثر؟ وماذا لا يهم؟ كيف نبدأ في التفكير في هذه الأسئلة الكبيرة؟ إن أكبر تنشيط للعقل قبل مواجهة هذه الأسئلة هو رحلة في التاريخ، في هذا الفصل نتناول الأفكار القديمة، ثم ما تلاها حتى نصل للأفكار الحديثة، إنني لن أتفق كلية مع الآراء القديمة أو الحديثة لكني سأجد فيها مصدرًا ثريًا للمادة التي سأستخدمها.

كيف نعيش؟ كان هذا هو السؤال الرئيسي أمام الفلاسفة في روما واليونان القديمة، على الرغم من أن عالمهم كان مختلفًا كلية عن عالمنا، فإن اهتماماتهم لم تكن على هذه الدرجة من الاختلاف، كانت الأفكار القديمة عن الحياة الأفضل مندمجة مع أفكار حول من يستطيع أن يعيش تلك الحياة ومن لا يستطيع. هل الحياة الطيبة مقصورة فقط على السعداء والمفضلين؟ إلى أي درجة أستطيع أن أحتفظ بحياتي طيبة؟

إن مفهوم ضبط النفس تم اكتشافه في الشعر الإغريقي الدرامي، كان كل شيء جيدا في حياة أوديب إلى أن تعارك مع رجل عند مفترق طرق فسقط الرجل صريعًا، كان يمكن أن يبدو هذا أمرًا عاديًا لولا أنه اتضح أن الرجل هو أبوه الشرعي، وسار أوديب في طريقه إلى طيبة حيث تقابل مع الملكة وتزوجها، لم يكن في هذا الأمر أية مشكلة حتى ظهر أن هذه المرأة هي أمه الحقيقية، تحول بسيط في الظروف والمواقف، مصادفات يمكنها أن تغير مسار الأحداث، كان سوفوكليس نادرًا ما يصنع نهاية سعيدة للقصة.

يتفق الشعراء على أن الصدف يمكن أن تحطم حياتنا، إن المشكلات التي تقع لأبطال الإلياذة لا يمكن تحويلها عندما يقود أجاممنون ألف سفينة إلى طروادة، لا توجد رياح تساعدهم للإبحار في بحر إيجه، وتعرض الآلهة مساعدته على شرط أن يقدم أجاممنون ابنته قربانًا للآلهة، لم تكن التضحية العادية بالحيوان كافية كالمعتاد، إما أنه يترك نهائيًا معركة الإغريق كلها وإما أن يعود للبيت ليبحث عن ابنته حيث ذكرت له قصة مزيفة عن أنها ذهبت لتتزوج من أكيلس، هذه القصة المرعبة قيلت في عدة مسرحيات ليوريبيدس وإسكيلوس.

لو كانت المصادفة تحدث فقط بسبب هذه الظروف الدخيلة لما اهتممنا بها، إننا لا يجب أن ننهي أنها حدثت مصادفة أن يقتل أوديب الأب ويتزوج الأم أو أن يجبر أجاممنون على الاختيار بين ابنته وبين الريح، لكن هذا النوع من سوء الطالع يواجهنا كل يوم، فمنذ ستة شهور كنت في طريق عودتي للبيت بعد إلقاء محاضراتي، لاحظت مجموعة من الناس يقفون بجانب شجرة محاطة بأكوام من الزهور، كان واضحًا من المنظر أن حادثة وقعت توًا، وفي اليوم التالي علمت أن طفلة عمرها ست سنوات قتلها طالب في المدرسة الثانوية كان يقود سيارته في طريقه لمدرسته وكان هذا اليوم هو يوم عيد ميلاده الثامن عشر وكانت الطفلة في طريقها لمدرستها بصحبة أمها، توقف الطالب عند إشارة الوقوف ولكنه انحرف لليسار قليلاً فقتل الطفلة، جعلتني تلك الحادثة أفكر كيف حال والدي الطفلة؟ وأتساءل أيضًا عن حال الطالب الذي اتهم بتهمة حادث أدى إلى القتل.

ظن الشعراء القدامى أن البقاء في حالة طيبة هو لفترة محدودة وهو معرض للخطر، ولكن يجب أن ننتظر شيئًا آخر من الفلاسفة القدامى فهل يقدمونه لنا؟

إن أكثر أعمال القدماء شمولية وتنظيمًا هو محاضرات أرسطو عن الأخلاق النيقوماخية Nicomachean Ethics، وهي محاضرات ألقاها على جماعة من الشباب الأغنياء في الملعب الرياضي ليسيوم خارج أسوار مدينة أثينا، وهو المكان الذي ازدهرت فيه الديمقراطية وولدت فيه الفلسفة فعليًا. مدينة تعدادها حوالي نصف مليون شخص، لا يجب أن نتخيلها مدينة بدائية لمجرد أنها وصلت ذروتها في القرن الخامس قبل الميلاد، فقد كان فيها فنون راقية ومبانٍ ضخمة مثل مبنى البارثنون، وكانت الحياة اليومية متحضرة جدًا، وكان الناس يعيشون في مبانٍ مكونة من طابقين ولها أرضيات خشبية ونوافذ ذات ضلف، وحوائط مكسوة أو مطلية، وكان ثلث السكان من العبيد الذين يعاونون أهل أثينا في كل شيء، وبذلك كان لدى الأثينيين وقت فراغ طويل خصصوه للفلسفة.

كان أرسطو في كل بيت في أثينا رغم أنه لم يكن من أهل أثينا، فقد جاء من مقدونيا حيث كان أبوه طبيبًا، وخلال العشرين السنة الأولى التي قضاها في أثينا كان أشهر تلاميذ أفلاطون، بعدها عاد إلى مقدونيا حيث قضى بعض الوقت معلمًا للإسكندر الأكبر، ثم عاد إلى أثينا حيث رأس مدرسته الفلسفية لمدة عشر سنوات، وقد أفرزت هذه المدرسة مدارس أخرى استمرت طيلة الفترة الهلينية وحتى القرن الثاني بعد الميلاد، وإحدى هذه المدارس بدأت بعد موت أرسطو مباشرة في مبنى الرواق وهو مبنى في مدينة أثينا سمي بهذا الاسم نسبة إلى شرفته، وقد أصبحت الرواقية أو فلسفة الصبر على المكاره هي الفلسفة السائدة سواء بين الأباطرة أو العبيد في روما.

وبالرجوع إلى سجل محاضراته، نرى أن أرسطو بدأ محاضراته عن الأخلاق ذاكرًا أن كل الناس تهدف إلى هدف واحد هو الخير وأن فهم طبيعة الخير لها جانبان: شخصي وسياسي. كان يتوقع أن دراسة الخير سوف

تساعد تلاميذه لتحقيق الخير في حياتهم، أما بالنسبة للدولة فإن دراسة الخير سوف تساعد على تحقيق الخير للجميع عندما ينخرط تلاميذه في العمل السياسي، وأن معظمهم سوف يتحقق له ذلك.

وتوقع أرسطو اتفاقًا عامًا سريعًا على ما يوصلنا إليه الخير، يقول إنها السعادة Eudaimonia.

فما هي السعادة بالضبط؟ إن فهم معنى سعادة على أنها مجرد شعور سوف تكون ترجمة مضللة. إن أحد مفاتيح فهمنا للسعادة – كما يقول أرسطو– هو أن غايتنا النهائية تكمن في فعل ذلك الذي يكون مميزًا للموجود البشري على الأخص. ولا شك أن هناك شيئًا ما يفعله الموجود البشري فقط باعتباره موجودًا بشريًا وهو أن يفكر.

وفي مرحلة لاحقة من محاضراته عن الأخلاق تسقط هذه النقطة أيضًا، فهو يقول فيما بعد إن التفكير هو شيء تفعله الآلهة أيضًا، إن الفكرة الرئيسية ليست هي أساسًا حول استخدام سماتنا الطبيعية وميزاتنا، ولكن في الاتجاه الذي تميل طبيعتنا إليه، أن نعيش بطريقة طيبة بقدر المستطاع، لا أن نشكل أنفسنا بطريقة مخالفة للطبيعة، إن الحياة الطيبة ليست حياة مفروضة، وهذا الجانب من فكر أرسطو يتضح من ترجمة كلمة Eudaimonia إلى كلمة ازدهار التي تعني أن هناك تشابهًا بين الشخص وهو في حالة طيبة والنبات المزدهر.

إننا نستطيع أن نرى العيب الصارخ الذي سيجده أرسطو في رجل يقف على عمود لمدة ثلاثين عامًا، إن حياة سيمون إستايليتس حياة تعذيب مفروضة ومجبرة مثل حياة أكلة العشب من الزهاد.

من الواضح أن حياة قديسي الصحراء غير الطبيعية كانت سترعب أرسطو لكنا يجب ألا نأخذ انطباعًا خاطئًا عن معنى الحياة الطبيعية، إن رأي أرسطو يدعو إلى التفكير في مجموعة من درر الحكمة المعاصرة له فماذا قال فعلاً؟ ماذا يعني؟ هل يعني العودة إلى الطبيعة؟ لا، فإننا في أماكن متحضرة يتطور فيها العقل، هل يعني" كن نفسك"؟ ربما نعم هذا هو ما يعنيه لكن شريطة أن نأخذ جهدًا وتدريبًا لنحقق طبيعتنا كمخلوقات عقلانية. وعلاوة على هذا أنا وأنت متشابهان، كلنا نشترك في طبيعة واحدة، الاتجاه نحو العقل. هل هي "كن كل ما تستطيع" هذا أفضل من "كن نفسك" لأن هناك أشياء تأتينا طبيعيًا مثل الأكل والجنس والنوم، لكنا يجب أن نطور أحسن جانب في طبيعتنا؟

إلى أين سنصل إذا أجدنا استخدام قدراتنا الطبيعية باعتبارنا موجودًا بشريًا؟ إذا كانت الزهرة الكاملة تبدو هكذا فكيف ستبدو الحياة البشرية الكاملة التي لا تشوبها شائبة؟ يقول أرسطو: إن الموجود البشري الذي يحقق طبيعته سيكون الامتياز أو الفضيلة عندما يصل إلى النشاط العقلاني لروحه، سوف يستخدم العقل جيدًا سواء في المجال العملي أو المجال الفكري.

هل صور أرسطو كل البشر الذين يحققون طبيعتهم جدًا على أنهم ببساطة يفعلون ما يفعلون في الحياة بفضيلة أخلاقية وفكرية؟ أو أنه صور هؤلاء البشر على أنهم يقومون بأنشطة مماثلة؟ إن عبارة الحياة الطيبة تعني أسلوبًا معينًا للعيش وليس مجرد بعض العناصر الأساسية التي يمكن أن توجد في أنواع مختلفة من الحياة، تلك العبارة تأتي من أرسطو فإنه ليس مدهشًا أن ينصح بأسلوب معين للعيش أو أسلوبين. إن أحسن الحيوات تخص الفلاسفة. لو أننا جميعًا نستطيع بمعنى أقل أن نكون فلاسفة في رأي أرسطو نحن لسنا كذلك، إن الفلاسفة هم هؤلاء المنظرون المتعلمون تعليمًا عاليًا الذين يدرسون

متطلبات المنطق والعلم والميتافيزيقا، إنهم بالتأكيد يمتلكون القيم الأخلاقية لكنهم يكرسون كل وقتهم للتأمل لذلك فهم لا يستطيعون تحقيق أقصى استفادة منها، ثم تأتي بعد ذلك أفضل حياة وهي حياة أولئك الذين يحققون أقصى استفادة عملية من القيم الأخلاقية، وهذا ممكن فقط في السياسة أو الحرب رغم أنه بمعنى أقل إننا جميعًا نستطيع أن نحيا جزءًا من هذه الحياة إذا نحن أدرنا أمورنا وفق تلك القيم، إن أرسطو يعني المشاركة في شئون الدولة وفترة خدمة عسكرية.

إذا أردنا أن نخفف آراء أرسطو ونجعلها نظرية ليس فقط للحياة الطيبة مع كل الفروق بين كل حياة وأخرى، ولكن إذا جعلناها نظرية لحياة طيبة فإننا نصل إلى أن حياة طيبة للإنسان مع كل الاختلافات هي تلك التي تستخدم العقل أحسن استخدام ليس فقط في التعليم والفهم ولكن أيضًا في الشئون العملية، إن الحياة الطيبة التي يعنيها أرسطو متاحة لعدد قليل جدًا من الناس، وفي بعض الثقافات فإن الحياة نفسها لا يمكن تصديقها، إن الحياة الطيبة في مفهوم أرسطو الجديد المخفف هي بعيدة المنال، إن المفهومين يؤكدان تأكيدًا قويًا على العقل. هل أرسطو يغالي في التأكيد على العقل؟ وحتى بين مستمعي أرسطو المهذبين المنغمسين في تقاليد فلسفية عمرها مائة عام توقر العقل لا بد أن يكون هناك تلاميذ قليلون يتعجبون لماذا يكون العقل أساسيا لعيش حياة طيبة، كيف تكون الفضيلة الأخلاقية أو العقلية بهذه الدرجة من الأهمية؟ وبدون الانغماس في محاضرات أرسطو عن الأخلاق -وهي كثيرة جدا- فإن المستمعين ربما يكونون قد تحيروا، عندما تعرف فكرة أرسطو عن الفضائل فإنك ستدرك كم تستطيع أن تطور نوع الحياة التي تعيشها.

ما هي إذن الأساليب الفاضلة للشعور والتصرف؟ في الكتاب الثاني من علم الأخلاق يقدم أرسطو مفهوم الوسطية وهو أن الفضائل الأخلاقية هي وسط بين تطرفين. الشخص الشجاع يحكم الخوف والثقة حتى يجعل شعوره بهما شعورًا وسطًا. إن الخوف الشديد رذيلة (الجبن) والخوف القليل رذيلة (الاندفاع)، الاعتدال توسط بين تطرفين. الملذات الجسدية نبحث عنها ونستمتع بها باعتدال لا نكون نهمين ولا مقترين على أنفسنا. فضيلة أخرى معروفة هي الكرم وهي الوسطية بين الإسراف والتقتير، ولكن الإنفاق لا يكون على الآخرين، الإنفاق القليل جدًا أو الكثير جدًا على نفسك شيء سيئ جدًا. المفاجأة هي أن الصراحة ليست فضيلة إذا كانت متعلقة بالكذب أو حفظ الأسرار، إن الصراحة هي فضيلة أن أكون أمينًا مع نفسي، الرذائل المقابلة هي التفاخر أو انتقاص قيمة النفس. العدالة هي الفضيلة المتعلقة بالتوزيع العادل. الفضيلة جزء كبير منها يتعلق بالوسطية في المشاعر، ولكنها ليست فقط أن نحفظ نظامنا الانفعالي في منطقة الوسط فهذا ليس من إنجازات العقل إلا بقدر ضئيل.

الاقتباس التالي يظهر تعقيد اختيار الوسط:

"إننا مثلاً يمكن أن نكون خائفين أو نكون واثقين، أن نكون غاضبين أو راغبين أن نكون شاعرين بالغضب أو بالعطف، باختصار أن نشعر بالألم أو بالسرور بدرجة كبيرة جدًا أو صغيرة جدا، وفي الحالتين ليس هذا جيدًا، لكن أن تكون لدينا تلك المشاعر في الأوقات الصحيحة وللأشياء الصحيحة أو تجاه الأشخاص الصحيحين للأهداف الصحيحة، وبالأسلوب الصحيح، فهذه هي الوسطية وهي أفضل الأحوال وهي الملائمة للفضيلة".

عندما يحصل شخص على الفضائل الأخلاقية فإن الشهوات لن تضايقه وهذا يجعله سيدًا لشئونه، وفي تعامله مع زوجته وأطفاله أو عبيده لن ينـدفع إلى الغضب الشديد، وعندما يكون في أرض المعركة فلن يغلبه الخوف ولكن لن يدفع بنفسه إلى المواقف الخاطئة، لن يفقد سيطرته على نفسه في حفلات الشراب التي يستمتع بها أهل أثينا، وأيضًا لن يقبع فـي بيتـه خوفـا مـن المشاركة فيها، إنه شخص يندمج ويشارك مع أصدقائه الذين يـسيرون فـي نفس الاتجاه.

إن الحياة الفاضلة تكون ممتعة والفضيلة هي جزاؤها.. إنهـا تعطينـا الاستقرار والاستمتاع:

> "إن الأفعال المتمشية مع الفضيلة ممتعة بطبيعتها فهـي تـسر هؤلاء الذين يحبون الرقة لأن هؤلاء الأشخاص لا يحتاجون لإضافة السرور كنوع من الزينة الإضافية فأفعالهم فيها السرور بداخلها".

كان أرسطو حريصًا على أن يوضح أن السرور ليس متطلبًا إضـافيًا منفصلاً عن الفضيلة ولم يكن بإمكانه أن يفكر في شخص يحيا حياة عظيمة ولكنها خالية من السرور، إن السعادة بمعنى السرور المطلق مهمة ولكنهـا ليست غايتنا إنها تأتي مع الفضيلة دون عناء.

مع كل هذا الشرح لأهمية امتلاك الفضيلة الأخلاقية فلن يكون مدهشًا أن يجعل أرسطو الفضيلة هي المفتاح الرئيسي للحياة الطيبة من وجهة نظره، لكن هل كان يقصد حقيقة أن الفضيلة هي كل ما نحتاج لنحيا حيـاة طيبـة؟ عندما وضع أرسطو رأيه عن الحياة الطيبة كان تركيزه في البدايـة علـى الفضيلة، كتب أرسطو: "وهكذا فإن الخير الإنساني يثبت أنه نـشاط للـروح يتماشى مع الفضيلة، وبالفعل مع أحسن وأكمل فضيلة إذا كان هناك عدد من الفضائل وليس فضيلة واحدة". بعد ذلك يضخم أرسطو الأمر إذ يقول:

"وعلى أي حال فإن السعادة Eudaimonia تحتاج أيضًا لإضافة أشياء جديدة خارجية، أو كما قلنا، إذا كنا لا نستطيع أو لا نستطيع بسهولة أن نفعل أفعالاً طيبة أو إذا كنا نفتقد الموارد، فنحن في البداية وقبل كل شيء نحتاج للأصدقاء والقوة السياسية في كل أفعالنا الطيبة تمامًا مثلما نستعمل الأدوات".

قد يبدو هذا شيئًا حميدًا، إذا فكرنا في الفضيلة على أنها حالة الروح، فإننا سنقرأ أرسطو قائلاً: " إن الناس الطيبين الذين لا يمتلكون الموارد لا يمتلكون فرص ممارسة الفضيلة، إنهم ما يزالون طيبين وطيبتهم هذه تجعل حياتهم طيبة". وعلى أي حال إذا فكرنا في مظهر آخر من مظاهر الطريقة التي يكون بها أرسطو فكرته عن الفضيلة إننا نحتاج إلى أشياء خارجية كي نتمكن من فعل أفعال طيبة، يقول أرسطو: "إن الأشخاص الشجعان يفعلون أفعالاً شجاعة وإن الأشخاص الكرام يفعلون أفعالاً كريمة، إن الشجاعة ليست مجرد خلق نشعر به ونمارسه إذا سنحت الفرصة، فإذا كان الأمر كذلك معنى هذا أنه إذا لم تسمح الظروف لشخص بأن يتصرف بشجاعة فإنه لا يعتبر شجاعًا.. إذا كنا نحتاج لأشياء خارجية لنفعل أفعالاً طيبة فهذا يعني أننا نحتاجها لنكون أفاضل".

إن أرسطو يبتعد أكثر عن توصيفه الأول للسعادة Eudaimonia عندما يقول:

"إنها حرمان أكثر من بعض العوامل الخارجية مثل المولد الطيب، الأبناء الطيبين، الجمال، البركات التي تجلب الحظ، فإننا لن نكون سعداء إذا كنا منفرين كريهي الشكل، أو من مولد سيئ أو منعزلين أو بلا أطفال، أو أن سعادتنا تكون أقل لو أن أصدقاء أبنائنا كانوا سيئين جدًا، أو أن يكونوا جيدين ثم فقدناهم بالموت".

هكذا تكون كل الأشياء التي يبتغيها معظم الناس (في وقتنا هذا أو في وقت أرسطو)، هي الثروة، الجمال، الأصدقاء، الأبناء، هي أشياء مهمة، إن أرسطو يريد فقط أن يقول إن الحرمان من تلك الأشياء "سيقلل" سعادتنا ولا "يحطمها".

ربما تدهشك تلك النقلة في تفكير أرسطو على أنها مستمدة من خبرة الحياة أو ربما تجدها مخيبة للآمال، فإنه من الأمور التي ترفع معنوياتنا أن نعتقد أنه مهما كان الإنسان فقيرًا أو دميمًا أو بلا أصدقاء أو حتى بلا أبناء فإنه ما زالت هناك فرصة لأن تمتلك كل الأشياء الطيبة. أرسطو لا يقول هذا، هناك بعض قدامى الفلاسفة -ليس بينهم أرسطو- الذين دافعوا عن فكرة إعطاء الأمل هذه. فمثلاً نجد أفلاطون في محاورته العظيمة "الجمهورية" ينقل محادثة طويلة بين سقراط وشقيقي أفلاطون، جلوسون وأديمانتوس، يرسم جلوسون صورة واضحة لحياتين مختلفتين ومتناقضتين تمامًا: شخص خيِّر تمامًا ولكنه يحيا في ظروف سيئة للغاية، إن وضعه فظيع لدرجة أن سمعته أيضا سيئة، لا شيء في حياته جيد إلا طيبته الداخلية، أما الشخص الأخر فإنه شرير للغاية لكن ظروفه ممتازة لديه كل شيء يريده ويحظى بسمعة طيبة لا يستحقها، ويتحدى جلوسون سقراط أن يثبت أن الرجل الطيب هو الأفضل برغم المظاهر. يرد عليه سقراط قائلاً: "نعم هو الأفضل"، ربما يكون هذا هو رأي أفلاطون أيضًا، إن الفضيلة نفسها هي الجزاء، إنها الجزاء الأوفى الذي يجعل كل ما عداها لا لزوم له. كيف يكون هذا؟ إن المناقشة الطويلة جدًا عن العدالة في المدينة الفاضلة هي مناقشة مماثلة يقدمها أفلاطون ليظهر أن شخصًا ذا فضيلة حقيقية هو شخص ذو نفس سعيدة، هل هذا الشخص يمكن أن يكون في وضع أفضل إذا تحسنت ظروفه الخارجية؟ يبدو أن أفلاطون لا يعتقد ذلك، فإن هذا الشخص بالفعل سعيد جدًا فلا مجال إذن لتحسن الظروف، إن رأي أفلاطون رأي سديد وعاقل وبالتأكيد هو إلهام

لكل من يعاني من ظروف سيئة، أما في رأي أرسطو فهــذا هــراء، وهــو يوضح هذا في الكتاب الثاني من "الأخلاقيات النيقوماخية" حيث يقول: "الكل يعتقدون أن الحياة السعيدة هي السرور وأن السرور يؤدي إلى السعادة، هذا معقول جدًا، فلا يكتمل أي نشاط إذا اعترضته عوائق، والسعادة هي شــيء مكتمل، لذا فالإنسان السعيد لا بد أن يكون لديه حسنات في الجسد وحــسنات خارجية، بالإضافة إلى الأنشطة الحسنة، ويحتاج أيضًا للثروة حتى لا يجــد عوائق في هذه السبل، البعض يعتقدون العكس أننا يمكن أن نكــون ســعداء حتى ولو وقعنا في ظروف صعبة، هؤلاء – سواء كانوا يعنون هــذا أولا – فإن كلامهم هراء". إننا نحتاج إلى بعض العمل لنوفق بين هذه العبارة التــي نقتبسها من أرسطو وأخرى اقتبسناها منه سابقًا حيث يقــول: "إننـــا لا نحتـــاج للسرور كزينة إضافية ولكننا نستقيه من الفضيلة". لكن الفكرة الواضحة وهي أن السعادة كاملة عندما نمتلكها بدون عوائق، أننا نكون سعداء تمامًــا بــأن نكــون فضلاء من الداخل، الأشياء في الخارج حول أرواحنا لا بد أن تتعاون، نعــم إن الفضيلة هي الجزاء، ولكن ربما يظن أرسطو أننا لا نشعر بهذا تمامًا إذا أوذينــا من الفقر أو الدمامة أو الخسارة المأساوية، أن يكون لدينا كل شــيء معنــاه أن نكون سعداء تمامًا، فلا نحرم من سرورنا ونحن نشاهد أطفالنـــا يكبــرون، أن نستمتع بالراحة المادية التي يشتريها المال وهكذا.

أين توجد الحقيقة؟ في خبرة أرسطو المستمدة من الحياة أو من نظــرة أفلاطون التي ترفع شأن الفضيلة فوق كل شيء؟

دعنا نمحص آراء الاثنين حول المأساة الحقيقية التي ذكرتها في بداية هذا الفصل؛ ماذا سيقول أرسطو للوالدين المكلومين على طفلتهما ذات الست السنوات إذا تحول مستشارًا للأحزان؟ وماذا سيقول للشاب الــذي صــدمها بسيارته؟ إذا كانت الأشياء الخارجية هي مكونات السعادة Eudaimonia فإن الوالدين كانا سيحرمان من السعادة نهائيًا بعد موت طفلتهما، هل ستكون هذه

هي الخسارة الحاسمة التي ستحرمهما من كل فرص الحياة الطيبة؟ بالطبع فإن أرسطو لا يظن أن هناك أية ضمانات لأنهما سوف يشفيان، فإذا قال هذان الوالدان: "إن حياتنا لن تكون كما كانت أبدًا" فإنه سوف يحرك رأسه بالموافقة، إن أرسطو لن يكون متفائلاً إذا شرع في مواساة السائق الذي ربما يأمل أن يحدثه أرسطو هكذا: "أعلم أنك رجل جيد، أعلم أنك تقيم الحياة، ولم ترد أبدًا إيذاء الطفلة، إنك لا تختلف عن أي سائق آخر فقد الانتباه للحظة". لكن أرسطو لن يستطيع أن يتحدث هكذا. حقيقة هناك أشخاص أفاضل يجدون أنفسهم أحيانًا في مواقف تمنعهم من السلوك الفاضل، إننا لا يجب أن نحكم على شخص حكمًا تامًا بسبب واقعة واحدة، لكن ما دامت الفضيلة هي توجه للتصرف بأسلوب معين فإن الأعمال ليست ذات دلالة، فإذا السائق ساوره الشك حول ما إذا كان هو الشخص الجيد الذي كان يظنه في نفسه، فإنني لا أعتقد أن أرسطو سوف يحاول إنقاذه من هذا الشك، أما أفلاطون فإنه كان سيشجع الأبوين المكلومين قائلاً إن لديهم القدرة على البقاء سعيدين والعيش حياة طيبة ما داما يحتفظان بالحالة الفضلى لأرواحهما. وإذا تركنا الأمر كذلك فإن كلام أفلاطون يبدو غامضًا لدرجة تصعب الاقتناع به، سوف يبدو أفلاطون مستشارًا غير مقنع إذا لم يشرح كيف تستطيع الفضيلة التغلب على الحزن. بدلاً من أن نبحث عن عبارات في كتاب الجمهورية تقدم هذا الشرح فإننا سنبحث عنه في مدرسة أخرى من مدارس الفكر التي أخذت الكثير من موقف أفلاطون حول الفضيلة والسعادة تلك هي المدرسة الرواقية، أو الصبر على المكاره، إن الرواقيين كانوا أكثر اهتمامًا من أفلاطون في ترجمة الأفكار الفلسفية الغامضة إلى نصائح مفيدة للناس الذين يواجهون مشكلات الحياة اليومية.

إن الأفكار الرواقية جاءت مقطوعات تم تجميعها فيما بعد بواسطة فلاسفة جاءوا بعدهم مثل شيشرون في القرن الأول قبل الميلاد، وإبيكتيتوس

في القرن الأول الميلادي، وماركوسي إيريليوس في القرن الثاني الميلادي، وقد صارت الفلسفة الرواقية عبر الأجيال وحتى اليوم الصديق المعين للجميع من الرؤساء القلقين وحتى الناس العاديين، من المعوقين أو الأقل جاذبية إلى الناس المطحونين بسبب قلة الأجور، ومن نزلاء المستشفيات إلى أسرى الحروب إلى الآباء المكلومين.

نقطة البداية عند الرواقيين كما هي عند أرسطو هي أننا جميعًا نطمح للخير، يتفق الرواقيون مع أرسطو أنها السعادة Eudaimonia، ومثل أرسطو يعتقد الرواقيون أن الفضائل مركزية، وهم يعرفون الفضائل المعنوية والعقلية، ويختلفون عنه في أن لا شيء آخر له قيمة لا شيء آخر يهم.

ماذا لو كنت فاضلاً تمامًا ولكنك تعاني من موقف صعب؟ رغم أن الرواقيين لا يعدون مشاعر السعادة على أنها طيبة، أو مشاعر البؤس على أنها سيئة، فإنهم يهتمون بأن يظهروا أن الشخص الذي يمتلك الفضائل لن يكون بائسا، إن الفضائل ستخلق حالة من الهدوء العقلي، ولكنا لا يجب أن نتوقع أنها ستملؤنا بالمرح، كيف سيتحقق هذا؟ إن إحدى الفضائل ستكون الحكمة، والحكمة ستساعد على النظر للمواقف العادية نظرة تختلف عما يراه الناس العاديون.

كيف سننظر إلى الأشياء؟ إن هناك نصيحة عملية مفصلة يقدمها إبيكتيتوس في كتابه وهو كتاب للمساعدة الشخصية صدر في القرن الأول، وفي جزء من الأجزاء الـ٥٣ التي يتكون منها الكتاب نجد عددًا من النصائح توجهنا لأن نتبنى توجهات عامة محددة. إننا نعرف ما يؤثر فينا، ليس العالم كما هو ولكن الأسلوب الذي نفكر به عنه، إن علينا أن نتحقق أن لدينا القدرة أن نفكر في المواقف كما نختار، يجب أن نركز طاقتنا على ما يمكن أن نتحكم فيه؛ ثم ننكر ما هو أكبر من أن نتحكم فيه غالبًا مثل الأسلوب الذي

نفكر به عن الأشياء، إذا تبنينا هذه الاتجاهات فإنا من المفترض أن نكون قادرين على أن نحتفظ بهدوئنا حتى في حالة فقد طفل لنا، في هذه الحالة الهادئة لا يوجد شيء يمكن أن يقهرنا أو يشتت انتباهنا عن العيش حياة فاضلة، وهي الشيء الذي يستحق تمامًا أن نسعى من أجله.

يقدم إبيكتيتوس عدة نصائح عند مواجهة مواقف معينة؛ هل أنت تسعى لتحقيق أهداف طموحة؟ ما عليك إلا أن ترسم ماذا يجب عليك عمله لتنجح، ثم قم بعمله دون شكوى. هل أنت تتضايق من بعض السائقين؟ (في المثل الذي يقدمه إبيكتيتوس: هل أنت تتضايق من جمهور الحمام العام؟)، إذن ذكر نفسك بأنك لا تريد أن تقود في أي مكان، لكنك تريد أن تحتفظ باتزانك. هل أطفالك يضايقونك بإلقاء لعبهم في كل مكان بالبيت؟ (في المثل الذي يقدمه إبيكتيتوس: هل يضايقك الخدم بسكب الزيت أو سرقة الخمر؟)، ما قيمة أن تحاول أن توقف هذا؟ هل هذا يستحق أن تفقد هدوءك؟

هناك نصيحة كبيرة في كتاب إبيكتيتوس لمواجهة موت طفل، تجربة كانت مريرة في القرن الأول تمامًا كما هي الآن، تقول النصيحة:

> "ما يحزن الناس ليس الأحداث نفسها ولكن حكمنا عليها، فمثلاً الموت ليس مفزعًا (لو كان كذلك لكان قد ظهر عند سقراط)، ولكن الحكم عليه هو المفزع".

لكن إذا مات طفلك كيف يمكنك أن تجعله أمرًا غير مفزع؟ تقول النصيحة:

> "إذا كنت مغرمًا بدورق، قل أنا مغرم بدورق، وهكذا عندما ينكسر فلن تحزن.. إذا قبلت زوجتك أو طفلك فقل إنك تقبل إنسانًا، فعندما يموت لن تحزن".

إن التخلص من الشعور بأن الطفل هو طفلك وجعل نفسك تفكر فيه على أنه مجرد طفل سيأخذك بعيدًا في طريق يجعلك قادرًا على مواجهة الخسائر، نصيحة بسيطة تظهر في المقتطف التالي:

"عندما يموت طفل ابن شخص آخر، أو عندما تموت زوجة رجل آخر فإن أي شخص سيقول لقد خسرنا إنسانًا ولكن عندما يموت شخص يخصه فإنه يشعر بالخسارة الشخصية، ولكننا لا بد أن نتذكر ماذا سيكون شعورنا عندما نسمع عن حدوث نفس الشيء للآخرين".

النقطة هي أنه لا يوجد اختلاف بين موت طفلك وموت ابن الجيران هكذا يفكر الإنسان الحكيم وتكون استجابته للحدثين بنفس الأسلوب.

وهناك نصائح أكثر لكيفية الاحتفاظ بالاتزان في مواجهة الموت:

"لا تقول فقدت شيئًا، بل تقول بدلاً من ذلك (لقد أعدت ذلك الشيء)، هل مات طفلك؟ لا لقد أعيد، هل ماتت زوجتك؟ لقد أعيدت، إن الذي أعطاها قد استردها، هذا ليس شأننا، كيف نسأل من أعطاها؟ ما دام أنه هو الذي أعطاها لك فإن هذا ليس شأنك، ما دام قد أعطاها لك فعليك أن تعتني بها كما لو كانت وديعة عندك شيئًا لا يخصك، تمامًا كما يتعامل المسافرون مع الفندق".

يجعل أفلاطون والرواقيون للحياة الطيبة قوة لا تنكسر، إن أفظع الأشياء التي تلقى على الإنسان الخيِّر لا يمكنها أن تدمر حياته، تعقد مارتا نوسبوان الفيلسوفة الكلاسيكية غزيرة الإنتاج مقارنة بين أفكار أفلاطون والرواقيين من جهة وأفكار أرسطو من جهة أخرى عن الحياة الطيبة؛ بالنسبة لأرسطو فإن الحياة الطيبة تشبه النبات أكثر مما تشبه الصخرة، تقول نوسبوان إن الحياة المملوءة بالفضيلة ليست شيئًا صلبًا وليست عرضة للخطر

لكنها قابلة للكسر وتتمتع بالجمال مثل النبات، إنها تحتـاج للمـاء والتربـة والشمس لكنها يمكن أن تتكسر، إن أرسطو يقبل تلك الحقيقة فهو يـرى أن حاجة الإنسان تعرضه للخطر والتحكم المحدود، أما أفلاطون والرواقيون فلا يقبلون بذلك.

عبر القرون ساعد كتاب إبيكتيتوس الكثير من الناس الـذين واجهـوا متاعب كبيرة أو صغيرة، الأدميرال جيم سـتوكدال درس إبيكتيتـوس فـي الجامعة قبل تخرجه وقبل أن يصبح طيارًا مقاتلا في فيتنام، وقـد ضـربت طائرته عام ١٩٦٥ وقضى الخمس السنوات التالية كأسير حرب في هانوي، إنه يرجع قدرته على تحمل العذاب القاسي والحبس والعزلة لقراءاتـه فـي كتاب إبيكتيتوس، وخلال حبسه تحصن بنصيحة الكتاب "أن لا شيء له قيمة إلا الفضيلة، لا شيء يحكم مشاعرك إلا حالتك العقلية، لا شيء لـه القـدرة عليك إلا نظرتك إلى العالم".

إذا كان هذا صحيحًا، فإنه سوف يساعدنا في وسط متاعبنا كما سيعيننا على المضي في حياتنا ونحن نشعر أن راحتنا تحت سيطرتنا، لا بد أن يكون لدى إبيكتيتوس نداء لأي أب جديد يواجه التعرض للخطر الذي وصفته فـي المقدمة، يولد طفل ونرى كلنا في كل مكان أن هناك قوى صغيرة تستطيع أن تحطمنا نهائيًا مثل ضلفة دولاب مفتوحة، قطعة حلوى، أو قطعة خس غيـر نظيفة، إذا صدقنا إبيكتيتوس فإن شيئًا من هذه الأشياء لن يستطيع إضرارنا، ولا حتى إحداث ضرر للمولود (إنها يمكن أن تقتلـه) لكـن المـوت طبقًـا للرواقيين ليس ضررًا، إن الشيء السيئ فعلاً هو أن يكون الشخص سيئًا.

إن إبيكتيتوس هو الرائد لعلماء النفس الذين يؤكدون تأثير التفكير على حالتنا العاطفية، كما أن هناك صلة ما بين النصيحة الرواقية وتلك البوذيـة بخصوص التخلص من الآلام بواسطة تغيير توجهاتنا السلوكية، إن مـصدر

الآلام في البوذية طبقًا للحقائق الأربعة هو التطلع أو الاشتهاء، إذا نحن توقفنا عن التطلع فسوف نصبح راضين بحالنا، وفيما يلي مثال آخر لما يقوله إبيكتيتوس:

"إننا نتعلق بالأشياء لأننا نراها جذابة، إن تغيير نظرتنا لها سوف يوقف هذا، إنك عندما تبدأ في تحليل هذا التعلق فستجد أنه راجع إلى النظرة السطحية أو للجلد الخارجي، دعنا نحلل جلد الإنسان، إذا قطعت قطعة من جلدك مثلا ثم وضعتها على رف لأيام قليلة سوف تصبح قبيحة جدًا هذه هي صدمة الجلد".

هل تستطيع أن تشفى نفسك من الانجذاب مقابل أن تجد جلد شخص آخر مثيرًا للاشمئزاز؟ ربما لا، إن إبيكتيتوس يعطي نصائح طيبة حقيقية، في كل مرة أقرؤه أجد نفسي أقدر على مواجهة المضايقات باتزان ما دمت احتفظت بنصائحه في ذهني. هناك نصائح حكيمة مهدئة في الأعمال الشهيرة للدلاي لاما وغيره من حكماء البوذيين مثل ذلك الحديث الواضح للمعلم الفيتنامي تيتشي نهات هانه.

لكنني أتفق تمامًا مع أرسطو عندما يقول إننا لا يمكن أن نعيش حياة طيبة تمامًا "على العجلة"، إن مأساة فقد طفل لا يمكن التغلب عليها باعتباره طفلاً وليس طفلي، والقسوة التي يواجهها أسير الحرب في معسكر الأسر لا يمكن التخلص منها بالنظر إليها من الزاوية الحقيقية، إننا نستطيع أن نقلل الدمار كلية، إننا نقدر حكمة الرواقي عندما يقول هذا الشيء الواضح إن قيادة السيارة برعونة وقتل طفل شيء سيئ، وإن التعذيب شيء سيئ مهما كان الشخص ذا قدرة على التحكم في الألم.

إذا لم يكن الأمر كذلك، فإنه لم يكن بالأمر المهم لقائد السيارة أن يكون فاضلاً وأن يبطئ السيارة، أو للمعذب أن يكون فاضلاً ويوقف التعذيب، إننا جميعا نعلم في أعماقنا أن ما يحدث في العالم يهمنا مهما كانت عقولنا منظمة.

إذا كان أرسطو محقًا في عدم تحصيننا فإن هذا لا يعني أنه محق في كل شيء، إنه ربما يكون متفائلاً أكثر مما يجب، عندما نقرأ أرسطو يخالجنا الشعور أن لديه اتجاهًا لاعتبار أن الأشياء الخارجية ليست تحت سيطرتنا كما هي، إننا لا يمكن أن نهرب من حقيقة أننا ولدنا عبيدًا، أو أننا من أهل أثينا، أو أننا إناثًا أو ذكورًا إذا لم تكن لدينا ثروة فإننا ربما لا نستطيع حيازة ثروة، إن كنا منفرين جدًا فإننا لا نستطيع فعل الكثير للتغلب على ذلك، ماذا سيحدث لأطفالنا هذا شيء لا يمكن التنبؤ به تمامًا.

الرواقيون يضعون قيدًا مشابهًا على الأحداث الخارجية، وربما كان ذلك هو السبب في أنهم يرغبون في عدم حصرهم، لذلك إننا يجب أن نتحول ونغير حالة عقولنا للوضع الصحيح لأننا لا نستطيع أو غالبًا لن نستطيع أن نغير ماهية الأشياء، الحل إذن هو أن أأقلم نفسي على الموقف وليس العكس (على الأقل سطحيًا)، إن الشعور بحتمية أحداث العالم يأتي من العيش في عالم له نظام اجتماعي صارم، عالم بلا علم أو تكنولوجيا متقدمة، أو ربما يكون نتاج للفكرة السائدة في الشعر والدراما الإغريقية –وليس في الفلسفة– تلك الفكرة التي فحواها أن الضرورة والحظ والقدر لا يمكن مقاومتها.

إن لدى أرسطو والرواقيين أدوات فلسفية لرؤية الأشياء بطريقة أخرى، إنهم يرون أن الفضائل العقلية والأخلاقية التي يؤكدون عليها يمكن اعتبارها مساعدًا على الاستحواذ على الأشياء الخارجية وصيانتها، إذا كانت الأم حريصة على أن تعبر الشارع بانتباه تام، وقائد السيارة ماهر لا يندفع

في طريق المدرسة وقت الصباح فيمكن ألا تقع حوادث تعرض حياة المشاة للخطر.

إننا لا نستطيع أن نقر هذا، أن نحكم السيطرة، إن أكثر الناس حرصًا يفقدون أطفالهم في حوادث، الأشخاص الذين يخططون جيدًا ويعملون جيدًا يفقدون وظائفهم ولا يجدون وظائف جديدة يبدءون بها، هناك قدر من التفاؤل في نظرة أرسطو لهذه الأمور، إنه يرى أنه عندما تقع الأحداث الخارجية التعيسة فلن يستمر الحال هكذا، سوف تتغير إلى الأحداث الحسنة، وهذا لا يتماشى مع خطوط الدراما الإغريقية. إن أوديب بعد أن يقتل أبيه بدون قصد ثم يتزوج أمه لا يجد برنامجًا ذا خطوط محددة، ولا يتقابل مع مستشار يؤكد له أن كل ما حدث كان خطأ كبيرًا، إنه لا يتخطى التجربة ويصبح أكثر حكمة بسببها، إنه يفقأ عينيه. وأجاممنون الذي أجبر على أن يختار بين مصلحة ابنته ومصلحة اليونانيين جميعًا يقدم ابنته كتضحية، وبعد حرب استمرت عشر سنوات ضد طروادة يعود لبلاده منتصرًا، فماذا كان في انتظاره؟ زوجة غير متفهمة للطريقة التي خرج بها من ورطته وهي إراقة الدماء. هكذا لم تكن هناك نهاية سعيدة لأي منهم.

هناك خط آخر يمكن أن تجري به الأحداث، خط قصصي لا نراه في الأدب الإغريقي ولا يعترف أرسطو بإمكانيته، حدوث شيء رهيب يحول الشخص حتى يعيش بعده حياة أفضل، وبطرق ذات معنى، إن السير الذاتية التي نحب أن نقرأها تحكي غالبًا هذا النوع من القصص، ففي سيرته الذاتية "كل دقيقة لها معنى" يقول لانس أرمسترونج الذي فاز سبع مرات بتور دي فرانس: إن الشفاء من السرطان كان أفضل له من كل الفوز الذي حققه في ركوب الدراجات، وبعد المرض راح يخلق أساسًا يساعد الناس للتعامل مع الحياة بعد الإصابة بالسرطان فوجد بهذا الهدف معنى حقيقيًا للحياة.

إن إمكانية التحول لا تعني أن المرض والموت ليسا أشياء سيئة بالمرة، إننا نريد بالفعل الشفاء من السرطان حتى على حساب التحول الذي سيترتب عليه، إننا نريد أن نمنع حدوث ١١ سبتمبر مرة أخرى حتى وإن كان هذا يعني عدم وجود مزيد من الناجين الذين صار لحياتهم معنى بعد فقدهم، النقطة هي أن الشخص الذي يقاسي خسارة فادحة لا يجب أن تكون بقية حياته خسائر، ليس كل شخص يواجه خسارة يصبح أوديب أو أجاممنون.

هل يكون معقولاً أن نقول إن التحول ممكن دائمًا؟ الزينات المعلقة على الشجر تخليدًا لذكرى موت الفتاة، ليست زينات إنها صلبان، إنني لا أعرف والدي الفتاة ولكن هذا التصرف يعطيني مفتاحًا لحالتهما العقلية، إن فكرة التحول هذه موجودة في المسيحية مثل قصة آلام السيد المسيح وموته على الصليب ثم قيامه بعد ذلك ليقنع المؤمنين بإمكانية الحياة الخالدة، إن رسالة الإنجيل هي أن الموت يمكن أن يحيل الحياة الأرضية للإنسان لكائن سماوي خالد، انطلاقًا من هذا المفهوم فإن الفتاة موجودة الآن في مكان أفضل، إن الأبوين يتألمان لا لأن حياة ابنتهما انتهت نهائيا، إن حزنهما يأتي من أنهما افتقداها وليس لأن حياتها انتهت.

هل تقدم المسيحية قصة أمل ليس حول موت الفتاة فقط، بل حول أحزان من عاشوا بعد موتها؟ إن هذا ليس واضحًا، إن السيد المسيح يشفي المرضى ويحيي الموتى، إنه لا ينصح المرضى ولا أقرباءهم الحزانى أن يبحثوا عن معنى وهدف، من هذا يجب أن نبحث في مصادر أخرى متعددة بعضها خارج نطاق المسيحية لشرح الاعتقاد السائد "إن كل شيء يحدث لسبب"، إن كل تجربة مريرة قد تؤدي إلى خير كثير.

إننا نريد أن نعتقد أن الشفاء والتحول ممكن دائمًا، ولكن هذا بالتأكيد ليس صحيحًا في كل حالة، إن الصورة الحقيقية أحيانًا تكون الصورة المأساوية، صحيح ليست كل المتاعب الخارجية هي كوارث تدمر كل شيء مرة واحدة، المتاعب الخارجية يمكن أن تكون فقرًا مزمنًا أو ضعفًا أو صحة معتلة، وصحيح أن هناك إمكانية التحول من هذه الأوضاع، ولكن مقابل كل شخص تتحول مشاكله المزمنة هناك كثيرون غيره يعيشون مع تلك المشاكل وآخرون لا يتأثرون بها.

وهكذا، فإن الكارثة عندما تضربنا فجأة فإنه لا توجد دائمًا فرصة للتجديد، أن تكون والدًا لطفل "يتصرف تصرفات سيئة" كما يضعها أرسطو بلا إمكانية تحول إيجابي هي مثل أن يموت الطفل ميتة مؤلمة، إذا كنت والد القاتل الكولومبي أو أحد منفذي أحداث الحادي عشر من سبتمبر أو تيموثي ماكفي فإن الخزي سيدفعك للعزلة، أما آباء الضحايا فإنهم يلتقون باللجان، يفكرون في تخليد ذكرى ضحاياهم ويشاركون أحزانهم مع هؤلاء الباقين الناجين بعد الأحداث.

إنه من السذاجة توقع التحول بعد كل كارثة، لكن أن نفترض أن كل كارثة تضع حياة الإنسان على منحنى آخر هو منتهى التفاؤل، الصورة الكاملة توضح أن حالات مختلفة تروي قصصًا مختلفة.

أن نتقبل رأي أرسطو بأن الأشياء الخارجية تهم، هذا أسهل من تقبل آراء غير رأي أرسطو (وعموما غير قديمة)، تلك الآراء التي فحواها أننا يمكن أن نعمل لنطور ونحافظ على الثروات والأشياء الخارجية، وأنه عندما تحدث أشياء سيئة فإننا نستطيع أن نستفيد من تلك التجارب في توجيهنا توجهات إيجابية، إن بعض الناس أو معظم الناس ليسوا محظوظين في الأشياء الخارجية، ولكنهم دون أن يخطئوا يعيشون حياتهم أقل من الحيوات

الرائعة، بعض الناس لا يحصلون على شيء جيد من الأشياء السيئة التي تحدث لهم بل بالعكس ينتقلون من سيئ إلى أسوأ. هل يجب أن نعود إلى آراء أفلاطون والرواقيين أن الأشياء الخارجية لا تهم؟

إذا لم نتسامح مع القول بأن بعض الناس محرومون من إمكانية الحياة الطيبة فليس معنى هذا ألا نقيم الأشياء الخارجية الطيبة، أما الآراء القديمة فإنها تستبعد هذا تمامًا.

إذا كان خير الروح هو ما نحتاجه حقًا، فإنه ما زال صحيحًا طبقًا لأرسطو وأفلاطون والرواقيين أن هذا إلى حد ما مسألة حظ، يقول أرسطو إنه جزء من طبيعتنا كبشر أن نسير في اتجاه تحقيق أقصى تطور للعقل، لكنه يقول أيضا إن بعضنا ليسوا كذلك مثل زهرة معاقة عن النمو فإنها لن تزهر، لن يعيشوا من أجل الهدف الذي يهم البشر جميعًا وهو إعلاء شأن العقل. في مناقشته الشهيرة التي يدافع فيها عن العبودية يقول أرسطو إن بعض الناس عبيد بطبيعتهم إنهم مولودون وليس لديهم الاستعداد ليحكموا أنفسهم بالعقل، إنهم على أقصى تقدير يستطيعون طاعة العقل، لذا فالأفضل لهم أن يعيشوا تحت حكم أسياد عاقلين. إذا تركنا جانبًا هذا الرأي الكريه أن الناس الأقل تعقلاً هم الأسهل للاستعباد، فإننا بالتأكيد سنتفق على أن الناس المتعقلين أقل، فإن عناية أرسطو بالفضائل الأخلاقية (العمل الصحيح في الوقت الصحيح للأشخاص الصحيحين... إلخ) مفقودة عند البعض، فإن هؤلاء الناس سوف ينشغلون عن حياة التأمل التي يعتبرها أرسطو الأعلى درجة.

أفلاطون أيضا يحترم خير الروح الذي لا نستطيع جميعًا امتلاكه، إن تلك الفضيلة الأفلاطونية المتألقة فضيلة تختلق كل المتاعب الخارجية هي نتيجة لروح يحكمها العقل، إن أفلاطون لا يعتقد بالتأكيد أن كل الناس يمتلكونها، إنها فقط للفيلسوف ذلك الرجل الذي يتولى المدينة الفاضلة في

جمهورية أفلاطون، أما باقي الطبقات التي تكون ذلك المجتمع المنظم فـإنهم لا يمتلكونها.

أما الرواقيون فإنهم ينشرون ويبشرون بالحكمة العملية التي يمكنها أن تساعد الشخص على أن يبحر في البحر الهادر باتزان، إن بعـض النـاس استفادوا من هذه النصيحة لكن هل يتوقع أن نعيش كلنا بهذه النصيحة؟ ليس لدينا جميعًا المهارة العقلية التي تجعلنا نفكر في مشاكلنا بالطريقة التي تجعلها محتملة، العقلاء الذين يحققون الهدوء في كل الظروف هم أقلية كما يقر بذلك الرواقيون. ويعتقد البوذيون أن النظام العقلي الضروري هو فـوق العـادي بدرجة لا تجعله ممكن الوصول إليه إلا بعد تكرار المولد مرات كثيرة.

وحتى الأناجيل، بقراءتها حرفيًا، تجعل خيرنا من خلال إنجاز عقلي ممكن للبعض أكثر من الآخرين، ذلك الإنجاز هو تصديق قصة من الصعب تصديقها؛ كائن حي يعيش ولدته امرأة عادية هو الإله وابن الإله في نفـس الوقت، ورغم أن الإله مات على الصليب لكنه عاد للحياة في اليوم الثالـث، ومن خلال الموت أنقذنا من خطايانا، إن الأطفال وضعاف العقـول وحتـى غير المتعلمين والجهلاء الذين يفهمون هذه القصة التي يفترض فهمها قبـل الاعتقاد في صدقها هي خارج الحدود.

إذا كنا لا نريد أن نربط الحياة الطيبة بالأشياء الخارجية لأنها مستبعدة نهائيًا، فإننا لا يجب أن نربط الحياة الطيبة بالروح أيضا لأنها مستبعدة. الحظ الفطري يؤثر إذا ما كان لدينا خير الروح، كما أن الأشياء الخارجية الطيبـة تؤثر في حياتنا الخارجية لكننا هكذا نكون قد ذهبنا بعيدًا لتفادي الاستبعاد. إن القدامى يعولون كثيرا على الاستبعاد كلهم يفعلون ذلك سواء أكانوا يؤكـدون على الخير الداخلي فقط أو الخارجي أيضًا، ولكننا نعتقد جيدًا أن عيش حياة طيبة يتطلب كثيرًا من الحظ، هذا صحيح إذا كان بخصوص داخلنا، صحتنا

العقلية والعاطفية، وهو صحيح أيضًا بالنسبة للنظرة الخارجية لحياتنا، عندما تصير الأمور سيئة فإننا نجد الإلهام عند أفلاطون والرواقيين، ونجد كثيـرًا من الصدق مختلطًا بالتفاؤل عند أرسطو.

إن أرسطو مقنع عندما يقول إن العقل الفضيلة الأخلاقية والعقلية هي أساسية لعيش حياة طيبة. إن لب الإدراك الذي يشترك فيـه أرسـطو مـع أفلاطون والرواقيين هو أن الحياة الخيرة والحياة الفاضلة يمشيان معًا يدًا بيد. إننا لا نريد أن نتخلى عن هذا. إن أرسطو عنـدما يبتعـد عـن أفلاطـون والرواقيين يكون أكثر إقناعًا. إن الأمور الخارجية مهمة حتى ولو كان هـذا القول يجبرنا أن نقر بعدم حصانة الإنسان، إنني لا أستطيع أن أتبع كل مـا يقوله أرسطو، إنني لا أستطيع أن أستسيغ فكرة أن الحياة الخيرة هي أساسًـا حياة الفلاسفة الذين يركزون كل وقتهم للفلسفة ولو أن هذا الـرأي يناسـبني شخصيًا. إنني أتشكك في فكرة الحياة الخيرة الطيبة إذا كانت تعنـي أسـلوبًا محددًا للحياة، حتى إذا خففناها لتكون أن الحياة تسير جيدًا إن كان كـل مـا نفعله يقترب من الحياة بعقلانية، إن النظرية تجعلنا نتعجب: هل العقل هـو الشيء الداخلي الجيد الوحيد الحتمي للحياة الطيبة؟ إذا كان هناك قلق من أن تكون قائمة أرسطو الخاصة بالأشياء الداخلية النقدية قائمة قصيرة جدًا، فإن هناك قلق أيضًا أن تكون تلك القائمة طويلة جدًا وفيهـا تفرقـة، هـل مـن الضروري أن يكون عندنا مال وقدر معقول من حـسن المظهـر وأطفـال وأصدقاء؟ سوف نرى عندما نستكمل الموضوع.

الفصل الرابع

هل السعادة هي كل ما يهم؟

الآباء لهم أماني صغيرة من أجل أبنائهم، أو أنه هكذا يبدو عندما يقولون إنهم يريدونهم أن يكونوا سعداء. إذا لم نكن قد اعتمدنا على العقل (الفضيلة) المكون الوحيد للحياة الطيبة، فربما يجب علينا أن نبحث عن مرشح آخر ليكون المكون الوحيد، ربما تكون السعادة المطلقة هي ما نبحث عنه.

إن السعادة المطلقة ليست شيئًا غامضًا ومعقدًا مثل Eudemonia. السعادة في المعنى البسيط تشمل حالات السرور، مثل الشعور الجيد بعد حمام ساخن، متعة الشعور بالحب، الإحساس بعد أكل الشيكولاتة، الفرحة بقراءة كتاب جيد، السرور بعد سماع نكتة، أو إشباع حب الاستطلاع، أو المتعة الجنسية، الاستمتاع بالوجود بجوار المدفأة، الاستمتاع بسماع موسيقى موزارت، الاستمتاع بالرجوع إلى ذكريات حياتك والإحساس بأن كل شيء كان جيدًا.

إن السعادة البسيطة تتأرجح طيلة الوقت، إنك تستطيع أن تضع مستويات سعادتك وعدمها على رسم بياني، فكر في مستويات سعادتك على المحور (y) وأحيانًا على المحور (x). إن الرسم البياني لمستويات سعادتك ليوم واحد ممكن أن تبدأ من القاع ثم ترتفع إلى الأعلى بخط بياني إذا بدأت يومك مستقرًا محايدًا ثم أصبحت أكثر فأكثر سعادة. إنك تستطيع أن تستخدم رسمًا كهذا لتعطي لنفسك حسابًا يوميًا للسعادة مستخدمًا المسافة تحت المنحنى

لحساب المجموع. إن محاسب السعادة العالم بكل شيء يمكنه أن يعطينا كل ضربة سعادة حققناها في آخر حياتنا.

هل السعادة هي كل ما يهم في تقييم حياتنا؟ باعتبار أن هناك أشياء كثيرة نحتاجها مثل: الأصدقاء، الأسرة، النجاح، الممتلكات المادية. لا أحد يستطيع أن ينكر أننا نضع أشياء أخرى على قائمة رغباتنا، ولكن المفترض أننا نريد الأشياء الأخرى، لأنها تحقق سعادة لنا. السعادة هي الشيء الوحيد الذي يسهم في جودة حياتنا. إذا كانت السعادة هي الشيء الوحيد المهم فلماذا نفعل أشياء تسبب تعاستنا؟ من أجل السعادة نحن نقبل المرور بتجارب صعبة على المدى الطويل، إننا نذهب لطبيب الأسنان، نأخذ علاجًا كيميائيًا وغير ذلك من التجارب لأننا نتصور أن هذه الأشياء ستسبب لنا سعادة أكبر.

إذا كانت السعادة هي كل ما يهم لجعل حياتنا طيبة فإن أهميتها تكون لها صور مختلفة، يمكن أن تكون سعادتي أنا فقط هي التي تجعل حياتي طيبة، معنى هذا أنني إذا كنت سعيدًا فإن حياتي تكون طيبة وهذا معناه أنني شخص مستهلك للسعادة، الصورة الأخرى هي أن أكون شخصًا مستهلكًا للسعادة ومعطيًا لها ونأخذ في الاعتبار الفرق في حياتي عندما أعطي سعادة للآخرين.

إنني أريد في هذا الفصل أن أركز على حياة هؤلاء الأشخاص الأكثر سعادة، سوف نسميها الرأي البسيط في السعادة ويسميه الفلاسفة مذهب اللذة Hedonism وهي ترجمة للكلمة الإغريقية "السرور"، لكن هذا سيخلق تشويشًا لأننا عادة نفكر في الـ Hedonist على أنه شخص يركز بالذات على أشكال من المتع اللاعقلية فهو يبدو شخصية تقبل على الطعام والشراب ومبتهجة. مذهب اللذة في المعنى الفلسفي هو ببساطة أن المعيار الوحيد الصحيح

لمعرفة هل حياة الشخص طيبة أو لا، هو الكمية الإجمالية للسعادة التي يمر بها الشخص على مدى حياته، إن حياة بسعادة أكثر هي أفضل من حياة بسعادة، أقل، إن الحياة الأفضل هي تلك التي بها أكبر قدر من السعادة.

إن الحديث عن المعيار لا يجب الأخذ به جديًا فلا يوجد محاسب للسعادة عالم بكل شيء. إن لدينا عدادًا نقيس به استهلاكنا للغاز، عدادًا لقياس استخدامنا للمياه، ولكن ليس لدينا عداد نقيس به السعادة ونحن لا نحتاجه، إن لدينا فكرة عامة عمن هو سعيد ومن هو غير السعيد، ما هي الاختيارات التي تعطينا السعادة؟ السؤال هو هل التركيز المحدد على كمية السعادة يعني شيئاً؟ هل الحكم على الحياة الطيبة يكون بهذه البساطة؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال دعنا نتوقف لنسأل نظرية من ترى السعادة بسيطة؟ هل هذا رأي أي فيلسوف؟

المذهب الأبيقوري وهو مذهب فلسفي جاء بعد أرسطو منافسًا للمذهب الرواقي يذهب إلى أن الشيء الجيد لنا هو السرور وليس الفضيلة. إذن هذا توقف معقول قبل أن نناقش نظرية السعادة البسيطة إنه رأي دنيوي. وعلى الرغم من أن الأبيقوريين يقيمون السعادة والسعادة وحدها فإن لهم بعض الالتزامات المتباينة، إنهم يقولون إن يومًا، أو أسبوعًا، أو عامًا، أو حياة بأكملها لا تسير جيدًا عندما تتذبذب التجارب بين كونها ممتعة للغاية أو مؤلمة للغاية، لتقييم الحياة إنها ليست سرورًا محضًا (سعادة ناقص ألم). إن رسمًا بيانيًا يوضح خطاً مستويًا تمامًا فوق محور (x) يمثل حياة أفضل بالنسبة للأبيقوريين عن رسم بياني متخبط يرسم سرورًا خالصًا، إن الأبيقوريين يرون أن حياة السرور هي حياة هادئة ساكنة، وإن كان هذا يبدو مألوفاً فإنه حتى بالنسبة للرواقيين أيضًا فإن الهدوء ورباطة الجأش وغياب الانفعال هي علامات الحياة الطيبة، لكن هذه بالنسبة للرواقيين ليست أساسًا

الغاية الحسنة ولكنهم يقولون إن الفضيلة هي جوهر الخير ولكنهم يرسمون صورة الحياة الخيرة في هذا الطريق.

ما هي الأشياء التي علينا اتباعها كي نكفل هذا النوع من الحياة الخيرة الدائمة؟ كمية معتدلة من الطعام والشراب والجنس والكثير من الفلسفة والاستمتاع بجمال الطبيعة. أرسطو والرواقيون لديهم الكثير من الإعجاب بحياة رجل الدولة أكثر من الأبيقوريين لأن الآخرين يرونها حياة مملوءة بالتقلبات من ارتفاع إلى هبوط. الحياة الأكثر إمتاعًا في نظر الأبيقوريين هي الانسحاب بمعنى قضاء معظم وقتك في حديقتك مع مجموعة صغيرة من الأصدقاء تتناقشون في الفلسفة، وهكذا يصبح لديك فكرة طيبة عن مفهوم الأبيقوريين عن الحياة الخيرة.

الخطوة التالية، القرن التاسع عشر في إنجلترا حيث فلسفة اللذة تلتقي بالمدرسة النفعية في الفلسفة الأخلاقية التي طورها في البداية جيرمي بنتام وجون ستيوارت مل. النفعيون لا يفكرون في عمل الفلسفة الأخلاقية بنفس الطريقة التي فكر بها القدماء. لم يكن السؤال الأول بالنسبة لبنتام ومل في الفلسفة الأخلاقية هو الحياة بأكملها كما يرغب كل منا في عيشها. إن الأسئلة الأخلاقية الأولية هي حول صحة أو خطأ الأفعال. إننا لا نرتكب أي خطأ عندما نقتلع الشكوك الأخلاقية في الحياة بأكملها وأن نحللها، ما مدى الصحة أو الخطأ في الكذب؟ يجيب النفعيون بقولهم إن صحة أو خطأ الكذب ليس شيئًا جوهريًا ولكنه يتوقف على النتائج التي يحدثها ذلك الكذب في موقف معين، أو بمعنى أدق، مدى الخير أو الشر الذي يترتب على كذبة معينة أخذًا في الاعتبار كل من سيتأثر على المدى الطويل أو القصير. لكن ما الخير وما الشر؟ يقول بنتام إن الخير الجوهري هو السرور والشر الجوهري هو الألم. فإذا أضفنا السرور ناقص الألم الذي يحدث لكل من يتأثر بالكذبة المعينة سيعرف هل نقولها أم لا.

إن بنتام واضح حول كيف نستخدم السرور والألم في قياس الصحيح والخطأ. ولكن هل نستطيع أن نستخدم السرور والألم كمقياس للحكم على الحياة إن كانت طيبة أم لا؟

يبدو أن الطريق الصحيح لتقييم الحياة إذا كان النفعيون محقين سيكون على أساس كمية السرور أو الألم، السعادة أو الشقاء. إذا كانت السعادة هي الخير الجوهري، إذن الحياة تكون طيبة فقط عندما يستهلك الشخص الذي يحياها قدرًا كبيرًا من السعادة طيلة الوقت. هل هناك أدنى شك أن النفعيين يناصرون نظرية السعادة البسيطة؟

هذا صحيح. نفترض أنني لا أحب شيئًا أكثر من الجلوس بجوار النافذة لأشاهد ما يجري في الخارج بينما ألعب tiddly winks وأشرب الشاي. وفي يوم ما أرى طفلا يقع من على الدراجة. إن مساعدة الطفل سوف يقطع عليّ لعب tiddly winks وشرب الشاي الساخن. إن المساعدة حقا سوف تعطيني سرورًا أكثر. إذن ماذا يجب عليّ أن أفعل إذا أردت أن تسير حياتي أفضل؟ هل حالتي تكون أفضل باستهلاك ما يمكن من السرور كيف تكون حالتي إذا فرغت من تناول كوب الشاي قبل أن أقوم لتقديم المساعدة؟ هل حالتي تكون أفضل إن فعلت الشيء الصحيح الذي سيعطيني سرورًا أشمل وأكثر أو إذا فعلت الشيء الذي يعطيني سرورًا أسرع؟ كلا الإجابتين تتمشى مع فكرة أن السرور هو الخير الجوهري.

للأسف بنتام لا يقول هذا. إن القضية الأكثر دلالة لدى القدماء ماذا يجعل حياتي طيبة؟ هو ليس سؤالاً في مقدمة الصورة. عدم التحديد هذا موجود أيضًا في كتابات جون ستيوارت مل، فليس لديه إجابة واضحة لما أفعله إذا أردت أن تكون حياتي طيبة بأقصى قدر، ماذا أختار؟ هل أختار ما يضاعف سروري أو ما يضاعف السرور الأشمل الأعم؟ على أي حال هناك

اختلاف بين بنتام ومل حول هذه النقطة؛ بنتام يعتقد أنه من الممكن حقًا أن يستمر الشخص في الاستمتاع بكوب الشاي الساخن ولعبه الـ tiddly winks أكثر من مساعدة طفل جريح، الاستمتاع يختلف من شخص لآخر، بالنسبة لشخص ما يأتي الاستمتاع من سماع سيمفونية، شخص آخر يجد الاستمتاع في مشاهدة مباراة ملاكمة. يعتقد مل أن السرور الأعلى هو الذي يأتي من ملكاتنا العقلية، من بين هذه الأشياء السرور من فعل الشيء الصحيح. وهكذا فإن مل لن يكون على استعداد كما هو الحال مع بنتام لأن يقر أن الطريق الذي يضاعف سروري قد يتفرع عن الطريق الذي يضاعف السرور الأشمل. إن الاندفاع لمساعدة الطفل سيكون جيدًا للطفل ولي شخصيًا.

بالنسبة لمل أيضًا لا بد أن يوجد موقف ما يشحذ السرور الأكبر لي ضد عمل الشيء الصحيح الذي يترتب عليه السرور الأشمل. ربما يكون التبرع لمتحف فني يجلب لي السرور الأكبر بينما التبرع لجمعية مكافحة السرطان يترتب عليه سرور أكبر بالنسبة للجميع، أيهما أختار لتكون حياتي أفضل؟ هل يناصر مل فكرة السرور البسيط ويعرف الحياة الأفضل باستهلاك كميات من السعادة؟ إن السؤال حول الحياة الطيبة ليس في المقدمة بالنسبة لمل كما هو بالنسبة للقدماء إنه يركز على سؤال مختلف. ما هو الشيء الصحيح كي نعمله؟ إن إنتاجها هو ما يهم وليس استهلاكها.

إن فكرة السعادة البسيطة هي ما يتبناها النفعيون كأساس للحياة الطيبة، إنهم يقولون إنه بينما الأخلاق التي نرمي إليها دائمًا هي الاختيار الذي يحقق الحياة الطيبة، فإن حياتنا تكون طيبة أو سيئة اعتمادًا على السرور الذي نحصل عليه، وإن اختيار الشيء الجيد أخلاقيًا سيكون معناه أحيانًا التضحية بخيرنا الشخصي. إذا كانت أفعالنا صحيحة أخلاقيًا فإننا نجعل حياتنا أسوأ. ومن ناحية أخرى قد يقبل النفعيون شيئًا مما يراه القدماء الذين يرون الفضيلة

المكون الأساسي للحياة الطيبة، إنهم يقولون إننا نجعل حياتنا أفضل بأن نفعل الشيء الصحيح دائمًا وبتطوير السعادة الأشمل حتى على حساب أنفسنا، كلما زادت السعادة التي أصنعها، فإن حياتي ستكون أفضل. إن نظرية السعادة البسيطة تبدو كما لو كانت الاختيار الطبيعي للنفعيين. لقد رأينا في الفصل السابق أنه من الصعب الاعتقاد أن حياة أفضل للشخص تعتمد كلية على العوامل الأخلاقية، وهذا يصبح من الأصعب استساغته إذا انتقلنا من مفهوم القدماء الأخلاقي إلى مفهوم النفعيين، إن الفضائل عند أرسطو مرتبطة تمامًا بالاستقرار العاطفي والصحة العقلية، وعلى هذا ولهذا فإن لهما ارتباط بديهي بكيف تسير حياتي. إن الشخص الذي يصحح المعايير الأخلاقية النفعية هو شخص له تأثير إيجابي على السعادة الشاملة، إن النظر على حياة الشخص من هذا المنطلق تحديدًا سيكون إنكارًا لأشياء تبدو وثيقة الصلة بكيفية سير حياته.

يكفي هذا بشأن نظرية السعادة البسيطة. في بعض الأحوال نحن نفعل ذلك، إن الأبوين يريدان لطفلهما حياة طيبة أي إن كل ما يريدانه له هو أن يكون سعيدًا. إننا ننصح أصدقاءنا بأن يفعلوا أشياء معينة "إذا كانت ستسعدهم"، وأحيانًا نتوقف عن فعل أشياء لمجرد أنها "لا تجعلني سعيدًا"، إن السعادة على الأقل جزء مهم جدًا فيما تظنه حياة طيبة، تجربة فكرية أجراها الفيلسوف المعاصر روبرت نوزيك تساعدنا على اختيار ما إذا كانت السعادة هي كل ما يهم أم لا. سوف نندمج هنا في قطعة من الخيال العلمي، إذا كان تذوقك الأدبي يأخذك في اتجاه آخر فلا تقلق سنعود حالاً للعالم الحقيقي.

يقول نوزيك: لنفترض أن هناك آلة تسمى آلة التجارب، الآلة تضبط مخك حتى تجرب عالمًا فاضلاً بدلاً من أن تتلقى إشارات من العالم حولك من خلال حواسك. إذا كنت قد رأيت الفيلم السينمائي (Matrix) فإنك ستتخيل

هذا بسهولة، فكر في الثوار في الفيلم يضطجعون على مقاعد مثل مقاعد طبيب الأسنان ويضعون خوذات فوق رؤوسهم. الخوذات تربط رؤوسهم بكمبيوتر يولد عالمًا فاضلاً يسمونه الـ(matrix). في الفيلم الكمبيوتر سيئ النية، لكن لا تظن في آلة التجارب أنها كذلك لأن مديريها علماء طيبون. إن الكمبيوتر في الفيلم على الأقل ينظم إلى حد ما نوع العالم الفاضل الذي يجربه الناس لكن آلة التجارب تولد العالم الفاضل الذي تفضله أنت، إن عليك أن تختار البرنامج للآلة قبل أن تثبتها: إذا كانت السعادة بالنسبة لك هي تسلق الجبال يمكنك أن تختار عالمًا فاضلاً به كميات من تسلق الجبال، إذا كانت السعادة بالنسبة لك هي الشعور بأنك ناجح في عملك فإنك يمكن أن تضع ذلك البرنامج على الآلة. كل ما يمكن أن تجربه تحققه لك الآلة: زوجة محبة، أطفالاً جذابين، أصدقاء يعجبونك، طعامًا شهيًا لا يؤدي إلى سمنة. إذا كنت تجد سرورًا ما في المتناقضات تلك تستطيع أن تضمن تقلبات الأيام بين هبوط وارتفاع.

إنك لا تعطى الاختيار أن تقضي المساء تستمتع بتجربة دخيلة إنك سوف تقضي كل حياتك مثبتًا عليها (سيتم إشباع حاجاتك الجسمانية فلا تقلق، لكن لا تدعنا نقضي الوقت في تخيل التفاصيل)، إن هذا يبدو صارمًا أو عنيفًا لكنك سوف تعطى الإمكانية لقضاء بقية حياتك في سعادة هانئة. إذا كان شعورك بأنك مربوط بآلة سوف يحجب سعادتك فإن العلماء سوف يريحونك من هذا الشعور بمحو تلك الفكرة من ذاكرتك.

هل تتعاقد؟ يراهن نوزيك أنك لن تفعل وهو يقول إن هذا يظهر أن السعادة ليست وحدها الشيء الذي يهم، إن العزوف عن التعاقد يظهر هذا لأن الارتباط بآلة التجارب سيكون بالنسبة لنا جميعًا السبيل إلى مضاعفة سعادتنا، لكن هناك أشياء أخرى نقيمها بجانب السعادة، أشياء يمكن الحصول عليها في الحياة الواقعية وليس في آلة التجارب.

إن العزوف عن التعاقد ليس سهلاً تفسيره، يمكن أن يكون مجـرد أن ثقتنا في العلماء ليست كافية بالدرجة التي تضعنا في هذا الوضع غير المنيع، أو ربما لأنها لا تتفق مع طلباتنا، أو ربما يكون هدف العلمـاء اسـتخدامنا لإجراء تجارب علينا، وحتى لو كان العلماء ملائكة فإن آلاتهـم يمكـن أن تتعرض لسوء العمل. ورغم أن الحياة الحقيقة لا تضمن لنا السعادة المتفائلة فإننا قد نظن أن احتمالات الحياة السعيدة ممكنة في العالم الواقعي.

للقضاء على هذه الحيرة، دعنا نغير التجربة المذكورة تغييرًا بسيطًا السؤال ليس ما إذا كنت ستختار أن تتعاقد، ولكن السؤال هو هل تهتم بأنـك الآن متعاقد بالفعل؟ يؤسفني أن أخبرك ولكن هذا قد يكون ممكنًا أن تكون قد اخترت منذ زمن طويل أن تتعاقد لقد حدث هذا فـي أيـام مراهقتـك أيـام التجربة. نعم وأنت اخترت الصندوق معلنًا تفضيلك لمحـو الـذاكرة، والآن بالطبع أنت لا تذكر ذلك اليوم المصيري عندما اسـتلقيت فـي ذاك المقعـد والخوذة على رأسك. ومن وقتها وأنت تعيش في عالم فاضـل؛ الأصـدقاء الذين كنت تظنهم أصدقاءك كانوا أصدقاء فاضلين، هذا الكتاب كتاب فاضل ووالداك كانا فاضلين، ولكن الآن وأنت تفكر فيها كانت الـسنوات العديـدة الماضية سعيدة بصفة استثنائية، قبل أن تقرأ هذا كنت تظن أن حياتك تـسير سيرًا جيدًا. الآن لديك سبب أن تفكر بطريقة مختلفة.

نوزيك يتنبأ أنك ستكون منشغلاً بهذه الإيحاءات. إذا افترضـت أنـك تعاقدت مع آلة التجارب فإنك لن تظن أن حياتك طيبة تمامًا. إنني أجـد أن هذه أفكار كثير من الناس تمامًا مثلما يتنبأ نوزيك، إنهم يظنون أنه سـيكون سيئًا للحياة التي كانوا يعيشونها – بصرف النظر عن مـدى سـعادتها– أن يعيشوا حياة تولدها آلة التجارب، ورغم هذا فإن هناك بعض الناس الذين لا يرون أية مشكلة مع هذه الحياة، إذا كنت واحدًا من هؤلاء، فكر في الأمـر

مرة ثانية بعد التفكير لبعض الوقت في الفرق بين الحياة بواسطة آلة والحياة العادية، ما هو هذا الفرق؟

بداية، إننا إن تعاقدنا مع آلة التجارب فإنا نكون معتمدين على العلماء والآلات تماما مثل مريض يعيش على الأجهزة، يمكن أن تتوقف حياته في لحظة لعطل في الأجهزة أو لعدم خبرة الأطباء، في الحياة العامة نحن نستمتع باستقلالنا إلى حد ما.

إذا تعاقدنا مع آلة التجارب فإننا لا نفعل شيئًا يفيد الآخرين، لا نعتني بأطفالنا، العلاج الذي نقدمه لمرضانا لا يشفي أحدًا ولا حتى القطط التي نطعمها، إن حياتنا هكذا تكون بلا فائدة لأحد، أما في الحياة العادية فإننا نؤثر على الآخرين، مع آلة التجارب تفشل في كل شيء، إنك ستبدو كالذي أخذ ضربة على رأسه دون أن يحدث هذا، إنك تظن أن ابنتك قدمت لك هدية جميلة في عيد الأب رغم أن هذا لم يحدث، سوف تظن أنك حصلت على ترقية دون أن يحدث هذا، عندما أتعاقد فإن أحدًا لن يستجيب لمطالبي، إنني أخبر أبنائي أن يقوموا بواجباتهم المدرسية وقد يبدو لي أنهم فعلوا دون أن يحدث ذلك.

إذا تعاقدت فإنك لا تخاطر بشيء لن يكون في حياتك أية مغامرات كل ما يحدث لك يكون مخططًا لك ويسير وفقًا للخطة. وهذا لا يعطيك فرصة لتكون أنت، إذا كانت الحياة مخططة كلية فلن يكون عندك فرصة للتعلم للتجربة والخطأ، وما هي الأنشطة التي تناسبك فعلاً وغيرها لا يناسبك. عندما يتقدم بنا العمر فإننا نتعلم أكثر وأكثر عن أنفسنا من خلال ردود فعلنا على التجارب التي تمر بنا. يتضح من هذا أن هناك فروقًا كثيرة بين الحياة العادية والحياة من خلال آلة التجارب. بعد كل ما قلته لك هل ما زلت راضيًا عن آلة التجارب؟ إذا كنت ما زلت راضيًا ربما يكون ذلك لأنك تتصور أن

المشكلات المزعومة التي ستتسبب فيها تلك الآلة ليست مشاكل تؤدي إلى المعاناة، هل هناك مشكلة في حياتي يمكن ألا أشعر أنها مشكلة لي؟

في الظروف العادية تبدو مشكلاتنا كما هي مشكلات ولو أني أعتقد أنها ليست كذلك دائمًا. فكر في الرعب الذي يعترينا من احتمال انقطاع أنفسنا (سقوطنا في حالة غيبوبة، نتيجة لمرض أو جرح)، بعض الناس يعتقدون أن هذا وضع أسوأ من الموت ويعدون وصاياهم في أثناء حياتهم تحسبًا لوقوعهم في تلك الحالة. إن سقوطي في حالة غيبوبة يسبب مشكلات للآخرين، إن الناس سيكونون مضطربين أو إن وضعي الذي يشبه الحياة سيجعلهم يحزنون ويتحركون وربما رؤيتهم لي على هذا الوضع يجعلهم غير قادرين على تذكر هيئتي السابقة وستكون نفقات علاجي مرتفعة جدًا، ولكن بصرف النظر عن كل هذا، من البديهي أن نفكر في أنني في حالة الغيبوبة تكون عندي مشكلات مباشرة ولكنني ونظرًا لحالة عدم الوعي التي أعانيها فإني لا أشعر بحالتي السيئة، رغم كل ما فيها من سوء.

الاعتماد، الفشل في إفادة الغير، الاعتقاد في أشياء زائفة، كل هذه المشكلات المزعومة على آلة التجارب لن تبدو مشكلات، إذا أنا برمجت على الآلة تجارب لمحبة الغير سوف أحصل منها على الإشباع الذي أحصل عليه في الحياة العادية. إذا لم أكن أفيد أحدًا بالفعل فإن البعض سيقولون إن هذه مشكلة للآخرين وليس لي، بالنسبة للبعض فإنه مشكلة لي ستكون مشكلة تؤثر في تجربتي الواعية. إنه شيء جيد أن يكون لي حياة طيبة، طيبة بالنسبة لي بالأخص لأنها حياتي أنا، إذا كنت الآن أعيش حياة سيئة –دون أن أعرف– فإن هذا شيء سيئ، ولو أن المشكلة لا تبدو لي كذلك.

إن فيلسوف القرن السابع عشر الفرنسي الشهير رينيه ديكارت هو من أشد مؤيدي هذه الفكرة أن هناك مشكلات لي لا تبدو مشكلات (لا أشعر أنها

مشكلات)، إنه مهتم بشكل خاص بمشكلات المعتقدات الزائفة وهـي إحـدى المشكلات التي تجدها في آلة التجارب. دعنا نرى كيف أثرت هذه القـضية في تفكير ديكارت:

يرجع الفضل إلى ديكارت في آلة الزمن لنوزيك والسيناريو الموضوع في الماتريكس، فعندما كان نوزيك يحاول فعل شيء حول القيم ونفس الشيء يمكن قوله عن الماتريكس كان هدف ديكارت هو أن يحدد ما إذا كان هنـاك شيء يمكن أن نعرفه بكل تأكيد. كانت غايته أن نضع العلم والمعرفة علـى أساس مضمون.

لم يتصور ديكارت ابن القرن السابع عشر أن يخدعه كمبيـوتر. إنـه يسأل في "التأملات" ما إذا كانت تجاربنا الواعية يمكن زراعتها فينا بواسطة كائن قوي كريه، شرير مخادع بدلاً من أن تأتينا من العـالم عـن طريـق حواسنا وعقلنا. إن ديكارت يدعوني لكي أرى أنه من الممكن أن يصدق أنه ليس هناك عالم مادي محسوس، أنني لا أمتلك عقلاً ولا حواس. إنه يفترض أنني ممكن أن أكون وحدي في الكون ومعي فقط مخادع شرير يملأ رأسـي (وليست روحي) بصورة منضدة، لوحة مفاتيح ويدي على لوحـة المفـاتيح وشاشة الكمبيوتر والنافذة، والأشجار خلف النافذة، والسماء، كل هذه الأشياء يمكن أن تكون خيالاً.

بعد ذلك يقر ديكارت أن تلك الأفكار يمكن أن تكون مزيفة، إنه يكتشف لفرط سروره أن هناك شيئًا لا يمكن أن أتشكك فيه وهو حقيقة وجوده فيؤكد "أنا أفكر إذن فأنا موجود". هذه العبارة الشهيرة تبدو أنها تعطينا شيئًا عميقًـا عن معنى الحياة ولكنها بالنسبة لديكارت تعبر عن أبسط شيء يمكن التأكـد منه، إذا كنت أفكر في حقيقة وجودي فكيف لا أكون موجودًا؟ يقـول: نعـم إنني أعيش ولكن ماذا أيضًا يمكن أن أتأكد منه؟ ثم يتقدم ديكـارت خطـوة صغيرة بخطوة صغيرة محاولاً أن يكتشف حقائق مؤكدة إضافية. إنه يستخدم

مبادئ أولية صحيحة معقولة، ومبادئ ليست واضحة تمامًا ليصل في النهاية إلى نتيجة هي أن الله موجود وأنه خير جدًا. ويقول إن هذا صحيح مؤكد تمامًا مثل حقيقة وجودي. إن ما يهمنا هو الخطوة التالية. إن لدي ميل كبير للاعتقاد أن هناك منضدة أمامي، ليس هناك شي ممكن أن أفعله لخنق هذا الميل للأبد (ربما لدقائق معدودة لكن الميل يعود). يفترض ديكارت أنه إذا لم يكن هناك منضدة إذن فإن الله يكون مذنبًا إما بخداعي وإما بالسماح لقوة أخرى أن تخدعني. لكن الخداع سيئ. إنه لا يخدعني ولا يسمح بخداعي إذن لا بد أن يكون هناك منضدة أمامي.

علينا أن نتوقف هنا لنسجل هذه الوسطية المدهشة التي يعطيها هذا الشرح لمعتقداتنا الدينية. إذا كان ديكارت صائبًا، لا بد أن أعتقد أولاً أن الإله موجود قبل أن أعرف أن المنضدة موجودة (أو حتى جسدي). إن الكافر ليس محظوظًا فهو لا يمتلك أساسًا عقلانيًا للاعتقاد أن المقعد موجود.

إن الشيء الوثيق الصلة بهذا هو افتراض ديكارت أنه سيكون شيئًا سيئًا جدًا لي أن تكون عندي عديد من الاعتقادات التي تختلط مع الحقيقة، إنه ليس أمر يسبب لي أية مشاكل واعية، إنها مجرد شيء سيئ لفترة، إنها ليست شيئًا جيدًا يفرض على هذا الجزء من المناقشة يبدو لي قويًا جدًا. إن شخصًا كل مفاهيمه عن العالم حوله خاطئة لديه مشكلة حتى ولو لم تكن تبدو له كذلك. وهذا ينطبق على ما تقوله على الأشخاص الموضوعين على آلة التجارب أو الذين يعانون من الغيبوبة. إن هذا مشكلة لهم ولو أنهم لا يدركونها. إنك يمكن أن تكون في مشكلة ولكنك لست منتبهًا لها.

سؤال لمراوح ماتريكس: هل الشخصيات في الفيلم ترى الغش المطلق مشكلة؟ الثوار يوجدون في الحقيقة ويعيشون في العالم الحقيقي لأنهم من ناحية يريدون أن يتحاشوا الخديعة وأيضًا لأن هذا هو السبيل الوحيد لمنع

الكمبيوتر الشرير من الاستيلاء على العالم. ليس الدافع الوحيد لهم هو الخداع اللاواعي. وهكذا كان هناك شخصيات راغبة في إعادة الحقيقة الفاضلة بمزيل للذاكرة رغم أن أنفاسهم ستنقطع ويخدعون نهائيا وهذا لا يظهر أنهم لا يجدون في الخديعة مشكلة.

الحقيقة انقلبت إلى شيء قبيح وبائس والعالم الفاضل الذي تجلبه الماتريكس سار إلى حد معقول. من العدل أن نقول إن هؤلاء الذين يرون خديعتهم شرًا، إنهم يرون أنها الشر الأقل إذا قورنت بالتعاسة التي لا تنقطع والتي تجلها الحقيقة. وهكذا فإن شخصيات الفيلم لا تسلك في طرق متعارضة مع النقطة التي أثرتها، فإن الخديعة الشديدة هي مشكلة لي سواء شعرت بها كذلك أو لا. الأشياء السيئة أو الطيبة ليست دائمًا كذلك فيما أشعر به.

إذا كنت قد أوضحت قضيتي فإن الباب مفتوح الآن للقول إن هناك أشياء طيبة بجانب السعادة، وأشياء سيئة إلى جانب التعاسة، أعتقد أننا يجب أن نسير من خلال هذا الباب. في الحقيقة، السعادة ليست هي كل ما يهم. تصور أن طفلتك تنمو وتقرأ عن آلة التجارب، ثم هي قررت أن يكون هذا هو هدفها في الحياة وبدأت تقضي كل وقتها تخطط نوع البرامج التي ستطلبها، سوف يكون عندك بالتأكيد سبب كافٍ للاعتراض، هناك قلق حول ما إذا كانت ستكون آمنة، وأيضًا ستكون مذعورًا من توقع موتها. ولن يخفف عنك كثيرًا تأكيداتها أنك ستكون رفيقًا في عالمها الفاضل. لكن وراء كل هذا أعتقد أنك من المحتمل أن تصدم بالحياة التي تعتزم ابنتك أن تعيشها، ليس هذا هو كل ما تريده لها. هناك شيء سيئ جدًا بشأن هذه الحياة حتى ولو كانت ابنتك لن تشعر بهذا السوء.

لقد مررنا بالعديد من أنواع هذا السوء: مشاكل التبعية، الخداع، عدم فعل شيء من أجل الآخرين، ولكن هناك أكثر من هذا؛ سوف يقول أرسطو

إنها حياة غير طبيعية، سوف تشكو من أنها حياة لا يمكن أن نطـور فيهـا المواهب مثل العزف على البيانو والسباحة والطهي، إنها أيضًا حياة لا تسهم في الثقافة أو المعرفة. ومن ناحية أخرى فإن الخير المتوفر في آلة التجارب لن يكون الخير الآتي من السعادة. من الممكن أن يكون الذكاء والشخـصية الطيبة متوفرين ويمكن أن يسهما مباشرة في خير حياتنا وليس بطريق غير مباشر يجعلنا أكثر سعادة، إن قائمة الأشياء التي يمكن أن تكون خيرة بجانب السعادة والأشياء السيئة بجانب التعاسة تصير أكبر وأكبر.

إذا بدأنا بالتفكير في أن السعادة هي كل ما يهم فإن هذه الفكرة ستحكم قبضتها علينا ويكون من الصعب تخفيفها، لقد حاولت أن أخففها بإلقاء أنواع كثيرة من الأشياء الخيرة والأشياء السيئة ولكنها لن تستعار كلها. في الفصل التالي سوف أبدأ بعمل جرد منظم لما يجب اعتباره ضروريًا للحياة الطيبة.

لكن دعنا نتوقف قبل أن ننتقل في هذا الاتجاه. مثل ولد سيئ في نهاية فيلم رعب دعنا نترك للرأي الذي يتبنى العنصر الوحيد للحياة الطيبة جولـة أخيرة؛ لماذا لا نقول إن حياتنا تسير سيرًا حسنًا ما دمنا نحصل على كل ما نريد مهما كان. إن الشخص الذي ينال كل ما يتمنى يعيش حيـاة عظيمـة، والشخص الذي تتحطم كل رغباته يعيش حياة صعبة، في القرن التاسع عشر تزعم الفيلسوف الأمريكي ويليام جمس هذه الفكرة في أجرأ شـكل ممكـن: "إن جوهر الحياة الطيبة هو ببساطة إشباع الرغبات، إرضاء المطالب"، وتلك المطالب ممكن أن تكون أي شيء تحت الشمس. إن نظرية إشباع الرغبـات أو إرضاء المطالب كما تسمى أحيانا تبدو متطابقة مع النسبية، ولكنها ليست كذلك تماما. إن النسبية تحترم ذلك الرأي، إن إرضاء المتطلبات جيد إذا كان هذا هو ما يقوله بعض الأشخاص أو الثقافات وإن بعض الثقافات تقول هـذا فعلاً، فكما رأينا في الفصل الثاني فإنه يبدو أن ثقافة قديسي الصحراء تقـيم

(تمجد) إحباط الرغبات، فهم يعتقدون أن حياتنا تصير أفضل كلما قل إشباع الرغبات الجسمانية. إن مؤيدي نظرية إرضاء المطالب لن يستطيعوا الموافقة على ذلك الرأي.

إن نظرية إرضاء الحاجات (إشباع الرغبات) تشبه كثيرًا نظرية السعادة البسيطة، عادة عندما ننال ما نريد فإننا نشعر بالسعادة وعندما لا نناله فإننا نشعر بالتعاسة، ولكن مرة أخرى فإن هذين الرأيين ليسا تمامًا دائمًا. فكر في ابن سعيد موضوع على آلة التجارب، إذا كانت رغبته أن يصبح ابنًا يعتمد عليه، وكانت أمه على فراش الموت (وهو بعيد عن عينها) فإنه طبقًا لنظرية إشباع الرغبات لن يكون مسار حياته جيدًا، تقول نظرية السعادة البسيطة: إن حياته تكون عظيمة ما دام أنه سعيد.

إن الفكرة الرئيسية في نظرية إشباع الحاجات فكرة جذابة، إنها تربط ما هو جيد بالنسبة لك مع ما تريد. الرأي يتطلب الحيادية تجاه ما تريد وبهذا تحترمك مصممًا لرغباتك وقيمك واختياراتك، ومن جانب آخر هي تحترم تحقيق رغباتك وقيمك واختياراتك وتعتبره شيئًا جيدًا. هذه فكرة تؤمن تماما بفكرة المساواة فكرة تتمشى تمامًا مع احترام وتقدير الاستقلالية الفردية.

لكن هل هي كذلك حقا؟ المشكلة أن عالمًا يكون الشخص فيه هو مصمم رغباته وقيمه واختياراته هو عالم مثالي، إن كثيرًا من رغباتك تكون نتيجة تلاعب، مناورات إعلام سيئ أو خداع. إننا نريد الأشياء التي يتم تشجيعنا عليها بإعلانات تجارية أو عندما ترى إعلانات كثيرة عن أحدث وأجمل سيارة جديدة فإنك ستجد نفسك في النهاية شغوفًا لامتلاك تلك السيارة. إذا قلنا إنه شيء جيد لحياتك أن تمتلكها فهل يمكننا أن نقول إنك مصمم رغباتك أم إن شركة ماديسون أفنير للدعاية والإعلان هي المصمم؟

ربما تكون قادرًا على أن تحدد ما تريد من الأشياء والرغبات المادية العارضة وربما تفرق نظرية إشباع الرغبات بين الحالتين بحيث يكون هناك خير أكثر في تحقيق الأخيرة، "المشكلة أنه في حالات كثيرة لا يوجد خط واضح. ربما تتحمس فتاة في سن السادسة عشرة لأن تكون الزوجة الرابعة لشيخ مارموني، وربما يضع هو رغباتها مبررًا لإتمام هذا الزواج، ولكن إذا قال إن حياتها ستكون أفضل إذا تزوجته، فإننا سنعرف أنه لا يقدرها مصممة لحياتها، إن رغباتها قد استخدمت ببراعة بطرق جماهيرية عامة حتى يستخدمها الشيخ الفاضل لتنفيذ رغباته الخاصة".

وحتى عندما لا يكون هناك استغلال واضح فإن الرغبات يمكن أن تشكلها الظروف بطريقة مركبة، إن احترام الرغبات هو في الحقيقة رهن بالظروف. في كتابها المرأة والتنمية الإنسانية تصف الفيلسوفة المعاصرة مارتا نوسبوام التفضيلات التكيفية للمرأة في المجتمعات التقليدية حيث تذعن المرأة للتفرقة، أحيانًا يكون من الأسهل أن نتعاون أفضل من أن نستمر في الحياة غاضبين وحزانى، مثلاً إنها تتحدث عن المرأة الهندية التي تقوم بكل أعمال المنزل بسعادة رغم أنها تعمل أيضًا خارج المنزل عملاً مرهقًا بينما زوجها لا يعمل إلا نادرًا.

بسبب هذا القلق فإن مؤيدي نظرية تحقيق الرغبات يلجؤون إلى تزيين النظرية بكل أنواع المؤهلات المهنية المعتنى بها، إنها ليست أية رغبة يجب تحقيقها، ولكن فقط الرغبات التي تكونت بالطريقة الصحيحة. هذه الرغبات من الدرجة الأولى تكونت بحرية وعقلانية، إن مؤيدي النظرية عليهم أن يعرفوا كلمتي بحرية وعقلانية بعناية حتى لا يتخلوا عن حيادية النظرية، إنهم لا يستطيعون أن يسمحوا لأنفسهم أن يفكروا أن الرغبات العقلانية الهدف منها مجموعة من الأشياء الجوهرية الطيبة لأنهم لا يريدون أن يلتزموا بشيء من هذا القبيل.

إن بعض الفلاسفة المعاصرين لهم آراء إذا فحصناها جيدًا وجدناها أنواعًا من نظرية تحقيق الرغبات، فمثلا الشكل السائد للنفعية اليوم يعرِّف الخير الذي يجب علينا ليس بالسرور أو السعادة ولكن بإرضاء التفضيلات (وأحيانًا) التفضيلات العقلانية، إنه إرضاء تفضيلات مشابه للغرض المحقق. إن أحد الفلاسفة السياسيين الأكثر شهرة في وقتنا هذا وهو جون راولز يعرِّف ما هو الخير للفرد بأنه تحقيق خطة حياة عقلانية. إن خطة حياة هي شيء أنت تقيمه مبكرًا في الحياة متضمنًا الأشياء الرئيسية التي تريدها وكيف ستحاول الحصول عليها. إن شخصًا يحقق خطة حياته سيكون قد حقق رغباته الرئيسية، لذا فإن رأي راولز قائم على أن الخير للفرد هو تنويع على نظرية إشباع الرغبات. إن خطة حياتك تكون عقلانية إذا لم تتضمن أخطاء منطقية، وأنك ترسم خطتك بوعي تام بالحقائق وثيقة الصلة وبعد تقدير حريص للنتائج، لا يمكن إنكارها.

إنها نظرية شهيرة، ذات جاذبية لا يمكن إنكارها ولكنها وحتى بعد إجراء إصلاح جذري فإن نظرية إشباع الرغبات تقع في مشكلات؛ ماذا لو أنك بلا خطة للحياة أو لو أن لديك خطة غير عقلانية؟ لنفرض أن خطتك هي أن تكوني صاحبة عمل في العشرينيات أو الثلاثينيات من العمر، ثم تنجبين أطفالاً في الأربعينيات وعندما تقل خصوبة المرأة، رغم أن الأمومة مهمة بالنسبة للمرأة. هذه خطة حياة غير عقلانية ولكن إذا نجحت أليس هذا سببًا للاحتفاء؟ يبدو واضحًا أن حياة يمكن أن تجري جيدًا رغم حقيقة كونها لا تحقق خطة أو رغبة عقلانية.

ومن ناحية أخرى فإن حياة لا يمكن أن تسير سيرًا حسنًا رغم أنها تحقق رغبة أو خطة عقلانية، هنا حالة شخص له رغبات عميقة ومستقرة وغير مستغلة لحياته الخاصة وقد تحققت كلها، اسم الرجل هو شريدهار

شيلال ويعيش في الهند مدينة بونا، أنا لا أعرف عنه شيئًا غير أن اسمه جاء في موسوعة جينس للأرقام القياسية لأن لديه أطول أظافر في العالم طولها ٢٠ قدمًا على إحدى يديه، الوزن سبب تلفًا دائمًا لأعصاب هذا الجانب من جسمه مؤديًا إلى صمم دائم، وأظافره تمنعه من القيام بالأنشطة العادية أو حتى النوم الهادئ. هي شيء غير منطقي وغير عقلاني، لقد قام بخطته بعلم تام وأصبح لديه ما يريده جدًا وهو أطول أظافر والشهرة، وهو يظن أن الإعاقات التي حدثت له هي ثمن لنجاحه وهو غير نادم.

إن نظرية إشباع الرغبات ستعترف بأن حياة شريدهار شيلال عظيمة وهذا يجعلني غير مرتاحة لتلك النظرية. لا شك أن هناك بعض الأهمية في الحصول على ما نريد، لا نستطيع أن نستبعد الحاجات الفعلية في كل مثل ناقشته، ولكنه يبدو كما لو كان هناك المزيد الذي يجب مناقشته إذا أردنا الحكم على ما إذا كانت الحياة التي يعيشها شخص ما طيبة أم لا. بالتأكيد لسنا على استعداد لأن نحكم على حياة شخص بأنها فاشلة لمجرد أنه لم يحصل على ما يريده أكثر. في الحقيقة إن الحياة العظيمة يمكن أن تواجه إحباطات كبيرة عظيمة، إن المشلول لا يمشي ثانية، الكاتب المؤلف لن ينال الشهرة التي يريدها، الناشط السياسي لا يحصل على انتخاب مرشحيه، إذا كانت نظرية تحقيق الرغبات صحيحة ستكون هذه الأنواع من الفشل محورية وحيوية تمامًا في تقييم حياتنا. إن هذه الأشياء ليست لا شيء ولكنها ليست كما تعتبرها نظرية تحقيق الرغبات الشيء الرئيسي.

يجب ألا ننسى الجاذبية التي تتمتع بها نظرية تحقيق الرغبات ونحن بصدد تصميم شكل جديد كيفية أن نعيش جيدًا في الفصل التالي من هذا الكتاب. إننا نحتاج لإعطاء بعض الأهمية لتحقيق الرغبات، لكن أن تحقق ما تريد ليس مقنعًا أو مقبولاً أكثر من الفضيلة والسعادة كعناصر أساسية تؤثر في اعتبار حياتنا طيبة أم لا.

الفصل الخامس

الضرورات

إن هناك شيئًا رائعًا في فكرة أن شيئًا واحدًا في الحياة هو الذي يهـم، وسيكون مدهشًا إذا كان هذا صحيحًا، تخيل كم سيكون سهلاً لاتخاذ قرارات وعمل خطط إذا كان هناك شيء واحد يستحق أن نحصل عليه. هذا إغـراء للفلاسفة الذين يفضلون أن يفكروا (يعتقدوا) أن الشيء القيم الأساسـي هـو شيء واحد.

هناك مزايا إذا كان الخير له صورة واحدة، لكن هكذا تكـون الحيـاة مملة. هناك خط قصصي معروف يرسم الرحلة من الشر إلى الخير أو على الأقل من السيئ إلى الأفضل، القصص من هذا النوع مختلفة عديـدة مثـل الجريمة والعقاب ومذكرات عبد من القرن التاسع عشر والسيرة الذاتية لهيلين كيلر، ومن جهة نظر الفضيلة الواحدة فإن كل هذه القصص التـي تتنـاول التحول من السيئ إلى الجيد تحكي نفس القصة. إذا كانت فعلاً تخطط لتحسين الحياة فإنها لا بد أن تكون جميعًا قصصًا عن شخص يصبح أكثر سـعادة أو أكثر تمسكًا بالفضيلة أو... إلخ.

الحقيقة بالتأكيد أكثر تشويقًا. إن القصص التراجيديـة التـي تتنـاول التحسن مختلفة ولكن هل هي مختلفة تمامًا؟ إن هذا ربما يكون مشوقًا ولكنه أيضًا محير، فإن في كل قصة عن حياة تتطور إلى الأحسن هنـاك شـخص عليه أن يعيش هذه الحياة من الداخل، عليه أو عليها تحديد أهـداف يحقـق أحدها ثم ينتقل إلى الآخر إذا كان هناك عدد غير محدد من الأشياء القيمـة

التي تحتاج للاعتناء بها فإن رأسنا سينفجر (سيرتبك) علينا -على الأقل- أن نفضل أن نجد أن هناك شيئًا طيعًا يستحق اللهاث خلفه.

إذا غمسنا أنفسنا في قصص الحياة سنجد معنى كامنًا لكل الأشياء ذات القيمة. هذا المعنى ربما يكون مرضيًا أكثر من قائمة الأشياء المرتبة والظاهرة، مهمتنا هنا الآن هي أن نجعل الأشياء واضحة وموجزة. الهدف هنا هو عمل قائمة. سوف أحاول أن أحتفظ بالصورة كما هي وذلك بالعودة كلما أمكن إلى القصص ذاتها حيث ستكون دليلنا لما تتضمنه القائمة.

الأشياء التي نريدها في قائمتنا هي طيبة أساسًا، طيبة في حقيقتها وليس لأي سبب آخر. كثير من قصص الحياة الخاصة بالتطور للأفضل تتعلق بكيفية الحصول على المأوى والطعام، أو كيفية استعادة الصحة أو تحقيق الأمان. يمكن أن يكون هناك قصص طيبة أفضل منها (المفضل عندي منها) قصة ستيفن كالاهان Adrift العائم مع التيار – المطرود التي تحكي عن ٧٢ يومًا قضاها وحيدًا على قارب نجاة. عندما نكون وسط نوع من النضال كهذا فإن لا شيء يهمنا أكثر من الطعام، الدفء، النجاة من المرض والألم أو الابتعاد عن الخطر، لكن الصحة والأمان ليسا جيدين في حد ذاتهما ولكن بسبب كل الأشياء التي تصبح ممكنة بهما، إنها ليست قصة إنها شفاء من مرض انتهت بصحة بسيطة ذات نهاية محددة. إن الشخص الذي شفي يصبح في وضع أفضل يمكنه من عيش حياة طيبة ولكن ربما يحقق ذلك وربما لا.

لا يوجد سبب للاعتقاد أن كل خير جوهري يحدث تغييرًا في مسيرة حياتنا. من الملاحظ أن هناك أشياء طيبة جدًا لا تلعب دورًا مباشرًا في حياتنا، مثلاً قد تعتقد أن ecosystems أفضل أو أسوأ اعتمادًا على تنوعها. التنوع البيولوجي – في هذا الرأي – هو خير أساسي، ولكن هذا الخير

الجوهري (إذا كان كذلك) لا يؤثر كثيرًا في حياة الفرد. يبدو أنه يجب ألا يوضع على القائمة التي نعتزم إعدادها. وبعد ذلك من الممكن أن يكون هناك أشياء خيرة أساسية تجعل الحياة تسير أفضل ولكن ليس الحياة الإنسانية. ربما يستطيع العالم بكل شيء أن يجعل حياة الكائن العلوي طيبة على قدر المستطاع ولكن هذا لن يكون نافعًا لنا (هل يكون جيدًا بالنسبة لك أن تعرف فيما تفكر زوجتك طيلة الوقت؟). ربما يكون هناك أشياء أساسية تجعل حياة الحيوان تسير سيرًا جيدًا ولكن ليس حياتنا.

إن الخير الأساسي (النهائي) الذي نريد أن نركز عليه مرتبط بالحياة الإنسانية. لكن كيف؟ إذا كنا بصدد خير واحد –السعادة مثلاً– فإن فكرة الارتباط تبدو واضحة، هذا الخير يجب أن يفهم على أنه ضروري ليجعل الحياة تسير سيرًا حسنًا، أن يكون لديك ما يكفي من هذا الخير يجعل الحياة تسير سيرًا حسنا. إذا كان هناك تقريبًا خيران جوهريان (x) و (y) فإن سؤالاً جديدًا سينبثق: هل حياة يمكن أن تكون حسنة لمجرد أنها ممتلئة بكميات من الـ (x) والـ (y) متناوبين ومتبادلين؟ كثير من أحدهما يمكن أن يحل محل قليل من الثاني، كلاهما يقدم الخير ولكنهما يقدمانه بطريق مختلف وليس بشكل متناوب. كلاهما ضروري. لتعقيد الأمور الصدق ممكن أن يختلط. إن الأشكال المختلفة من الخير الجوهري يمكن أن تكون مرتبطة بطرق مختلفة، بعضها يمكن أن يكون ضرورات تشغل القائمة (أ) والأخرى مساهمون مناوبون يشكلون القائمة (ب).

إذا كانت هناك أنواع من الخير الجوهري ضرورية فإنهم يلعبون دورًا خاصًا في حياتنا ولذلك فإن علينا أن نحتفظ ببعض الطاقة للحصول عليها، ونعطيها اهتمامًا خاصًا ونفكر في الطريقة التي نربي بها أطفالنا ونعلمهم كيفية بناء مجتمعاتنا، ما دامت الضرورات تلعب ذلك الدور الخاص

في حياتنا فإننا نركز بالذات على تحديد الخير الأساسي من القائمة (أ)، ما هو الدليل الذي يظهر أن هذا الخير الجوهري ليس فقط مرتبط بالعيش الجيد ولكنه ضروري؟ ليس هناك بالتأكيد اختبار تأكيدي ولكننا نتعشم أن نقول ما يبدو معقولاً جدًا؛ إننا بالتأكيد لا نتوقع أن نكون قادرين على أن نتعرف على الخير في لمحة سريعة دون قضاء بعض الوقت في البحث عن دليل، ربما تأخذ بعض الوقت قبل أن تعتقد أن السعادة والأخلاق أو أي شيء آخر هو خير جوهري؛ إن شخصًا يمكن أن يعتقد هذا فقط بعد قراءة سيرة ذاتية مؤثرة أو يشاهد فيلمًا سينمائيًا أو يفكر في تجربة حياتية، على الأقل يجب عليك أن تمحص الأمثلة. إننا جميعًا نعرف أشكالاً من الحياة ونعتبر بعضها أحسن من الأخرى، إن كانت بعض أنواع الحياة التي نعتبرها طيبة دائمًا هي حياة –مثلا– أشخاص يأكلون الفيشار دائمًا، إذن فإن أكل الفيشار بكثرة يعتبر خيرًا أساسيًا للحياة الطيبة للإنسان، وإذا اعتبرنا أن الحياة تكون سيئة إذا نقصها استهلاك الفيشار فإن هذا سبب لاعتبار استهلاك الفيشار ضرورة.

بجانب هذا النوع من فحص الحالات واكتشاف النماذج نتعلم شيئًا من النظر إلى الدوافع الإنسانية. لأني لم أعد ثاقب البصيرة، قاضيًا ذا قيمة أكبر من أي شخص آخر، من المفيد أن نفكر فيما يحترمه الناس وكيف يقيمونه، إذا لم يتوقف كثير من الناس عن بذل الجهد للحصول على الفيشار فإن هذا يعيننا على اعتبار أكل الفيشار ضرورة. إذا كان هناك من لا يحب الفيشار فإن هذا لا ينفي أنه ضروري والسبب هو كما قلت في نهاية الفصل السابق أن الرغبات مستغلة وهي ليست محددة ولكنها بالتأكيد قطعة من الدليل المؤكد.

وأخيرًا فإن من المفيد أن نتعمق في الحديث عن الضرورات؛ ما هو ذلك الشيء الذي يجعل من كل خير أساس ضرورة بدلاً من طريق اختياري

واحد لإضافة الخير للحياة؟ مجرد أن تعرف أساس هذا النوع من الضرورة فإن هذا سيساعدك بالتأكيد كي تقرر ما هو ضروري وما هو غير ضروري.

في هذا الفصل والفصل التالي، ستلعب كل هذه الاعتبارات دورًا، هنا سأكون مهتمة بصفة خاصة بالحالات والنماذج والدوافع وسيكون الفصل التالي أساس الضرورة.

إن السعادة شيء مهم معقول أن نبدأ به.. بعض الفلاسفة يتساءلون: هل الشعور بالسعادة شيء حسن أو أنه الشيء الجيد الأساسي؟ الرواقيون -مثلاً- يقولون إن المتع الجسمانية البسيطة لا تضيف أي شيء إيجابي بالمرة لحياة تستمد خيرها من الفضيلة يقولون:

> "إنها مثل ضوء القنديل الذي يخسفه ضوء الشمس، مثل نقطة عسل سالت في بحر إيجه، وعملة صغيرة وسط ثروة كروسيوس، أو خطوة صغيرة في الطريق إلى الهند. هذه قيمة المتع الجسمانية التي تخسف، تقهر، أمام عظمة وجلال الفضيلة".

أما كانت فيقول إن الشيء الوحيد الجيد بلا مؤهلات هو النوايا الطيبة أخلاقيًا، إذا كان الشعور بالسعادة جيدًا في بعض الأوقات -وربما لنفسه- فإنه ليس جيدًا في الأوقات الأخرى عندما يدفعنا في الاتجاه الخطأ أو يكافئ الأعمال الشريرة.

إن حدسي يقف بجانب النفعيين محبي اللذة الذين ذكرناهم في الفصل السابق. السعادة شيء جيد دائمًا، إننا لا نحب أن نرى أناسًا سيئين يتمتعون بالسعادة باختصار لأننا نعتقد أنها شيء جيد ولا نريدهم أن ينالوا نصيبًا مما هو جيد. هناك شيء محبط حول السعادة سيئة المصدر مثلا المتعة التي تأتي من (السادية) حب تعذيب الآخرين، ولكني أعتقد أننا لا يمكن أن نقيم الحكم

على خمس دقائق من السعادة بأنها طيبة أو سيئة اعتمادًا على منبعها وسبيلها، إن السعادة الطيبة هي ما تستغرق وقتا، وهي مرتبطة بكيف تسير الحياة جيدًا. في كتابه "الظلام المرئي" يروى ويليام ستيربون قصة الإحباط الذي تغلب عليه وكاد يدفعه إلى الانتحار، وعندما انقضى الإحباط وجاءت لحظاته الأولى بعيدًا عن البؤس، ثم تلتها لحظات سعادة، لا شك أن حياته سارت للأفضل. يمكنك أن تؤكد أن سعادة أكبر كانت دافعًا له للحياة لأنها دفعته لإنتاج أكثر وعلاقات أفضل أو أي شيء آخر ولكن ليس هذا هو الحال، فكر في وقت عندما كانت حياتك لا تسير جيدًا، وبالتدريج أصبحت أسعد وبدت أمامك أكثر إمتاعًا وأصبحت تستمتع بصحبة أصدقائك، رئيسك في العمل لا يضايقك كثيرًا، لم تعد قلقًا على المستقبل، هذا التغيير في الحالة المزاجية يمكن أن يكون قد حسن حياتك مباشرة وبسببه حدث التحسن. إن السعادة وإن جاءت من طرق غامضة، أو طرق طيبة، أو طرق سيئة، فإنها شيء جيد جوهري وضروري يمكن أن يؤثر مباشرة على مسيرة حياتنا.

إذا كانت السعادة مرتبطة بمسيرة حياتنا فهل هي ضرورية؟ بدون قليل من السعادة على الأقل فلا يمكن أن نصل إلى أقل مستوى من الحياة الطيبة، إن شخصًا بلا سعادة على الإطلاق إما أن يكون فاقدًا للوعي وإما بائسًا دائمًا أو على أحسن العروض في حالة عقلية محايدة، وهذا هو ما يروق لي أكثر من الفروض الأخرى. ولكنه من الصعب تخيل شخص دائمًا في هذه الحالة، وعلى كل حال لا يمكن الحكم على حياته بطريقة إيجابية.

إن السعادة عرضة للنقد، لكنها ليست الشيء الوحيد المعرض للنقد. في كتابه الأخير "العاملون الفقراء: غير مرئيين في أمريكا" يرسم دافيد شيبلر صورة لحياة الناس الذين يناضلون من أجل تحقيق الغايات. كل قصصه لها نفس الموضوع المكرر ألا وهو عدم الانضباط الناتج عن الفقر، العمال ذوو

الدخل المنخفض الذين يصورهم محرومون من الاستقلالية، الذاتية، من تقرير المصير، ليس لديهم الفرصة لأن يرسموا حياتهم.

إحدى صوره المؤثرة بصفة خاصة كارولين التي تعمل في إدارة المرأة في متجر وول مارت، إنها في حاجة لأن تعود لمنزلها في المساء لطفلتها التي في سن المراهقة بسبب حالة التخلف العقلي وحالات الصرع التي تنتابها ولكنها تضطر للعمل في وردية مسائية. إنها يمكن أن تعمل في أوقات أفضل وتتقاضى مرتبًا أكبر كمديرة، ولكنها ربما لأنها فقدت كل أسنانها كانوا يتخطونها عدة مرات في الترقية. وأخيرًا تركت العمل في متجر وول مارت وبعد ذلك تنقلت من عمل لآخر بورديات عمل مسائية غير منتظمة لدرجة أن مدرسي طفلتها أصبحوا قلقين من إهمالها للطفلة، أخيرًا فقدت كارولين بيتها وطفلتها التي ذهبت لتعيش عند أقاربها.

لا أحد عنده سيطرة كاملة، لكن هناك مستوى من الاستقلالية الذي لا نريد أن نتخلى عنه. في كتابها نيكل وديمد تصف باربرا اهرينرتش كيف تضيع السيطرة عندما نقبل أن يعمل الشخص أجيرًا: المتقدمون لعمل ما عليهم أن يخضعوا لاختبار المخدرات، وتحليل سيكولوجي. وإذا قبلوا للعمل، فإن العمال أصحاب الياقات الزرقاء يتم تلقينهم كيفية أداء كل شيء في العمل وفي أسوأ الحالات يجد العامل نفسه ليس أكثر من ترس في ماكينة تصف باربرا هرينرتش امرأة في لوس أنجليس تطرز البنطلونات الجينز بطيور بمعدل ٧٦٧ في الساعة وتتقاضى أجرًا مقابل ذلك ٥,٧٥ دولارًا في الساعة.. مقابل كل هذا الجهد المبذول هي هكذا ليست أكثر من العبيد.

لو كان عند كارولين قدرة أكثر على التحكم في أمورها لصارت حياتها أفضل، كان يمكن أن يكون الوضع أحسن بكثير لو استطاعت أن تنظم ورديات عملها لتتناسب مع ظروف رعاية طفلتها. لو أنها تقدمت لمنصب

المدير لزادت قدرتها على التحكم في أنشطتها اليومية. وربما كان هناك بعض التحسن لو أعطيت الفرصة لتقدم مبادرات وتجديدات على عملها بدلاً من إجبارها على اتباع نظام موضوع من قبل.

هل الاستقلالية هي شيء نقيمه لذاته؟ وفقًا لأرسطو فإنه من الواضح أن الرقيق ليس لديه الفرصة لحياة طيبة، عبد طبيعي، شخص لديه نقص في العقل والمنطق لا بد أن يبقى عبدًا. عندما يصبح أشخاص غير عقلاء مسئولين عن أنفسهم فإن المنطق والعقل لا يكونان أصحاب الكلمة العليا وهذا هو الوضع الأسوأ، إن الشيء ذا القيمة في نظر أرسطو هو الاستقلال العقلي، وليس مجرد الاستقلال. ماذا كان يمكن أن يحدث لكارولين لو أن ممارسة الاستقلالية دفعتها إلى إدارة ألوان ملابس النساء (هنا كل الملابس الخضراء هنا كل الملابس البنفسجية)، أو أن ممارسة الاستقلالية دفعتها لإنفاق كل راتبها على تذاكر اليانصيب أو أنها فقدت أسنانها بسبب أكل الحلوى طوال اليوم؟ هل ممارسة الاستقلالية ذات قيمة بصرف النظر عن نتيجتها؟

ما يقال عن الممارسات السيئة للاستقلالية هو نفس ما قلته عن السعادة المستمدة من أشياء سيئة. إن الاستقلالية هكذا تكون دائمًا طيبة، ما سيكون عكس ذلك أن نقول إن كل زيادة في الاستقلالية سوف تؤدي إلى جعل حياة الفرد أفضل ولكننا لا نحتاج لأن نقول هذا. هناك أشياء واحتياجات أخرى للحياة بجانب الاستقلالية وإن الاستخدام غير الرشيد للاستقلالية سيقف في طريق استكمال تلك الاحتياجات.

نقص الاستقلالية يكون مصاحبًا لعدم السعادة، ومزيد من الاستقلالية يؤدي إلى مزيد من السعادة، ومن الصعب لذلك أن نفرق بين الرغبة في المزيد من الاستقلالية والرغبة في المزيد من السعادة. وإذا لم نكن مصممين على اعتبار السعادة أهم هدف للحياة فإن السعي للاستقلالية موجود في كل

مكان: عندما يطالب العبيد بالاستقلال عن سادتهم، عندما يطالب الأبناء بالاستقلال عن آبائهم، عندما يطالب العمال رؤساءهم بضبط ساعات عملهم، عندما تطالب النساء بحق التصويت.

إننا في الثقافة الغربية المعاصرة نهتم كثيرًا بالاستقلال الشخصي، إن الاستقلال ينظر له بطريقة مختلفة في الأماكن المختلفة. إننا بالتأكيد لن نرسم صورة للأنواع الضرورية وحجم الاستقلال اعتمادًا على ما هو في ثقافتنا، إن الزيجات المرتبة عن طريق العائلات لا تتم عندنا ولكن هل هي ضد الاستقلالية دائمًا؟ زوجان هنديان من معارفي أخبراني كيف تم ترتيب زواجهما بواسطة آبائهم الذين كانوا يسعون لما فيه صالحهم. ويبدو أن زواجهما جيد بأقصى درجة. ومن ناحية أخرى فمن تقاليد القرية الهندوسية أن يرتب والدان زواج ابنتهما ذات الثمانية الأعوام ويحافظان عليها داخل البيت حتى تصل للسن المناسبة للزواج ثم تنتقل لبيت عريسها في هذه الحالة، وهي تختلف عن الحالة السابقة. هناك نقص كبير في السيطرة، إذا قلنا هذا فإننا لا نكون بذلك ننظر نظرة شخص ذي نظرة فردية بعيدًا عن النظرة المحلية، إن النظرة المحلية عندهم تنظر إلى البنت على أنها مجرد بنت ليس الهدف هو أحسن حياة لها –وهي الفكرة التي نرفضها نحن– إنهم ينظرون لمصلحتها الفردية على أنها مكمل لمصلحة الرجال والعائلات وربما القرية كلها.

يبدو أن فكرة الحياة الطيبة هي التي تتضمن الاستقلالية الكافية، تتعارض بصفة خاصة مع الفكرة الإسلامية التقليدية عن الحياة الطيبة للنساء، لكن مرة ثانية يمكن قراءة التعارض من ناحية أخرى؛ في المملكة العربية السعودية تعيش النساء حياتهن خلف الحجاب مخبأة في منازل أزواجهن وآبائهن، إنهن يعتمدن على أقربائهن الرجال لأخذهن إلى أي مكان ويمنعن

من الإدلاء بأصواتهن في الانتخابات. كما تقول مارتا نوسبوان في كتابها "النساء والتنمية الإنسانية" ليس ضروريًا أن تعكس الترتيبات الاجتماعية حقيقة الحياة الأفضل للمرأة، إن الترتيبات عادة يدافع عنها بأنها في صالح المجتمع ككل، لا يهم مصلحة الفرد، أو تكون ذات أهمية أقل.

بالتأكيد رغم أن هناك ثقافات تختلف عن ثقافتنا تعتقد في أن الفرد يمكن أن يعيش جيدًا يطرق لا تهتم كثيرًا بالاستقلالية. في كتاب "تقليد المسيح" ينصح توماس كمبي وهو كاتب كلاسيكي من القرن الخامس عشر، ينصح الشخص المخلص أن يبحث عمن يطيع، أن تدع شخصًا آخر يدير حياتك يعتبر شيئًا جيدًا وليس سيئًا ما دمت أنت تربط حياتك بالحق الأعلى. إن فكرة التخلي عن الاستقلالية تعود إلى بعض الدرجات الكهنوتية من العصور الوسطى، في كتابها "بنات جاليليو" تصف دافاسوبل دير سانت كلارا الذي أرسل إليه جاليليو ذلك الكاثوليكي غير المطيع بناته، في هذا الكهنوت سانت كلارا كانت الفتيات تمضي الوقت مسجونات داخل دير الرهبان، كان المفترض في السجن أن يهيئ لهن حياة طاهرة. هكذا تصفه سانت كوليت:

> "إنه هو تكرم وتنازل وأراد أن يضع نفسه في ضريح من الحجر، وكان مسرورًا وهو مدفون هكذا لمدى أربعين ساعة، اتبعوه يا بناتي العزيزات، بعد الطاعة والفقر والطهارة التامة سيكون لكُنَّ فناء فسيح تعشن فيه لمدة أربعين عامًا أو أكثر أو أقل حتى تموتن فيه".

إن الحبس في الدير كان يعتبر حياة طيبة للأخوات الثلاثة وليس مجرد وسيلة لتحقيق الخير الجماعي الأكبر.

مهما عدنا إلى الأفكار السابقة، فإننا لا بد أن نكون على استعداد لأن نقول إن بعض الأفكار كانت خاطئة، إن الفكرة القائلة إن فقدان الاستقلالية

يؤدي إلى عيش حياة أفضل هي فكرة حلت محلها أفكار أخرى حتى في داخل التراث الكهنوتي و هكذا.

هل السعادة والاستقلالية هما كل الضرورات؟ لا بد أن نتوقف عند "الرجل الذي لا مكان له"، إن لديه الاثنين السعادة والاستقلالية، لقد أطلق عليه هذا الاسم "الرجل الذي لا مكان له" لأنه ينتقل من مكان لآخر فهو يعمل أسبوعًا في مجزر، ثم الأسبوع التالي ينتقل لعمل في ملجأ للحيوان، الآن هو مهتم بسياسات الجمهوريين، ثم بعد ذلك ينتقل ليؤيد الحزب الديمقراطي، إنه ينجذب بشدة إلى البوذية ثم ينتقل إلى التصوف اليهودي. إنه بلا وجهة نظر ولا يعرف إلى أين يذهب كما تقول أغنية الخنافس.

مشكلة الرجل الذي لا مكان له هي أنه لا توجد وحدة ولا استمرارية في حياته، إن هذا يشبه النقد المتذوق للجمال "هذه الرواية متقلبة إنها غير متماسكة الجزء الأوسط لا ينتمي لها، إن هذا الوصف غامض لا ينطبق على تقييم حياة، هكذا تسمى المشكلة على أنها نقص للذات. إننا نريد فقط أن نلتزم بالعنصرين السعادة والاستقلالية، ولكننا نريد أن تكون طريقتنا في تتبعهما نابعة من ذاتيتنا. إننا لا يمكننا أن نضع يدنا على مشكلة رجل لا مكان له إلا إذا تعرفنا على أمثلة في الواقع وهذا بالطبع أصعب مما نتوقع. إن حياة الخنافس يمكن أن تحتوى مفارقات كثيرة وتنوعات دون أن يتوقع أحد فقدان الذات. لا توجد مشكلة في حياة أرنولد شواريزنجر، لمجرد أنه تحول من بطل أفلام حركة إلى محافظ لكاليفورنيا ولا لأنه جمهوري متزوج من عائلة كنيدي الديمقراطية الشهيرة. إن المشكلة ليست في عدم وجود الوحدة في الحياة ولكنها في الذات الضعيفة، ذات بلا تفضيلات قوية ليس لها عقيدة ثابتة ولا إيمان راسخ ولا سمات وضوابط شخصية. إذا كانت الاستقلالية وتقرير المصير مهمة كما يبدو ، فإنه من المهم أيضًا لأي شخص أن يمتلك ذاتا قادرة على صنع تقرير المصير.

إن الإحساس بالهوية يجعلنا سعداء، شأنه في ذلك شأن الأشياء الطيبة الأساسية، لكن الذاتية والسعادة لا يسيران جنبًا إلى جنب. هناك بعض المواقف التي يفضل فيها بعضنا ذاتيته على السعادة، إن بعض الأشخاص يواجهون هذا الاختيار نتيجة لمرض عقلي؛ بالنسبة لشخص يعاني من الاكتئاب فإن الملجأ الآخر في العلاج هو الصدمات الكهربائية التي يمكن أن تتسبب في فقدان الذاكرة ومحو ذكريات حياته: من هم أصدقاؤك؟ ماذا قرأت؟ ماذا كتبت؟ أين سافرت؟ ماذا حدث في عالمك؟ أنت شخص آخر تماما. في "بحر الذاكرة" كتاب لجوناثان كوت يندم فيه على موافقته على ذلك العلاج لحالة الاكتئاب الحاد، ويتوق لعودة ذاته حتى ولو كانت ذاتًا مكتئبة. أما بيتر كرامر فإنه يعبر في "الاستماع إلى بروزاك" عن قلقه أن تغيير الذاتية هو نوع من مضاعفات الاكتئاب ويتساءل: هل تحسين الحالة المزاجية شيء يستحق هذا الثمن؟

جرح الذات يمكن أن يلتئم بالعلاج وفقدان الذاكرة لكن الأسباب متعددة، في كتابه يلقي شبلر الضوء على أحد مشاكل الذات التي يعاني منها الفقراء؛ كثير منهم يعانون من مشكلات الإساءة الجنسية فيفصلوا أنفسهم عن ذاتهم ويصبحوا مجرد مراقبين لتلك الإساءة، إنهم ينفصلوا عن الألم الذي يسببه لهم الشعور بأنهم ضحايا ويستمرون في مراقبة ما يحدث لهم، إنهم يشاهدون أنفسهم يهملون أطفالهم بدلاً من أن يختاروا أن يهملوهم أو يتوقفوا عن ذلك.

لكن هذه المشكلات الخاصة بإهمال الذات ليست نتيجة للفقر فقط، ومن الأمثلة الأدبية على ذلك في رواية "عيونهم كانت تشاهد الله" للكاتب زورانيل هرستون، كانت جاني قد تزوجت زيجتين من ثريين يتناسبان مع الدور الاجتماعي الذي يفترض أنها ستقوم به، كانا يستغلانها بطريقة الهدف منها أن

تكون مجرد زينة لهما وهذا لم يجعلها تستطيع أن تجد نفسها، ومن المفارقات أنه عندما انحطت درجتها الاقتصادية والاجتماعية شعرت بذاتيتها. يصف شيبلر كيف يهمل الآباء الأغنياء أبناءهم مما يجعلهم متعطشين للاهتمام، قلقين للحصول على إرضاء الناس وعندما يصل هؤلاء الأبناء إلى طور المراهقة تكون لديهم سمات وقدرات، واهتمامات تحظى برضاء آبائهم ويكون ذلك الابن المراهق بلا ذاتية عميقة الجذور ويتخبط بين عمل هذا أو عمل ذاك، وحتى لو كان هذا وذاك أشياء طيبة تجلب السعادة فإن هناك دائمًا شيئًا مفتقدًا في تلك الحياة.

ومثل الاستقلالية، يحظى التعبير عن الذات بنفس المكانة في المجتمعات الغربية المعاصرة ولكن هل الذات اهتمام غربي فقط؟ في ظاهره يتضمن الفكر البوذي معنى مخالفًا تمامًا، إن المفكرين البوذيين يحثوننا على أن نفقد ذاتيتنا لا أن نجدها. إن أعلى درجة يمكن أن يصلها هي "لا ذات" تلك العبارة بها غموض متعمد، ولا نهاية للنصوص الأدبية التي تفسر معناها، يحذر الراهب الفيتنامي تيتش نهات هانه قراءه من تفسير الدهارما (تعاليم البوذا) طبقًا لإدراك المستمعين المعاصرين، عندما علم بوذا هذه العبارات "لا ذات" كان يعلمها لرجال الدين في الهند القديمة الذين استخدموا تلك العبارة atman ليبرروا بها التفرقة الاجتماعية في زمانهم ونظام الطبقات والمعاملة القاسية للمنبوذين وحرمانهم من التعاليم الروحانية التي يستأثر بها أصحاب الدرجات الاجتماعية الأعلى، وردًا على هذا أكد البوذا على None Atman أي "اللاذات" التي أضعها هنا كضرورة لا علاقة لها بالدرجة الاجتماعية، ولا المنشأ، إنها تعني أن تكون أنت ذاتك، أن تعرف نفسك، أن تكون صادقا مع نفسك، ألا تكون مقلدًا لأحد أو أن تتنقل من شيء لآخر.

وعلى الرغم من أن البوذية تشجع "اللاذات"، إلا أنها لا تشجع على أن يكون الرجل بلا مكان. إنني أعتقد أن البوذي لا يرفض الذات التي أعنيها

باستعمالي لهذا المصطلح، ما أعنيه بـ"اللاذات" ليس بعض المواصفات الضيقة مثل (إنني أنثى ليبرالية مثقفة) إنه ليس اصطلاحًا لا يعني التملك أو الأنانية، إنه يعني أن تكون متفتحًا، متلقيًا، عطوفا.

صحيح أننا إذا حددنا معنى التعبير عن الذات على أساس النموذج الغربي فإننا في هذه الحالة سنفشل في العبور إلى الثقافات الأخرى. التعبير عن الذات بالنسبة لأندي وارهول هو شيء آخر، لا يعني أن أكون أنانيًا أو متمردًا إنه يعني أن أفعل شيئًا بطريقتي؛ أن أنسق حديقتي بذوقي، أن تكون لي طريقتي في إعداد الطعام، أو أن تكون لي وجهة نظري.

الأخلاقيات كانت من الأشياء الطيبة التي يفتقدها الشخص المربوط على آلة التجارب (الفصل الرابع). هذا الشخص يضع طاقته في خيال مسئوليات أخلاقية ويهمل المسئوليات الأخلاقية الحقيقية. ربما تقرر أمه الطاهرة العفيفة أن تتعلم اللغة الإيطالية ويتكرم هو بشراء شرائط ثم يأخذها إلى روما، بينما أمه الحقيقية ترقد بالمستشفى وابنها المفقود من زمن طويل لا يزورها، أعتقد أن حياة مثل هذا الشخص لا تسير جيدًا كما يظن، إن سقطاته الأخلاقية تمنعه من أن يعيش حياة طيبة.

الأخلاقيات تتعلق بوضوح بالأسلوب الذي نتعامل به مع الآخرين، ولكنها أيضًا تتصل بأسلوب تعاملنا مع أنفسنا، إنها مشكلة أخلاقية إذا سمحت للآخرين باستغلالك أو أنك لا تحمي نفسك من المشاكل الصحية. ليس مدهشًا أن تكون رعاية الفرد لنفسه هي جانب من الأخلاقيات، ولكن الشيء المحير أكثر هو الاقتراح الذي يقول إن كل الأخلاقيات سواء رعاية الفرد لذاته أو رعايته الآخرين، كل هذا يؤدي إلى التطور الإيجابي نحو حياة أفضل للفرد.

إن فكرتي عن الدور المهم للأخلاقيات يتفق مع آراء بعض القدماء: أفلاطون وأرسطو والرواقيين، الذين ينظرون إلى الفضائل الأخلاقية كشيء

أساسي للحياة الطيبة. إن بعض القدماء يرون أن فوائد الأخلاقيات مهمة جدًا وهي التي تحدد مسيرة حياتنا، إنني لا أتفق تمامًا لكن الأخلاقيات -وهذا شيء بديهي- تستطيع أن تجعلني إنسانًا أفضل وتجعل حياتي أفضل. إنها ليست دائمًا الأخلاقيات التي تجعلني سعيدًا ولكنها في الغالب تفعل هذا. إن الأخلاقيات على ما يبدو تحدث تغييرًا مباشرًا في مسيرة حياتي.

بالتأكيد هناك قصص عن حياة أصبحت أفضل بسبب تحسن أخلاقي، في رواية دوستوفسكي "الجريمة والعقاب" يقتل راشولينكوف امرأة عجوزًا ويحاول أن يبرر فعلته لنفسه ولأصدقائه ولكنه يضطر لأن يتحمل مسئوليته وفي النهاية يذهب للشرطة ويعترف بلا شعور بالألم أو السرور، ثم نعلم أن حياته أصبحت أفضل حتى قبل أن نقرأ حديثه مع نفسه ونعرف ما حدث له. حقا لقد كان هناك جزاء لاعترافه، لقد أخذ عقابًا متساهلاً نظير إقراره بجريمته، لقد أصبح قادرًا على أن يبادل سونيا الحب، وعاد صوب عقيدته الدينية. لقد مرت به لحظات سعادة غامرة وهو يمضي فترة سجنه في معسكر السجن في سيبريا وتحقق له المزيد في المستقبل، إن مجرد التحسن الأخلاقي في لحظة الاعتراف أسس لتحسين الحياة ثم إلى السعادة الأكبر وما تلاها من المزيد.

إن مجال الأخلاقيات وطبيعتها محيران جدًا، وما زالت فكرة أن الأخلاقيات ضرورة فكرة ليست فارغة (بلهاء)، إننا جميعًا نشارك الرأي في بعض التصرفات التي تعود بالنفع الأخلاقي مثل مساعدة جار متألم، الحفاظ على الوعود للأصدقاء، تجنب الطرق التي تؤدي إلى الإدمان أو الدعارة، كما أن لدينا فكرة بسيطة عن التصرفات التي لا غاية أخلاقية من ورائها مثل تسلق الجبال، صنع وجبة شهية، قراءة رواية روسية. هل نحن نتمسك بمتطلبات الأخلاق عندما نحرص على أن تكون لنا شخصية صحيحة أن

نكون شجعانا وصادقين وحكماء وغير ذلك كما يعتقد أرسطو والرواقيــون؟ هل الأخلاقيات هي أن نعمل الأشياء الصحيحة ربما عن طريق تحقيق أكبر قدر ممكن من السعادة للجميع كما يعتقد النفعيون؟ هذه بعض الطرق وغيرها الكثير لنعرف لأي مدى تصل الأخلاقيات. اعتمادًا على مفهومنا للأخلاقيات يكون من الأسهل أو الأصعب الربط بين الأخلاقيات والحياة الطيبة.

إن المفاهيم القديمة بتركيزها على الفضيلة هي التي تؤدي أكثر إلـــى رؤية الارتباط، كما رأينا في الفصل الثالـــث أن فـــضائل أرســـطو تـــدعم الاستقرار والاتزان مثلاً أن تغضب في الوقت المناســـب وعلـــى الـــشخص المناسب وإلى الدرجة المناسبة ينقذ الشخص من أن يكون ممسحة للأرجل أو أن يكون بركانا. فمن الصعب أن نقول لماذا تكون حياة شخص مـــا أفـــضل بإرساله مساعدات مالية لضحايا الفيضان في الناحية الأخرى من العـــالم أو يقول الحقيقة في موقف حرج؟ ما الارتباط بين فعـــل مثـــل هـــذه الأشـــياء للآخرين وتحسن حياتك؟

ربما هناك ارتباط بين العيش الطيب والعيش في وسط الآخرين، إذا لم تهتم بالآخرين ماذا يحتاجون منك؟ وماذا يجب عليك نحوهم؟ فإنك ســـتعيش في عزلة تامة، صحيح سيكون هناك أناس آخرون ولكنهم سيكونون بالنسبة لك مثل الأشياء، بدون الأخلاقيات سوف تستمتع أو تحمي أو تدمر أو تستغل الآخرين من أجل سرورك أنت، سوف تظن نفسك الوحيد من نوعك، الوحيد الذي يستحق الحياة الطيبة. إذا كان شيئًا سيئًا أن تكون الوحيد من نوعـــك، آخر من بقي حيًا إذن إنه شيء سيئ أن تعيش هكـــذا، إن فـــضل الـــسلوك الأخلاقي تجاه الآخرين هو فضل أن تكون جزءًا من عالم أكثر ثـــراء بـــه كثيرون كل له أهمية.

الأخلاقيات طيبة لنا لأنها تجعلنا أقل شعورًا بالوحدة، إنها تعطينا شعورًا بالصداقة ليس مع أصدقائنا فقط ولكن مع كل شخص، إذا كانت الصداقة بالنسبة لك شيئًا جيدًا فإن هذا الشرح سيرضيك، ولكن إذا لم تكن كذلك بالنسبة لك؟ إذن سأقول لك شيئًا آخر: أنت تعيش حياة واحدة هنا وليس هناك تعيش والآن وليس في الماضي أو المستقبل. لكن فلنفترض أنك تعيش مع الفقراء في مكان آخر من العالم أو مع سكان أماكن ملوثة، أو موبوءة، أو شديدة الحرارة كما سيحدث للناس في القرن القادم، إذن نعتبر أنفسنا مثلهم، إن الالتزام الأخلاقي الإحساس باللامحدودية سيربح مشاعرك ويعطي إحساسًا بالرضا ليس لك فقط ولكن لهؤلاء أيضًا (وربما للحيوانات أيضًا).

وعلى الرغم من أن هذه الأفكار تبدو مجردة فإنها تدعمنا في بعض أعمالنا الأخلاقية؛ سوف أتبرع إلى أوكسفام Oxfam لأنه شيء طيب أن تكون مربوطًا بخيوط غير مرئية مع أناس حول العالم، نعم سوف أشتري سيارة مهجنة لأني أشعر بالناس الذين سيعيشون في القرن القادم في مناخ شديد الحرارة والرطوبة، لا لن أجعل حياتي أسهل بإعطاء كل تلاميذي درجات عالية لأن هذا ليس جيدًا لهم ولا لأي شخص آخر وأنا أشعر أن الخير لأي شخص مهم مثل الخير لنفسي تمامًا.

مثل تلك الأفكار غالبًا ما ترشدنا إلى الحلول الصحيحة لحالات الشك والحيرة التي تعترينا ولكن ليس دائمًا؛ الوفاء بالوعود، دفع الضرائب المستحقة عليك، التضحية من أجل الآخرين، كل هذه الأشياء يمكن أن تكلفك الكثير، أعتقد أنها دائمًا تضيف خيرًا لحياة الفرد، ولكن في بعض الحالات فعل الشيء الجيد يدفع إلى أشياء طيبة أخرى. الأخلاقيات يمكن أن تكون مثل نباتات القرع واليقطين التي بدأت الآن تبتلع حديقتي، لقد أضفتهما للحديقة ولكنهما وبسرعة لم يثمرا. الأخلاقيات ليست هي العنصر السحري،

الذي يجعل حياة تسير سيرًا أفضل بصفة عامة ولكنها على أي حال ترفع قدر الحياة فهل نعتبرها من الضرورات؟ (هل أنت تفعل الشيء الصحيح حتى ولو كانت الأخلاقيات تتخطى باقي الضرورات وأنت لا تستفيد شيئًا؟ سنجيب عن هذا السؤال الصعب في الفصل الثامن).

إن قائمة الضرورات الأربع هي: السعادة والاستقلالية والتعبير عن الذات والأخلاقيات، مرتبة ترتيبًا جديرًا بالإعجاب، لكنها ليست مانعة. إن كل شيء على هذه القائمة ذو قيمة عالية، إننا نتصرف كما لو كانت هذه الأشياء مهمة جدًا في حياتنا اليومية. الآن ندخل منطقة ليس لها تلك الدرجة من التأكيد:

لنأخذ حالة تلك المرأة -سأسميها كونستانس- إنها تعمل معلمة بيانو، تعزف سيمفونيات بيتهوفن عزفًا رائعًا، تحب الذهاب إلى حفلات الموسيقى، تلبس ملابس جذابة كلاسيكية مأخوذة من كاتلوج لاندز إند، وتقرأ الإنجيل في وقت الفراغ، إنها صديقة طيبة لجيرانها، تعطي بسخاء لجمعية السرطان الأمريكية. المشكلة أنها ظلت تفعل نفس الأشياء منذ كان عمرها ٢١ عامًا وحتى موتها وهي في الواحدة والثمانين. إن كونستانس لم تحسن عزفها على البيانو ولم تختر موسيقى جديدة، إنها لم تمل موضات لاندز إند، لم تهتم بالتبرع لجهات جديدة، لم يكن هناك تغير أو تحسن في أي مجال. الخير الذي افتقدته هو ميزة النمو، التغيير الإيجابي، التطور.

يبدو أننا نقيم التطور نفسه وليس الأشياء الطيبة التي تأتي نتيجة التطور مثل المزيد من الاستقلالية، السعادة، الإنجازات، إن بعض الشخصيات التي تعجبنا أكثر هي تلك التي تغيرت بسبب المحن والبلاء. إن لانس أرمسترونج كان سيؤثر فينا تأثيرًا كبيرًا إذا فاز في جولة فرنسا مرات أخرى لكن ما أثر فينا أكثر من هذا أنه تقدم (تطور) من مريض نجا من مرض السرطان إلى فائز في السباق. إننا نتأثر بصفة خاصة بشخص مستقل

استقلالية تامة، ذلك هو فردريك دوجلاس الذي تحرر من العبودية، لقد بدأ عبدًا ثم خاض كفاحًا على طريق التحرر. إن السرطان والعبودية أشياء سيئة، وانتهاؤها من حياة هذين الشخص تطور ذو قيمة كبيرة لذا فحياتهما تبهرنا.

إننا نريد لحياتنا أن تتطور من السيئ إلى الجيد، نريد أن يحدث هذا من الأشياء الصغيرة إلى الأشياء الكبيرة بطرق صغيرة وكبيرة. إن التغير من السيئ إلى الأفضل ممكن أن يعني أشياء كثيرة صغيرة أو كبيرة، مثلاً: أن نتعلم استعمال الموقد في صباح يوم، أن نتعلم رقصة سالسا في خلال شهر، أن نعرف دولة بيرو خلال صيف، أن أكون مدرسًا جيدًا خلال عشرة أعوام، أو أتعلم أن أصير عطوفًا خلال حياتي.

لكن أليس من الأفضل أن أكون جيدًا منذ البداية أن أمحو السيئ وأذهب مباشرة إلى الجيد، أن يكون لي المعرفة والقدرات والمهارات والتجارب الطيبة من البداية؟ ممكن أن يكون هذا بالنسبة لنوع آخر من الكائنات. إن الله في مفهومنا بدا كاملاً واستمر كذلك، إن غياب التغيير في كائن علوي ليس عيبًا لكن فينا نحن عدم التغيير عيب كبير، ليس استخدام الموقد أو تعلم الرقص أو معرفة بيرو هي التي تجعل حياة الإنسان أفضل، بل إنه التغيير من الجهل إلى المعرفة من التكسير إلى الثبات، من عدم الدراية إلى الدراية، إنها ممارسة القدرة على السير من الأسوأ إلى الأفضل.

في مذكراته غير العادية "أنجيلا أشز" يروي فرانك ماكورت قصة طفولة قضاها في فقر مدقع وحسرة قلب. في بداية حياته كان يفتقر إلى كل الأشياء الطيبة التي تحدثنا عنها، وعندما بلغ مرحلة المراهقة أصبح يمتلك كل شيء. هل هذه فعلاً حياة أفضل من تلك التي تبدأ طيبة وتستمر كذلك؟ من المحير أن نقول ذلك، إن هذا يعني أن نعطي أطفالنا صدمة في أحسن وقت ممكن، أن نضع أنفسنا في ظروف صعبة، هل يجب هذا؟

صحيح أنك ستكون منطلقًا كالسهم إذا حققت تطورًا غير عادي بعد أن بدأت من الحضيض لكن معظم الناس الذين يبدؤون من الحضيض يبقون كذلك. إننا يجب ألا نبحث عن مشكلات كي نتمكن من حلها. إذا كان التطور ضرورة وأنا سأقول إنه كذلك بالتأكيد فإن التطور الذي نريده هو تطور معتدل، إن ما يجب أن نتحاشاه هو الركود، أينما نبدأ لا بد أن نأمل في التطور إنه التغير العادي الذي لا يمكن الاستغناء عنه.

أمامنا الآن قائمة من الأشياء الطيبة، دعنا نعود لحظة إلى السعادة، السعادة طيبة مهما كان مصدرها كما قلت، ومن الضروري أن نحظى ببعضها، لكن ماذا لو كان مصدر كل سعادتك مصدرًا لا قيمة له؟ ماجي تعمل ممرضة في وحدة عناية مركزة لنقل إنها رئيسة الممرضات وإن لديها الكثير من الاستقلالية، إنها تؤدي عملها أداء لا تشوبه شائبة وهي معطاءة ودائمة التطوع، إنها تجيد تحمل مسؤوليتها وتتعلم وتتطور دائمًا وسعيدة، لكن العقدة هنا هي أن سعادتها تأتي من أقراص سحرية بدونها كانت ستجد عملها مرهقًا، إنها سقطت في علاقات بأشخاص يعتمدون عليها، وكرهت الحيوانات. إن الأقراص السحرية لم تساعد ماجي على أن تستقي السعادة من حياتها كما هو الحال مع مايكل ستيرون الذي ساعدته الأدوية على الشفاء من الاكتئاب ومكنته من أن يستمد السعادة من صداقاته وكتاباته. إن مصدر سعادة ماجي هو الأقراص السحرية وليس أي شيء آخر.

إن مشكلة ماجي تأخذ صورًا كثيرة في الحياة، تخيل شخصًا ينعم بأشياء كثيرة طيبة في حياته لكنه يستقي سعادته فقط من القمار، عندما يكون مع أبنائه وزوجته الجميلة لا يشعر بالسعادة إن سعادته مصدرها أنه في طريقه إلى صالة القمار (لا تظن أن هذا الرجل مدمنًا، وإلا فسنجد مشكلة في اعتباره شخصًا بلا استقلالية، لا إنه يتحكم في نفسه، ولكن القمار هو مصدر

سروره الوحيد، إن هذا في نظري آفة تمنع حياته من التطور للأفضل. إذا أقلع عن القمار وبدأ في أن يستمد الرضا من قضاء وقته مع أبنائه مثلا فإن حياته ستصير أفضل.

السعادة طيبة من أي مصدر جاءت، لكن بالإضافة إلى طلبنا للسعادة فإننا نريد لسعادتنا أن تأتي على الأقل من أشياء لها قيمة. إنه الخير الذي تفتقده ماجي شيء غريب غامض ليست هناك كلمة واحدة يمكن أن تصفه، أن تحصل عليه يجعلها سعيدة بالإضافة إلى الأشياء الطيبة في الحياة، ما نريده بجانب السعادة والأشياء الأخرى التي ناقشتها هو الصلة بين السعادة وتلك الأشياء. ليس هناك سبب لأن تكون كل قطرة من سعادتنا مقتطفة من أشياء قيمة إن هذا الإصرار هو نوع من التزمت وصلابة الرأي، ولكن أن تكون معظم سعادتنا من غير ذلك فإن هناك شيئا نفتقده.

القائمة ما زالت تفتقد أشياء رائعة؛ ماذا عن المعرفة؟ بالنسبة لأرسطو هي مهمة وحاسمة ويراها إحدى الثمار المهمة لحياة العقل. ماذا عن الصداقة والحب والانتماء؟ إنها من الأشياء الطيبة الخارجية التي يراها أرسطو ضرورية للسرور Eudaimonia. أما المعاصرون فإنهم أحيانا يضيفون للقائمة الدين وأحيانا التصرف وفقا للدين، وفي النهاية يضيف البعض اللعب الذي يشمل المرح والضحك والرياضة، البعض يضيفون الفن أو الأعمال الخلاقة بصفة عامة أو استخدام الخيال. الجزء الباقي من هذا الفصل سيناقش الأشياء الطيبة المفتقدة التي ضمنها أرسطو، أما الدين فإنه سيكون موضوع فصل قادم، ثم نترك اللعب والخيال لوقت آخر.

ليس هناك شك في أن المعرفة ضرورية لعيش حياة طيبة، الفائدة التي تحدث منها واضحة ولكنها تستحق التأكيد. فكر في أناس جاؤوا إلى هذا البلد بمساعدة بعض المهربين خدعوهم ووظفوهم خدما، أدخلوهم إلى الولايات

المتحدة مجانًا شريطة أن يدفعوا بعد ذلك جزءًا كبيرًا من أجورهم. تم هذا الاتفاق بين الطرفين على افتراضات مزيفة من أن المرور سيكون آمنًا، والعمل مريحًا، والرسوم ستدفع سريعًا، وأن أعمالاً أفضل ستتوفر في المستقبل، وأن هناك فرصًا لتحقيق الحلم الأمريكي. إن عدم معرفة الحقيقة شيء مدمر للحياة، إن الشخص المخدوع سيفقد قدرته على التحكم في مستقبله بسبب الجهل، إنه يسير في الاتجاه الخاطئ، أقل خطر سيتعرض له هو الحياة البائسة وربما يموت على مركب أو في حادث سيارة.

في كل الظروف اليومية نفقد استقلالنا إذا افتقدنا المعرفة لا بد أن نعرف الحقائق عما نأكل أو ندخن أو الأطباء الذين يعالجوننا أو الإجراءات الطبية، الأماكن التي نسافر لها، سيارتنا، طعامنا، قضاء إجازاتنا. لا بد أن نعرف الحقائق الأساسية الصحيحة. إن شخصًا يقيم حياته على أسس المعتقدات الدينية ربما يكون مضيعًا وقته، مقدمًا تضحيات كبيرة أو مشاركًا في شعارات لا معنى لها إذا كانت معتقداته الدينية زائفة، وشخصًا ينكر الذات العليا يمكن أن يسبب لنفسه متاعب نتيجة لمعتقداته.

المعرفة تسهم مساهمة إضافية غير مباشرة لأنها تعطينا سعادة، إن أفلاطون وأرسطو ومل وغيرهم يؤكدون على أهمية السرور المنبثق من الثقافة والمعرفة، الأستاذ المتعلم يجب أن يضيف جوهرة إلى كنوز معرفته. إننا جميعا يسرنا أن نكتشف أن بعض أو أسعد لحظاتنا هي عندما يقتلنا حب الاستطلاع لمعرفة شيء ثم فجأة نعرفه؛ من الذي سيكسب مباراة البيسبول؟ متى تنتهي؟ وأخيرًا نعرف وهذا إحساس جيد، من هو مدرس جوني هذا العام؟ بماذا سيحكم المحلفون؟ هل بالبراءة أم الإدانة؟ كل هذه التساؤلات نشعر بالارتياح عندما نعرف إجابتها.

إن الفوائد غير المباشرة للمعرفة تبين لماذا علينا أن نسعى لها. لكن هل المعرفة في حد ذاتها تحسن الحياة؟ إن هناك قصصًا توضح كيف أن حياة تطورت من السيئ إلى الجيد بسبب المعرفة، إن هيلين كيلر عندما تعلمت التحدث والقراءة حصلت على معرفة أكبر وأكبر بالعالم حولها، وهذا بالإضافة إلى تغيرات أخرى جعلت حياتها أفضل.

ومن ناحية أخرى فإن المعرفة الخيالية التي يحصل عليها المؤرخون والعلماء وغيرهم من المتعلمين لها علاقة غير مؤكدة بالتحسن في الحياة، في مذكرات كارين أرمسترونج التي تحمل اسم "السلالم الحلزونية" هناك قصص تراجيدية عن التحسن؛ لقد تعلمت كيف تتعامل مع مرض سبب لها الشقاء، لقد خامرها شعور بالثقة فيما هي جيدة فيه عرفت من هي وحققت كثيرًا من الاعتماد المادي على الذات وبالتالي الاستقلالية، ثم قصة حصولها على المزيد والمزيد من المعرفة مكنتها من تأليف الكتاب تلو الآخر في الدين، هل هذا التحسن في حد ذاته جعل حياتها أفضل؟ الإجابة ليست واضحة تمامًا. إن قصص الإنجازات الفكرية الثقافية تنتزع الإعجاب، تمامًا كما تفعل قصص المواهب الفنية. إنه شيء يأسر القلوب أن نقرأ عن ازدهار موهبة بوب ديلان الموسيقية في "تسجيلاته التاريخية"، أو عن تطور بيكاسو رسامًا في كثير من السير التي كتبت عنه. إن المعرفة هي التي طورت حياة كارين أرمسترونج كما فعلت الموهبة الفنية في حياة ديلان وبيكاسو وبالتأكيد فإن الفن والموسيقى ليسا ضرورتين. إن كانت المعرفة ضرورة فإنه الدراية بالعالم التي حصلت عليها هيلين كيلر رغم العوائق الكثيرة هي أيضًا ضرورة، إننا لا نحتاج جميعا لأن نشق طريقنا إلى القمم الثقافية، فقط نحتاج أن نحاول أن نغني ونرسم.

إذا كان عزف الموسيقى، الخلق الفني، الحصول على معرفة متقدمة ليست ضرورات فربما تكون كلها أشياء طيبة أساسية وتجعل الحياة طيبة. إننا نكون هكذا قد وصلنا إلى القائمة (ب) قائمة الأشياء التي تساهم في أنواع متغيرة من الخير، إنني سأعود إلى القائمة (ب) عند التحدث عن العلاقات الحميمة. بتأكيد دور الأخلاقيات فإنني قد أقمت وزنًا للأبعاد الاجتماعية للحياة الإنسانية، إن الإنسان الخلوق يدرك ويهتم برفاهية وحقوق الآخرين، لكن هل من الضروري أن ندخل فعليًا في علاقات خاصة مع الآخرين؟ إذا كان هناك أشخاص تحبهم؛ أبناءك، زوجتك، أصدقاءك، أبويك، فإنه يبدو أن تلك العلاقات ضرورية. لكن إذا امتددنا خارج نطاق تجاربنا الشخصية، كيف نستطيع أن نفكر أن الناس الذين يعيشون في عزلة يمكن أن يعيشوا حياة طيبة وربما عظيمة؟ إن العلاقات تضيف أشياء طيبة لحياتنا وأساسية، إن العلاقات ليست طيبة لسبب آخر لكن لنفسها فقط. لكن هذا نوع من الجودة له بدائل، هناك قصص حب كثيرة هي قصص حياة تطورت إلى الأحسن، لكن الحب ليس هو البعد في بعض الحالات مثل حالة كارين أرمسترونج وهيلين كيلر فكلاهما لم تحب ولم تتزوج ولم تنجب. إنه من ضيق الأفق أن نظن أن حياة يعيبها (أو يشرخها) نقص العاطفة أو العلاقة الحميمة.

لقد تحدثت عن أن حياة لا يمكن أن تسير سيرًا حسنًا بدون السعادة، الاستقلالية، والتعبير عن الذات، والأخلاقيات، والتطور، السعادة يجب أن تأتي من أشياء جيدة، إننا يجب أن نكون سعداء بالأشياء الجيدة في حياتنا، والمعرفة الأساسية والدراية ربما تكون على القائمة. أما العلاقات الحميمة فيبدو بوضوح أنها لا تنضم إلى قائمة الضرورات لكن قيمتها تحضر للمقدمة في فئة أخرى من الجيد ذلك الأساسي والنسبي ولكن مجرد المُسْهِم الاختياري والمتغير. ربما يكون الحصول على معرفة متقدمة وصناعة الفن والموسيقى جزءًا من القائمة (ب) (سنتحدث عن هذا أكثر في الفصل العاشر).

إذا كانت القائمتان صحيحتين في وجهة نظرهما فإن معنى هذا أن قصص الحياة التي تتطور إلى الأحسن ليست هي دائمًا نفس القصة، لكنها جميعًا تلتقي عند نقطة واحدة. إنني أتذكر العبارة الشهيرة التي قالتها أنا كارنينا: "إن كل العائلات السعيدة تتشابه، لكن كل أسرة غير سعيدة تكون غير سعيدة بطريقتها". إن كل أنواع الحياة الطيبة تشبه بعضها لأن لها جوهرًا مشتركًا. إنها حياة أناس ينعمون بقدر بسيط من السعادة، يديرون حياتهم، بدرجة معقولة، يتحملون مسؤولياتهم، وهكذا. أما الحياة غير الطيبة فكل غير طيبة لسبب مختلف، بعضها بسبب البؤس أو بسبب قلة الاستقلالية، أو بسبب سوء الأخلاق. وهكذا فإن قصص الحياة التي تنتقل من سيئ إلى أحسن تأخذ طرقًا مختلفة؛ إن قصة الشفاء من الاكتئاب تختلف عن قصة التحرر من العبودية، وهي ليست قصة التطور لتحمل مسؤولية الأفعال.

أقول مرة ثانية إن أنواع الحياة الطيبة تلتقي في جوهرها، هناك طرق متعددة للسعادة؛ إدارة حياتك، تحمل مسؤوليتك. إضافة لذلك متنوعات القائمة (ب) سوف نرى في الفصل العاشر ماذا سنضع في هذه القائمة، لكن إذا كانت أشياء مثل الثقافة، والإنجازات الثقافية تناسب هذه القائمة، التي تختلف من حالة لأخرى فليس من المألوف أن تتركز كل الأشياء الطيبة في القائمة (ب) في حياة واحدة وربما يكون هذا غير ممكن لأن بعض الأشياء الطيبة الاختيارية يمكن أن تكون غير متوافقة (متنافرة) مع غيرها. كما سأناقش في الفصل العاشر الاتزان، يمكن أن يضيف شيئًا للحياة ولكن هذا يمكن أن يفعل التركيز والصلابة وهذه فضائل حيوات أخرى.

إن القائمتين لهما فائدة عملية، إنهما على ما يبدو صحيحتان، إنهما يظهران أن السعادة ليست كل شيء، وأن الاستقلالية ليست كل شيء، بهاتين القائمتين كدليل لنا، يجب أن نعرف أن العيش بطريقة أخلاقية شيء نفعله

ليس فقط من أجل صالح الآخرين ولكن لأنفسنا أيضًا، إننا نعرف أننا يجب ألا نتقوقع (أو نتجه للركود) أو نقضي كل أوقاتنا نتسلى في طرق لا طائل من ورائها، أو نعيش حياتنا في مجرد تقليد لكيفية حياة الآخرين، يمكن أن نعرف أشياء كثيرة ولكن ليس كل شيء. للأسف كثيرًا ما تضعنا الحياة في مواقف تجبرنا على عمل اختيارات صعبة. إذا كانت السعادة الشخصية تأتي على حساب الأخلاقيات في بعض المواقف، لأيها تكون الأولوية إذا كان المزيد من الاستقلالية يعني نموًا أقل تطورًا؟ أقل ماذا يهم أكثر؟ هذا نوع من الأسئلة التي تأتي لاحقًا.

لكن قبل أن نأتي لقضية الاختيار فإننا سنأخذ شيئًا جوهريًا أكثر؛ إن القائمة (أ) غريبة مثيرة هل الأشياء الموضوعة على القائمة ضرورات لكل إنسان أو لكل كائن حي؟ إذا كانت ضرورات لشخص واحد فهناك سؤال آخر ماذا يجعل أي شيء جيد على القائمة ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها؟ لماذا لا يكون توافر الكثير من أحدها يسد النقص في آخر؟ الرد على هذين السؤالين سيأتي في الفصل السادس.

الفصل السادس
معضلات التنوع

هل هناك قائمة من الضرورات تحدد كيف تعيش حياة طيبة بـصرف النظر عن من أنت وأين تعيش؟ إذا كانت لديك قدرات إنسانية عاديـة أو إذا كنت معوقًا تمامًا؟ هل نفس القائمة تطبق حتى ولو كانـت الحيـوات محـل البحث غير إنسانية أو حياة حيوانات؟ إن هذا سيبدو شيئًا غير عادي ولكنـه ليس مستحيلاً. حتى نصل إلى إجابة معقولة علينا أن ننظر عن قرب أكثـر إلى تلك القائمة من الضرورات.

هل السعادة، الاستقلال، الأخلاقيات وغيرها تجعل الحياة طيبة؟ الإجابة تبدو بسيطة؛ إن خيرية تلك المكونات تؤثر في الحياة بصفة عامـة، كلمـا أضفت إلى الحياة أشياء خيرة، صارت أكثر خيرية. على الأقل هذه بداية لكن هناك طريق واحد يكون هذا التفسير فيه غير كامل، إن كان الأمـر مجـرد مكونات خيرة تؤثر في المجموع الكلي لماذا لا يمكن لمكون واحد أن يـسد العجز في مكونات أخرى؟ لماذا لا يمكن لشخص شرير أن يعـوض نقـص الأخلاقيات بأن يكون سعيدًا للغاية؟ لماذا لا يمكنا الاستغناء عن الاسـتقلالية إذا حصلنا على الكثير من التطور والنمو؟

كل شيء على قائمة الفصل السابق لا يبدو مصدرًا واحدًا للخير يمكنه زيادة الخير الكلي للحياة فحسب لكنه ضرورة. ما نريد أن نعرفه هو من أين جاءت هذه الضرورة؟ إذا عرفنا إجابة هذا السؤال سيمكننا أن نعرف إذا كان صحيحًا فعلاً أن نفس الأشياء ضرورات لكل حياة ممكن إدراكها.

هذا السؤال عاجل بالنسبة للإعاقات، إن شخصًا معوقًا سيكون محددًا في قدراته على أن يملأ حياته ببعض الأشياء الجيدة الموجودة على قائمة الفصل الخامس بسبب عيبه الفطري أو نتيجة لمرض أو إصابة. لذا نعتقد أن بعض الضرورات ليست كذلك بالنسبة له، هل هناك قوائم مختلفة من الضرورات لمختلف الأفراد، مبنية على أساس قدراتهم المختلفة وإعاقتهم؟ ما نقوله هنا سيشعر به بشدة القراء ذوو الإعاقات أو المحتاجين للرعاية أو الذين يخشون أن يصبحوا كذلك. إن هذا الشيء ربما يثير الغضب أو العكس وإن استخدام العبارة الطبية الشهيرة "خارج نطاق هذا الكتاب"، لكن الحقيقة هي أنه ليس كذلك، هل هناك قائمة واحدة للجميع أو قوائم لعديد من الحالات المختلفة اعتمادًا على الإعاقات؟ هذا السؤال يأتي في صميم الموضوع الذي أتناوله.

الفيلسوف بيتر سنجر دفع ثمنًا باهظًا لقوله بشيء خاطئ، هذا الفيلسوف هو مؤلف كثير من الكتب المهمة، والمؤثرة في الأخلاق تغطي موضوعات مثل: حقوق الحيوان، الإجهاض، القتل الرحيم cuthanasia، وواجباتنا حيال شعوب الدول النامية، لذلك لم يكن أمرًا مدهشًا عندما عرض على سنجر عمل في مركز برينستون للقيم الإنسانية في عام ١٩٩٩، ولكن هذا العرض أثار احتجاجات صاخبة من المدافعين عن حقوق المعوقين، إن هذا الرجل معروف جيدًا بين الفلاسفة بمناقشة العطف على الحيوانات، وضحايا المجاعات، والاعتراف بالمساواة بين كل الكائنات بين الفقير والغني، بين السود والبيض، بين الإنساني واللاإنساني، لكن المعوقين كانوا يتظاهرون ضده أينما ذهب. في نهاية الطبعة الثانية لكتابه الشامل "الأخلاق العملية" يصف سنجر المعاملة الجافة التي لقيها – وبصفة خاصة في ألمانيا– حيث أحاطه المتظاهرون في أثناء إلقاء محاضراته، وفي إحدى تلك المحاضرات تعالت صيحات المتظاهرين الذين اقترب أحدهم من المنصة

وكسر نظارته، ويعبر سنجر في الكتاب عن ألمه الشديد بسبب معاملته كأنـــه من النازيين الجدد، بينما هو في الواقع ضحية للنازي الأصلي حيث قتل ثلاثة من أجداده في معسكرات التعذيب. وقد تم منع ذلك الكتاب في ألمانيا.

ماذا الذي قاله سنجر عن المعاقين كي يثير كل هذه العداوة ؟ لقد قـــال إن أصحاب الإعاقات الشديدة يحتمل أن يعيشوا حياة ليست جيدة. إن نقطـــة البداية في تقييم سنجر هي فكرة أن الحياة تسير للأسوأ أو للأحسن طبقًا لهـــا وهي مشابهة لنظرية إشباع الرغبات التي ناقشناها في الفـــصل الرابـــع، إذا كنت كفيفًا أو مقعدًا أو تعاني من إعاقة ذهنية فمن المحتمل جدًا أنـــك تريـــد أشياء لا تستطيع الحصول عليها.

ربما يكون لديك رغبة محبطة في أن تمشي، أو أن تقرأ بسرعة أكثر، أو أن تنجح في وظيفة، أو أن تحصل على شريك عـــاطفي، لتكـــون أكثـــر سعادة. هذه الإحباطات في نظرية تحقيق الرغبات ذات معنى، إنهـــا تجعـــل الحياة أسوأ من حياة الناس الذين لا يعانون من إحباطات بهذا القدر.

ضايقت آراء سنجر بعض القراء، ولكن ربما ما كانت لتجتذب كل هذا الاهتمام لو لم يكن بسبب طريقة ارتباطها بالـــقتل الرحيم Euthanasia. يعتقد سنجر أن الاحتمالات القليلة لعيش حياة طيبة بالنسبة للطفل المعـــوق يمكـــن أحيانًا أن تعطي الأبوين مبررًا شرعيًا لإنهاء حياة الطفل، ويعتقد أن القانون لا يجب أن يمنعهم من ذلك؛ باختصار في حالات معينة قد يسمح بقتل الطفل المعوق شديد الإعاقة إذا كان الأمر بيديه، ليس لطيفًا أن نخطر أن إعاقتـــك بلاء لا يمكن لوم أمك إذا اختارت أن تقتلك وأنت طفل.

هذا القول تشابه مع شفقة سنجر ولكن جذور موقفه هي هناك، العطف على اللاعبين في دراما طبية غير عادية، زوجان ينتظران طفلاً، لـــم يـــتم إجراء فحص قبل الميلاد لأن الأم كانت صغيرة بدرجة لا تجعل هناك خطرًا

كبيرًا أن يكون عند الطفل مشاكل جينية. ربما يكـون طبيـب الـولادة قـد أخطرها أن هناك احتمال إجهاض، وفي اختبار الموجات الصوتية يبدو كـل شيء جيد، لكن الطفل ولد معوقًا إعاقة شديدة تجعل من الصعب إيجاد أبوين يتقبلان التبني. إن عبء تنشئة الطفل سوف يمنع الزوجين من إنجاب طفـل آخر أو على الأقل سوف يأخذ الوقت والموارد من الطفل الثـاني. الأبـوان يريدان إعطاء حقنة مميتة للطفل، إن هذا يبدو شيئًا رهيبًا وسنجر يتعاطف، إن تفضيلات الأبوين ليست خارج الحدود، لو كان لدى الطفل مشكلة عضوية تتطلب اهتمامًا عاجلاً فإن الطبيب يمكن أن يرضخ لرغبات الأبوين ويوافق على موت الطفل حتى لو كان سيتألم وهو يموت. الأفضل للطفل أن يموت. إذا كان أفضل للطفل أن يموت أليس من الأفضل أن نحقـق مـوت الطفـل بأسرع وأرحم طريقة؟

على الأقل أعتقد أننا يجب أن نشارك سنجر في تعاطفه مع الأبـوين، لكن هناك في موقفه شيء آخر أكثر من التعاطف، مناقشات معقدة بعـضها ليس مجالها هذا الكتاب. الجزء في رأي سنجر ذو الصلة بهذا الكتـاب هـو الذي يقول إن الإعاقة الشديدة تعني الحياة غير الجيدة. إذا لم يقل أكثر من هذا ربما لم يكن ليجد نفسه تحت الأضواء، لكنه كان سيستعدي الكثيرين.

من الأشخاص الذين أساء لهم سنجر سيدة تـدعى هاريـت ميكبريـد جونسون التي واجهت سنجر عندما تحدثت في جامعة شارلستون في ساوث كارولينا. كانت جونسون إحدى المتظاهرات على الكراسي المتحركة وليست أحد الناس الذين حاولوا إسكات سنجر، لقد ذهبت إلى محاضـرته وسـألت بعض الأسئلة الاعتراضية، وبعد أن أرسلت له Email، دعاها إلى برينستون حيث تحدثا طويلاً. كانت جونسون قد أقامت دعوى بسبب الإعاقة وتقـدمت بطلب للحصول على إعانة، بعد سنوات من ضعف في العضلات انتهى بها

الأمر إلى الكرسي ذي العجلات وصارت تعتمد على من يساعدونها على قضاء احتياجاتها الحياتية ولكنها لم تكن راغبة في الإقرار بأن الإعاقة تجعل الحياة سيئة حتى لو كانت إعاقة شديدة.

أما سنجر فيؤكد أن الإعاقة تسبب هذا لا أحد يستطيع أن ينكر ذلك. إذا كان الطفل المولود معوقًا له نفس المستقبل كأي طفل آخر لكان عاديًا لأي امرأة أن تتعاطى الكحوليات في أثناء الحمل، رغم وجود علاقة مؤكدة بين الكحول والإصابة بالتخلف العقلي، ولجاز استعمال الأقراص المنومة وتاليمويد thalidomide المعروفة بتسببها في التأخر. إننا نعلم جميعًا أنه من الخطأ التسبب في إصابة وليد بالإعاقات وهذا يعني صدق ما قاله سنجر من أن الحياة عادة تكون سيئة للمعوق.

إن إجابات جونسون على سنجر تستحق القراءة، لقد كتبت عن حديثها معه في مجلة نيويورك تايمز وفي كتاب لاحق. كما يذكر سنجر في كتابه "الأخلاق العملية" كثير من نقاده لم يكلفوا أنفسهم مشقة قراءته أما جونسون فقد قرأته جيدًا، لكنها لم تستجب إلى الإشارة المباشرة والتلميحات الضبابية إلى حرمة وقدسية الحياة التي يطلقها شخص ملحد مثل سنجر، لقد واجهته مباشرة.

نعم إذا كان هناك طفل قادم إلى الحياة فالأم لا يجب أن تقضي على قدراته بإرادتها، ولكن لسبب غير ما يقوله سنجر، تقول جونسون إنها يجب ألا توقف نموه لأن العالم يواجه المعوق بالخوف وعدم الارتياح والإقامة غير المريحة. إن الطفل المعوق غير ملائم ليس دستوريًا ولكن اجتماعيًا، مثلاً الطفل المعوق هو مثل الطفل القصير القامة. إذا كان شرب الكولا في أثناء الحمل سيجعل طفلك قصيرًا فمن المحتمل أنك لن تشربي الكولا لأن مجتمعنا لا يتعاطف مع قصار القامة، لكن أن يكون قصيرًا لا يقلل فرص حياة أفضل وكذلك الإعاقة.

بعض المعوقين يرون الأشياء بطريقة مختلفة؛ قبل موته تمنى الممثل كريستوفر ريف أن يستعيد قدراته التي فقدها في حادثة قاتلة بسبب ركوب الخيل، أراد أن يسير بطريقة لا تجعل الناس يحدقون فيه، أو بسبب أن المنحدرات المخصصة لسير الكراسي ذات العجلات قليلة العدد. لقد ظن أن حياته ستكون أفضل إذا استطاع المشي من جديد. إن تأييد كريستوفر ريف للبحث عن علاج لإصابات العمود الفقري لم تجعله بطلاً في نظر جونسون. في الواقع إنه خان الناس مثلها إنه يطالب بالنظر إلى العيش بالإعاقة مثل العيش حياة طيبة تمامًا.

هل هناك قائمة ضرورات لكل الناس؟ النتيجة هي حكم على حياة المعوق إعاقة شديدة مثل حكم سنجر على الرغم من البدايات المختلفة، إننا يجب أن نقول إن حياتهم لن تسير بتلك الجودة لأنهم لا يمتلكون نفس الدرجة، ربما لا يمتلكون بالمرة بعض الضرورات، بعض أنواع الإعاقة تقلل السعادة، أو تعوق مظاهر مهمة؛ الاستقلالية والنمو والتطور، أو تمحو إمكانية الأخلاقيات أو تسبب كل هذا. أما إذا كان هناك قوائم مختلفة لأناس مختلفين فإننا بذلك نتحرك تجاه جونسون. إذا كانت حياتهم يتم الحكم عليها وفقًا لمعايير مختلفة فإن الناس سيحققون نجاحات متناسبة مع قدراتهم، حتى نقرر أي طريق نسير فيه فإننا سوف ننسحب من خلاف سنجر وجونسون ونعود للسؤال الرئيسي حول الضرورة، لماذا يكون أي العناصر ضروريًا جدًا في حياة شخص بدلاً من مجرد مساهم اختياري له قيمة من نوع واحد؟

ربما تقول إن أي شيء جيد على القائمة (أ) ضرورة لأن كلاً منها رئيسي وجوهري ليعيش حياة طيبة. على أساس استثنائي جدًا، لا يوجد مثل هذا الشئ، الحياة الطيبة بدون أي منها، إن حياة خالية من السعادة إما أن تكون غير واعية وإما بائسة، محايدة أي غير طيبة على الإطلاق. إن ما يخلق

الكوميديا في مسلسل "ستار تريك" هو شخصية ذلك المدلل مستر سبوك وعدم وجود مشاعر عنده، لأن شخصًا لا يشعر بأي شيء إيجابي ليس له وجود.

إن معظم المؤمنين بالتغيير الجذري فيما يتعلق بالإعاقة ليسوا على استعداد لأن يجدوا أي خطأ في أي وجود إنساني. حتى إن كان شخصًا بلا أي وعي نتيجة لتلف الأعصاب، لا يجب الاعتقاد في أنه يعيش حياة أسوأ من أي شخص آخر. إنني أرتاب في التفكير بهذه الطريقة، هؤلاء الذين يعتقدون فيها يرتضون التفرقة لأنهم يظنون (يعتقدون) أن كل حياة لها نفس القدسية أو لأنهم يرون التفرقة شيئًا خطيرًا جدًا. إن نقاد سنجر الألمان غير راغبين في التقليل من شأن قدرات أي شخص.

لكن التجربة الواعية تبدو ضرورة مطلقة وتبدو ضروريًا أن نمتلكها بشكل إيجابي إلى حد ما، حياة بلا وعي تبدو لا تستحق أن نعيشها، وحياة خالية من المتعة تبدو على الأقل معيبة.

إذا وصفنا نفس الأهمية لكل ضرورة من الضرورات الموجودة على القائمة (أ) من الفصل الخامس ليس صعبًا أن نتصور حياة تسير سيرًا جيدًا بلا أخلاقيات، الأطفال الصغار يعيشون جانبًا من حياتهم جيدًا دون أي شعور بالخطأ والصواب. إن قصة آدم وحواء تصور زمنًا لم تكن فيه معرفة بالخير والشر ورغم هذا كانت حياة رائعة. إذا كنا نتوقع الأخلاقيات في الحياة العادية، فليس هذا لأننا لا نصدق أن أي حياة تكون طيبة بدونها. نفس الشيء يصدق على الاستقلالية والتعبير عن الذات وغيرهما من العناصر التي تمت مناقشتها.

إذن ماذا يجعل كل هذه العناصر ضرورية؟ في بعض الأماكن يناقش أرسطو وجون ستيوارت مل بعض الأشياء، يبرهنان أننا يجب أن نأمل في هذه الأشياء التي تصنع إنسانيتنا، (وكلاهما يقترح في أماكن أننا يجب أن نأمل

في ما هو افضل –سواء إنساني أو لا– وقد رأينا أن مل يدافع أحياناً عن نظرية السعادة البسيطة). إننا نعيش حياتنا أفضل إذا استطعنا أن نكمل إنسانيتنا، وبمعنى آخر أن ندرك مميزاتنا المحددة. الفكرة هي أن حياة جيدة لـ (x) هي الحياة التي فيها (x) يعمل عملاً جيدًا حتى يصبح (x) في حالة الكائن البشري، أن يصبح نوعًا جيدا من الكائن البشري.

إن القائمة (أ) يمكن إعطاؤها هذا النوع من التفسير، الأخلاقيات، الاستقلالية... إلخ، هي الأشياء التي يمكن النظر إليها على أنها محددات الإنسانية. إذا نظرنا للأشياء بهذه الطريقة، يجب أن نقول إن الحياة تشرخ إذا نقصها أحد هذه العناصر لأنها لا تصبح حياة إنسانية كاملة. إن تضمين الطريقة التي نعتقدها في العيش بلا إعاقات من السهل إدراكه.

بالتأكيد أن بعض الإعاقات لا تشكل حاجزًا مانعًا يحول دون تحقيق الأشياء على القائمة (أ). إن هاريت ماكبريد جونسون يمكن أن تعيش حياة جيدة جدًا متمتعة بكل تلك الأشياء وحتى الاستقلالية إذا كانت أكثر عناصر الاستقلالية دلالة تشمل تخطيط حياتك بنفسك، واختيار مسارك، وأن تعتمد على نفسك، لكن تخيل مراهقًا صغيرًا لديه متلازمة Down's syndrome أسميه carlos كارلوس، إن الناس الذين لديهم Down's syndrome لديهم مجال كبير من الإمكانيات ولكن سأفترض أن حالة كارلوس شديدة جدًا. إنه معوق جدًا بطريقة لا تمكنه من العيش في استقلالية، معظم اختياراته لا يختارها هو، إنه لا يفهم الأخلاقيات بالمرة. إذا لم يراقب جيدًا فإنه يسرق الأشياء الصغيرة أو يكذب، وهو يفعل هذه الأشياء دون شعور بالندم، على أي حال دعنا نفترض أنه شخص اجتماعي، ومرح ويستطيع التعلم والنمو، لكن ليس تمامًا مثل معظم الناس لهذا فإنه لن يستطيع أن يحرز معظم الأشياء الموجودة على القائمة؛ فإنه لن يستطيع أن يتحرك في اتجاه إكمال نفسه ككائن بشري، ولهذا فإننا متشائمون بشأن إمكانيات تمتعه بحياة طيبة.

إن هذا ليس مريحًا لكن هذا ليس السبب الذي من أجله ننكر هدف أن يصبح إنسانًا كاملاً، إننا يجب أن ننكره لأنه حقيقة لا يمنع تشرب شيء. إن الأشياء التي تجعلنا بشرًا ليست هي الأخلاقيات والاستقلالية، ربما تكون لمسة من البشر أكثر إنسانية من الحرص التام على ما يتنافى مع الأخلاقيات. لقد أطلق جوناثان جلوفر "الإنسانية" على كتابه الذي يتناول الفظائع الأخلاقية التي جرت في القرن العشرين ولم يطلق عليه اسم اللاإنسانية فهو على حق في هذه التسمية. في كل مكان وفي كل وقت أصبح البشر مشتركين بالقول أو بالفعل في فظائع كثيرة لا يمكن استبعاد اللاأخلاقيات. هل يجب أن نتعشم في بعض الموازنة بين الخير والشر لأن هذا سوف يجعلنا بشرًا متكاملين؟

مشكلة أخرى هي أن كلمة إنساني تغطي الملامح البيولوجية التي ليس من العقل أن تأمل فيها. في قصة "رجل المائتي العام" لإسحاق اسيموف التي تحولت إلى فيلم سينمائي لروبين ويليامز تحول الروبوت أندرو تدريجيًا حتى أصبح يشبه الإنسان. أصبح أندرو يمتلك الفكر والعاطفة كما أصبح قادرًا على الحب شديد الحساسية. وحدث أن تمكن من محو كل العلاقات السابقة التي تدل على أصله الإليكتروني. لكن كل هذا لم يكن كافيًا لأن يعترف رئيس العالم به ككائن إنساني. لقد تغير الكيان الجسدي لأندرو حتى يحقق الفناء البشري، قال له روبوت زميل: "ما قيمة ذلك يا أندرو؟ إنك مغفل" فرد عليه أندرو: "إذا كانت ستجعلني إنسانًا فإن هذا يستحق". وفقط عندما مات اعترف به الرئيس إنسانًا. كان على القارئ أن يتعجب هل هي تستحق فعلاً؟ ألم تكن حياته جيدة بالمثل (أو حتى أفضل) قبل أن يكون إنسانًا وميتًا؟).

إن المقارنة بين الإنساني واللاإنساني لا تدخل في صنع قرارتنا غالبًا. ربما أنت تحب أن تعدو وتبذل كثيرًا من الجهد لكي تكون أحسن عداء بالإمكان. فهل تتوقف إذا أشار أحدهم إليك قائلاً إن العدو ليس شيئًا إنسانيًا

خاصًا بالإنسان فقط؟ إن عدوك المدهش يجعلك تشبه الغزال أو الفهد؟ وإن هناك هوايات أخرى إنسانية تمامًا؟

وعلى الرغم من الاستخدام الشائع لكلمة "إنساني" مرادفًا لكل ما هو قيم ومصدرًا للفخر فليس واضحًا أن كوننا بشرًا "إنسانًا" هو طموح لدينا أو يجب أن يكون كذلك. إننا فقط إنسان مهما تكن قدراتنا أو إعاقتنا، مهما كنا نستعملهم أو لا نستعملهم. أن تكون إنسانًا هو هدف غريب ومحل تساؤل.

دعنا نوضح الحيرة التي أثارتها الضرورات. تخيل بالرينا تعمل بجدية لإرضاء مدير شركة متسلط يتحكم في كل حياتها، يأمرها ماذا تأكل وماذا تلبس ومع من تقضي وقتها، وتحت وصايته، تحقق تقدمًا سريعًا كراقصة، دعنا نجعل الاستقلالية الشيء الوحيد الذي ينقصها، فإنها سعيدة كدمية وهي تمتلك شعورًا قويًا بذاتيتها رغم أنها تدفع طيلة الوقت. إن دعامة الخير في حياتها تصل إلى ارتفاع مدهش رغم افتقادها للركيزة. إنها لا تمتلك ذلك النوع من الخير الذي يشمل القدرة على الاختيار: ماذا تفعل؟ أين تذهب؟ ماذا تقول؟ من تصادق؟ لماذا الإصرار على هذا النوع من الخير إذا كانت حياتها مملوءة بالأنواع الأخرى من الخير؟ لماذا تكون الاستقلالية ضرورة؟

الإجابة التي أقترحها بسيطة جدًا: البالرينا لديها القدرة على الاستقلالية وهي تكاد تفقدها نهائيًا، إن الاستقلالية شيء مهم جدًا وأساسي جدًا لا يجب إهدارها، إنها يجب ألا تهدر قدرتها على الاستقلالية، والعالم حولها يجب ألا يجبرها على إهدارها، إذا أهدرت هذه القدرة فالنتيجة ستكون جرحًا للخير كله في حياة الراقصة، لا نستطيع أن نقول إن حياتها ترتفع إلى مستوى الجودة.

هناك جوهر الصدق في نصيحة كتب مساعدة النفس عن كيفية تحقيق طاقاتنا الكامنة، وأيضا في شعار المارينز "كن كل ما تستطيع"، إذا كان هناك شيء جيد جدًا في قبضتك عليك أن تصل إليه. الأمر العاجل الملح هو أن

تبذل مجهودًا تجاه الأشياء الجيدة الممكنة لك كما أنت. وهكذا فإن الحقائق عن القدرات والإعاقات تحدث فرقًا.

هذا يحتاج بعض الإيضاح لن أذهب بعيدًا للقول إن كل الإمكانيات يجب استغلالها، الأمر العاجل هو ألا نضيع قدراتنا على الخير الكبير أن تذهب هباء. لا يمكن أن نمارس كل قدراتنا لأنها كثيرة جدًا، أيضًا يجب ألا نلتزم بالمحاولة، فإننا هكذا يمكن أن ننتقل من دروس الموسيقى إلى دروس التزحلق على الجليد إلى دروس الطهي، أي نفعل جزءًا صغيرًا من كل شيء، هكذا لا أفعل الشيء الذي يجعلني فريدًا. إذا كنت أحد القلائل الذين يستطيعون الرسم فيجب ألا أهدر موهبة الرسم، لكن هذا يجب ألا يتعارض مع التزامي تجاه الآخرين، إذا كان الفريق يحتاج شخصًا ليرسم وأنا العضو الوحيد الذي يستطيع أن يفعل ذلك يجب أن أدين بذلك للفريق، إني غير ملتزم باستعمال قدراتي التي قد تكون نادرة إلا إذا كان الشيء جيدًا لي. الفكرة أننا يجب أن نستهلك قدراتنا، تبدو أيضًا كما لو كانت تسيء تفسير الإلحاح في استعمال قدراتنا. عدم استعمال القدرات أبدًا شيء مختلف تمامًا عن الفشل في استخدام كل ذرة منها.

إن سعة الأفق وقيمة القدرة هي التي ترتب على الأقل أهمية استخدام تلك القدرة. إنني أتذكر شعار صندوق كلية الزنوج المتحدة الذي يقول: "شيء فظيع إهدار العقل"، إهدار العقل شيء فظيع، إن الشعار ليس "شيء فظيع إهدار القدرة على تعلم التفاضل والتكامل". إننا يجب ألا نوازن بين إهدار قدرات محدودة وإهدار قدرة الشخص على أن يكون سعيدًا، قادرًا على التعبير عن ذاته، وعلى الخلق، وقادرًا على التعلم. إهدار القدرة على عمل fondue شيء واحد، إهدار القدرة على إدارة حياتك شيء آخر، لكن في النهاية الفرق كبير. قيمة أكبر تعني مشكلة أكبر من إهدار المال، إن الأشياء

الجيدة في القائمة (أ) في الفصل السابق يبدو أن لها نفس القيمة من نوع خاص. إننا يجب أن نبحث عن السعادة، الاستقلالية، التعبير عن الذات وغير ذلك لأنها مجموعة عريضة من الأشياء الجيدة تغطي الكثير وهي جيدة بصفة خاصة. أما الأشياء التي أضعها على القائمة (ب) فإنها أقل قيمة. إنه ليس إهدارًا كبيرًا إن لم يتلق الطفل أدوات فنية أو تعليمًا فنيًا أو لم يصنع فنا. ولكنه إهدار كبير إذا ولد الطفل في العبودية ولم تكن له فرصة لممارسة أي سيطرة على حياته.

ربما تتفق معي في أننا يجب ألا نضيع قائمة قيمة من الأشياء الجيدة، إنني آمل أن توافق أن هذا التفكير يعضد قائمة الأشياء الضرورية، لكن الآن، دعنا نفكر في التحفظ قبل العودة إلى حياة الناس أصحاب الإعاقات. أليس هناك أشياء واسعة وشديدة القيمة لم تذكرها القائمة (أ)؟ خذ مثلاً القدرة على التناسل، إن القدرة على إنتاج كائنات بشرية شيء رائع جدًا، وعلينا أن نستفيد منها. إذا كان من الواجب استغلال إمكاناتنا الجيدة بعمق، أليس معنى ذلك أنك لن تستطيع أن تعيش حياة طيبة؟ إذا كنت تستطيع إنجاب أطفال لكنك تقرر عدم الإنجاب أليس هذا شيئًا سخيفًا لا يقبله العقل؟

السؤال الحاسم هو هل القدرة على الإنجاب جيدة جدًا لدرجة أننا يجب أن نتحدث عن إهدار طاقات إذا لم تستعمل؟ إن هذا الطريق في النظر للأشياء ليس مسلكًا خاطئًا تمامًا. عندما يموت طفل، أعتقد أن كل الطاقات التي لم تستغل تكون جزءًا من المأساة، وتكون النقطة الرئيسية (البؤرية) هي الطاقة لإنجاب الأطفال التي لم تستعمل. الشخص الذي يريد أن ينجب أطفالاً ولا يستطيع سيشعر بإحباط يتركز على الإحساس بوجود طاقة غير مستعملة. إن عدم استغلال طاقة لعمل الجيد سواء أكان صغيرًا أو كبيرًا شيء يدعو للأسف إلى درجة ما. لكن لا يمكن القول إن إنجاب الأطفال دائمًا أفضل بكثير من

عدم إنجاب الأطفال. كل له مزاياه. أن يكون لديك طفل جديد شيء رائع حقًا، لكن أن نكون بلا أطفال في هذا العالم المكتظ بالسكان يمكن أن يحدث فروقًا بسيطة لا تحصى تؤدي للأفضل إذا اتخذ هذا القرار: سيقل في المستقبل استهلاك الموارد الطبيعية، وسيقل التكدس في المدارس. كل من هذه الفوائد صغيرة ولكنها إضافة. تحسن طفيف في حياة عدد كبير من الناس عبر سنوات عديدة سيكون جيدًا تمامًا مثل خلق حياة جديدة. إنني لا أظن أن شخصًا يخلق حياة جديدة أفضل من تحسين حياة آخرين، وإننا عندما لا نملأ وقتنا بالأبوة النتيجة هي أن لدينا وقتًا لأشياء أخرى جيدة مثل الاستمتاع بزواجنا أو إنتاج فن أفضل أو العناية بالحيوانات أو التعبير عن الذات.

هل العناصر على القائمة (أ) هي كل الأشياء الجيدة الجوهرية والتي لا يجب إهدارها؟ إنني على استعداد لتقبل أشياء أخرى جيدة على القائمة ولكن الأمر الحتمي أنه سيكون هناك بعض الغموض الذي يمكن التسامح بشأنه. لا يوجد خط واضح بين الأشياء الجيدة للغاية التي لا يجوز إهدارها وبين الأشياء الجيدة فقط. وهناك بالتأكيد أشياء تقع بين الاثنين غير مؤهلة لأن تضاف إلى القائمة (أ) ولكنها أكثر خطورة من أشياء أخرى على القائمة (ب). هذا شيء يجب أن نتعايش معه، إنها ليست حسابات أو مسائل حسابية ولا يجب أن نتوقع إجابة حسابية عنها.

ماذا عن كارلوس؟ للتفكير في حياته لا بد أن نفهم ما هي الطاقات (الإمكانيات) التي يضيعها أو يستغلها وهذا يعني أننا يجب أن نعرف أي إمكانيات بدأ بها فعلاً. إن الإمكانيات الفعلية هي التي تستحق. لقد وصفته بأنه يمتلك قدرة قليلة على الاستقلالية والأخلاقيات، وهذا يعني أنه بينما نقص الاستقلالية في حياة البالرينا ترك حياتها مشروخة (معيبة) فإن نفس الشيء في حياة كارلوس شيء آخر. كانت البالرينا مكرهة على أن تهدر إمكانية

الاستقلالية، أما في حياة كارلوس فإنه لا يوجد إمكانية مهدرة، أين أخطأ شخص كان بإمكانه ممارسة مسؤوليات أخلاقية لكنه لم يستخدم هذه الإمكانية؟ لكنا لن نعتبر كارلوس قد أخطأ بسبب سقطاته الأخلاقية. هذه الأخطاء لا تترك ثغرة ولا تخلق عيبًا.

عند استخدام مستويات مختلفة لمختلف الناس فإن منظورنا سيكون نسبيًا، بمعنى واحد للكلمة. سيكون لدينا فكرة عن الحياة الجيدة لكارلوس، ولكنا لن نعود إلى ذلك النوع من النسبية التي ناقشناها في الفصل الثاني. إننا لن نتخلى عن عمل تقييمات مستقلة، إننا لن نذعن بطريقة آلية (أوتوماتيكية) لآراء الشخص الذي نحن بصدد دراسة حياته، كما أننا لن نذعن للمستويات الثقافية. الفكرة هي استخدام المستويات الصحيحة لكل شخص، المستويات المتناسبة مع إمكانيات ذلك الشخص. لمعظم الأشخاص فإن المستويات المتناسبة تكون واحدة، أما بالنسبة للأشخاص ذوي القدرات المختلفة فإن المستويات تكون مختلفة.

إن آراء مارتا نوسبوان حول هذه القضايا في كتابها "حدود العدالة" تختلف عن آرائي؛ إنها ترى أن المعنى المنفصل للإمكانيات المهمة والمحولة إلى إعاقات تكون نتيجته الحتمية زيادة التوقعات غير العادلة أو المعنى المحبط للمعوقين واعتبار أنهم ليسوا بشرًا. كما ناقشت من قبل، إنني لا أعول كثيرًا على التطلع لأن تكون إنسانًا. من الناحية الجينية نحن كلنا كذلك سواء كنا معوقين أم لا، صحيح لا يجب أن نقلل قدر أي شخص ونحن بالتحيز ضد المعوقين نفعل ذلك. ما يبدو خطرًا أكبر من ذلك هو إجبار كارلوس على أنشطة لا تعني شيئًا بالنسبة له. إذا وضعت قائمة من الضرورات واعتبرت قائمة كونية ثم وجدنا كارلوس يستحق الشفقة إذا أخفق. بينما ترى نوسبوان العزة والكرامة في مجرد الإنسانية، أرى أن العزة والكرامة في أن تفعل ما تستطيع دون اهتمام بما يستطيع الآخرون عمله.

عن هذه النقطة يبدأ النظر إلى أن ما هو متوقع من أصحاب الإعاقات تماما مثل ما هو متوقع من أي شخص آخر، لأن كل شخص يجب اعتباره في ضوء قدراته الفردية. إن نظرة سنجر التشاؤمية للعيش بإعاقة شديدة سوف تبدو خاطئة، أما نظرة جونسون التفاؤلية فسوف تبدو صحيحة. لكن الآن الخطة لا بد أن تغلظ، إذا لم يكن هناك أخلاقيات في حياة كارلوس فإن هذا لا يعني أنه يفتقد شيئًا مهمًا له. إن مجموعة الأشياء الجيدة في حياته لها الاتساع المناسب، لكنها تعني أن هناك أنواعًا قليلة من الجيد يمكن أن تضيف إلى مجموعة الخير في حياته. إذا كان هناك استقلالية أقل وتطور أقل فإن هذا يعني أن هذه الأنواع من الخير يمكن أن تضاف لهذه المجموعة، الاتساع يهم والمجموعة أيضًا تهم، إننا نحتاج كميات من الخير في حياتنا وليس الأنواع الضرورية فقط.

هل الكمية، المحدودة من الخير في حياة كارلوس تكون قليلة نتيجة لإعاقة كارلوس؟ لا، إذا أخذنا الإمكانيات العقلية الفعلية من حياة من الممكن أن يكون هناك مكان للسعادة غير المقيدة. إن الكمية التامة من الخير في حياة كارلوس يمكن أن تكون قليلة، لكن هل هذا ضمان؟ لا. في كتابها "الموت مبكرا" ترفض جونسون أن تضمن قصة حياتها نماذج كالتي يريدها الناس. إن أحد النماذج يصر على أن كل شيء للأفضل. إذا كان عندك نقص في أحد الأشياء الجيدة فسيكون عندك أكثر في جيد آخر. إن أي مشكلة هنا تحدث بسبب فائدة كبيرة هناك. إذا حصلت على شيء قليل من أحد الأشياء الجيدة فإن معنى هذا أن لديك الكثير من شيء جيد آخر. هذا شيء جائز ولكنه ليس مؤكدًا.

إنه يبدو مقبولاً أن إفراغ حياة ما من الإمكانيات أحيانًا يقلل الخير الكلي فيها، لكن ما معنى هذا؟ ماذا يعني هذا؟ ٤٨٪ من الوقت أو ٦٣٪ من الوقت.

شاب أعرفه عنده إعاقة ذهنية بسيطة، في الوقت الذي كان معظم أقرانـــه على وشك دخول الجامعة كان ستيفن يعمل في بقالة بأحد مخـــازن الأطعمـــة، شقيقه غير المعوق تزوج وكان على وشك الحصول على درجة متقدمة فـــي الرياضيات. إنني لم أقابل هذا الشقيق ولكن هل لي أن إقول أن حياته أفضل؟ لكن التحيز وعدم الاحترام يجعلنا نقول نعم. لكنا يجب أن نقاوم ذلك. ممـــا رأيت أستطيع القول إن ستيفن ينجح في المجالات ذات المعنى بالنسبة له، إن كمية الأشياء الجيدة البسيطة في حياته يمكن أن تكون كبيرة. إن إعاقته تجعله فاشلاً في بعض المجالات لكنه اجتماعي محبوب، وكل المظاهر تدل على أنه سعيد جدًا. إن أسلوبي في النظر إلى الأشياء يوقفني وأعتقد أن هذا صـــحيح أكثر من القفز إلى النتائج والقول إن هذه الحياة غير محظوظة.

صحيح أن كمية الخير في أي حياة تنخفض بسبب الإعاقات التي غالبًا نشرح لماذا نتحاشاها. وكما يشير سنجر إلى أن النـــساء الحوامـــل علـــيهن تحاشي كل ما من شأنه تقليل قدرات أبنائهن. على أطباء التوليد نصحهم ألا يشربن الخمور ما دامت تسبب الإعاقات الذهنية ومشكلات أخرى. الـــسبب ليس فقط أن الإعاقات تواجه بالتحيز، لكن لأنه على العموم الأحسن ألا يكون لدينا إعاقات. وفي نفس الوقت علينا أن نعرف أن كل حياة فردية مميزة وأن الحياة الطيبة تختلف عن بعضها أي لا توضع كلها في قالب واحد.

إذا كانت الضرورات لأي حياة فردية تختلف اعتمادًا علـــى القـــدرات والإعاقات فإننا نستطيع النظر للحياة بالإعاقات بطريق وسط بـــين ســـنجر وجونسون. يبدو أن هذا ما نريد في منظورنا لكن دعنا لا نرتاح لهذا فـــورًا فإنه ما زال هناك بعض القلق الذي يجب مواجهته.

يمكن أن يكون لديك شك مزعج لبعض الوقت. لنفـــرض أن شخـــصًا ليس لديه القدرة على الاختيار الأخلاقي، ربما يكون مخبولاً، فاقـــدًا للقـــدرة

على الندم (أيًا كان السبب)، هل تستطيع القول إن حياته طيبة مــا دام فيهــا أكوام من الأشياء الجيدة في حياته؟ إن هذا يبدو قرارًا يجب أن نتحاشاه.

يمكن أن نتحاشى هذا القرار بالقول إن الأخلاقيات ضرورة مطلقــة، لكني لم أوافق من قبل على ذلك. يمكنك أن تتحاشى هذا بــالقول إن هنــاك جوهرًا إنسانيًا يجب علينا جميعًا أن نحاول تحقيقه وإنه يشمل الأخلاقيــات، ولكني أيضا قلت عكس ذلك من قبل. هل وضعت نفسي في مــأزق؟ هــذه إمكانية مقلقة.

في الحقيقة إنني لست بصدد تقييم إيجابي لحالات حقيقية، لكــن لتلــك التي تعيش داخل افتراضات غير واقعية. إننا نتخيل حالة شخص كل حياتــه مملوءة باللاأخلاقيات ولكنها أيضًا مملوءة بأشياء جيدة، أعتقد أننا يجــب أن نفكر إن كانت هذه إمكانية واقعية، هي يمكن أن تكون كذلك إذا كانت الحالة لوولف، الوولف يستطيع أن يهاجم الأناس الأبرياء، يغش زوجتــه، يهمــل أطفاله، يخون أصدقاءها، ورغم هذا لديه كل شيء جيد متوقع في حياته لكن الحالة التي لدينا ليست لوولف، إذا ارتكب فظائع مثل تلك فإن الجماعة حوله لن تقبل هذا. سيكون مصيره السجن، يفقد استقلاليته، إنتاجيته وسعادته، بدون الجوانب الأخلاقية ستصير حياته للأسوأ.

في الحقيقة أعتقد أننا لسنا ملتصقين بتقييم إيجابي لأي حالة فعلية، لكن في الغالب تلك التي تعيش بداخل افتراضات غير حقيقية. إننا تخيلنــا حالــة الشخص المنحرف اجتماعيًا حياته مملوءة باللاأخلاقيات وأيــضًا بالأشــياء الجيدة. إننا يجب أن نبحث ما إذا كان هذا ممكنًا حقًا. إنها يمكــن أن تكــون كذلك إذا كان المنحرف اجتماعيا ذئبًا، الذئب، يمكن أن يهاجم بشراسة الناس الأبرياء، يخدع زوجته، يهمل أولاده.

ودون شك فإن إمكانية وجود شخصية مزدوجة لشخص قاتل محترف بالليل ومواطن جيد في أثناء النهار، في هذه الحالة هل يمكننا القول بأن حالته تسير سيرًا حسنًا. واضح أن هذا الشخص تهديد للآخرين ويحق لنا أن نطارده ونسجنه، لكن هل يمكن القول إنه سعيد منضبط؟ هل مثل هذا الشخص يعيش حياة طيبة بالنسبة له؟

من أجل الأمن لا يجب أن نبتلع تلك الادعاءات عن حالات الازدواجية، حتى لو لم نكتشف جرائم مثل هؤلاء الأشخاص فإن هناك احتمالاً كبيرًا أن يكون لها تأثير محطم لحياته كلها. سوف يحاول ضبط نفسه خوفًا من إلقاء القبض عليه، ثم تكون عدم قدرته على ضبط نفسه عاملاً يجعله بلا استقلالية، إن الحياة المزدوجة التي يعيشها تعرض سعادته للخطر، وأعتقد أن تصرفاته الشديدة لا تعطيه بالفعل أي متعة إلا الطاقة التي بذلها كي لا يضبط ولكي يخفي الجانب السري من شخصيته. ونتيجة لهذا فإن حياته لم تشرخ بسبب اللاأخلاقيات (لا توجد لديه أي إمكانية لأن يكون شخصًا غير هذا). إن حياته مقدر لها أن تشرخ لأنه يهدر الإمكانيات الكثيرة التي يمتلكها ولأن مجموع الخير في حياته يصير صغيرًا جدًا.

سيبدو غريبًا ألا نرى اللاأخلاقيات نقيصة في حياة الإنسان، لكن هذا هو الثمن لرؤية حياة كارلوس على تلك الصورة التي رأيناها. إننا نفترض أنه لا يمتلك القدرة على اللاأخلاقيات أيضًا. إن الشيء الصحيح الذي يجب أن يقال أو هكذا يبدو إن جرائم كارلوس المحددة لم تخلق شروخًا في حياته حتى لو كانت بسيطة. الحقيقة هي أنه ليس لديه القدرة على عمل أخلاقي، ولكن لنكون غير متضاربين لا يمكن أن نرى الجرائم الكبيرة التي يرتكبها هؤلاء على أنها تسبب شروخًا كبيرة. ليس لديه قدرة على اللاأخلاقيات. إن النقطة التي أقررها هي أن جرائمه تحطم حياته وتحرمه من فرصة الحياة الجيدة هذا هو كل ما نستطيع قوله وهذا يكفي.

إذا كانت الحياة الطيبة هي أشياء مختلفة اعتمادًا على قدرات فردية فـإن هذا يعني أن حياة جيدة ستكون بالتأكيد أشياء مختلفة في أنواع مختلفـة، دعنـا نخلص من موضوع القدرات والإعاقات الإنسانية ونعود إلى حياة الحيوانات.

لا تسخر من فكرة أن الحيوانات يمكن أن تعيش حياة جيـدة وحيـاة سيئة. إنك بالطبع لن تضبط كلبًا يجلس على مقهى ويقرأ هذا الكتاب، إنه لن يضيق بحياته لأنه فقد وظيفته أو لأن صغاره قد تركوا المنزل. إنـك أنـت الوحيد الذي يستطيع أن يتخذ قرارات يمكن أن تؤثر في الحيوان، أنت تستطيع أن تقرر ما إذا كنت توافق على أن تحفظ كلبك في كرتونة عندما تكون فـي العمل، وأنت الذي تفكر في كيفية حفظ قططك بالداخل أو بالخارج، مـا إذا كنت ستحافظ لهم على قدرتهم الإنجابية أم لا. أنت تقـرر أيـضًا إذا كنـت ستضع السمك في خزان. إن أي شخص مسؤول عن حديقة حيوان أو إدارة للحياة الطبيعية أو مزرعة حيوانات تكون لديه فكرة عن الحياة الجيدة لتلـك الحيوانات. كما أن الباحثين الطبيين يبحثون في هذه الموضـوعات عنـدما يقررون أي الأنواع تجرى عليه التجارب ما إذا كان يجب إجراء التجـارب من عدمه، وهم أيضًا يقررون ما هي المـستويات المعقولـة التـي يجـب المحافظة عليها في المعمل.

عندما ننظر إلى حياة الحيوانات، فإنني لا أعتقد أننا نكون قـد انتقلنـا لمنطقة جديدة تمامًا مرة ثانية، السعادة ضرورية لكل الأنواع، تلك الأنـواع التي تشعر فعلاً أن لا شيء له حياة ليتحدث عنها ونحن لا نستطيع أن نميز بين حياة جيدة وأخرى سيئة، إذا كانت الصراصير لا تشعر بشيء فاذهـب وقم برش حمض البوريك على عتباتك، الصراصير سوف تتـضايق جـدًا وتتسمم حتى تموت. إن البيئة التي تطور السعادة تجعل حياة الحيوانات تسير للأفضل، العصافير لا يجب أن توضع في الأقفاص التي تحرمها من الطيران

لأن سعادتها تكون في الطيران (إنني متأكدة ٩٩٪)، عندما لا نكون مدفوعين برغبتنا في أكل لحم شهي بسعر رخيص فإنه من الواضح أن حيوانات المزرعة تعيش حياتها أفضل عندما تتاح لها الفرصة للاستمتاع بالتحرك بحريتها خارج المزرعة.

في كل الأنواع، هناك إمكانية كبيرة للاستقلالية، والحيوان لا يستطيع أن يعيش حياة جيدة بدون تحقيقها إلى درجة ما. إن الخنزير لا يمكنه أن يعيش حياة جيدة محبوسًا داخل إسطبل لا يمكنه التحرك فيه، وكذلك الأمر بالنسبة لسائر الحيوانات لا الكلب ولا القط ولا الكتكوت يستطيع أي منها أن يحيا بدونها. إن الاستقلالية مهمة جدًا في حياة الحيوانات.

إننا أيضًا نقرر عنصرًا ثالثًا يهم حياة بعض الحيوانات، لقد قلت في الفصل الخامس إننا نريد أن نكون سعداء بالأشياء الجيدة في حياتنا. السعادة دائمًا جيدة ولكنها تكون جيدة أكثر عندما تأتي من مصادر جيدة وليس عندما تأتي من خلال تعاطي عقار أو من شيء تافه. لذلك فإنه من الأفضل للحيوان أن يكون سعيدًا بسبب نشاطاته الحياتية وليس لأنه يأخذ حقنًا للسعادة. أعرف أنك تفكر في أن هذا ليس شيئًا واقعيًا، ولكنه واقع بالفعل أن كلبًا محبوسًا في حظيرة لا يمكن أن تتحسن حياته بأن يعطيه الطبيب أقراص بروزاك (نعم هذا هو رأيي)، إنك لا تستطيع كلية أن تحل مشكلة تربية الخنازير التي تعيش حياة بشعة بتغييرها حتى لا تشعر بالتعاسة التي تشعربها وهي مسجونة في إسطبلات ضيقة. على الرغم من أن الجمعيات الزراعية تحاول زراعة الخنازير جينيا هكذا. نعم إنه شيء جيد أن يكون سعيدًا ولكنه من الأفضل أن تكون تلك السعادة من الشمس والاستمتاع بالطبيعة وليس بقضاء اليوم بأكمله في الظلام يمضغ الطعام على طاولة الخنازير.

التعلم والتطور هل يحدث في حياة الحيوانات؟ التطور من عدم النضوج إلى النضوج يبدو إيجابيًا للحيوانات مثلما هو للإنسان. في كل الأنواع، الصغار يتعلمون سلوكيات أساسية عن طريق ملاحظة الآباء. التدرج إلى الاعتماد على الذات يبدو إضافة لحياة الشمبانزي تمامًا كما هي بالنسبة للمراهق، ومن ناحية أخرى إنه ليس واضحًا تمامًا أن التطور المفروض من الخارج يمكن أن يحدث تغييرًا للحيوانات نفسها. إن الأشخاص الذين يكرسون سنوات وسنوات من المجهود لتعليم بعض الحيوانات لغة لا يبدو أنهم يصنعون معروفًا لتلك الحيوانات التي من الأفضل لها أن تعيش حياتها الطبيعية تستمع بالحياة البرية. ربما تجد الأسود أن التدريب على ألعاب السيرك أفضل بكثير من بقائها محبوسة داخل القفص طوال اليوم، لكن التطور الذي يحققه الأسد في هذا لا يعطيه أية ميزة على أي حيوان متوحش بري، الاستثناء الممكن هو الحيوانات التي ألفت الحياة المنزلية والعلاقة الوثيقة مع البشر.

يمكن أن يصبح الكلب حارسًا مدربًا أو أن يصبح الحصان مدربًا على السباق، أحيانًا يكون هذا شيئًا جيدًا بالنسبة للكلب والحصان.

إن التعبير عن الذات والأخلاقيات لا يبدو أن أيًا منها لها استخدام في حياة الحيوانات على الرغم من أنه يبدو أن هناك نوعًا من الأخلاق الأصيلة للحيوانات الاجتماعية، لكن هناك بعض الأشياء الجيدة التي لا تبدو ضرورية بالنسبة لنا يمكن أن تكون ضرورية للحيوانات، إن القدرة على الإنجاب لا تبدو شيئًا لا بد أن نمارسه والسبب هو أن عدم ممارسته يعطينا المقدرة على تحقق أشياء أخرى. لقد لاحظت بعض الكلاب التي تم تعقيمها فلم أجد أنها تستغل وقتها في كتابة روايات، ربما نكون مقيدين لحياة الحيوانات عندما نحرمهم من الإنجاب ولكننا لا نفعل هذا إلا لمبررات قوية، إننا نحاول تقليل أعداد الحيوانات المهملة التي لا مأوى لها.

إن الضرورات لحياة حيوانية جيدة تعتمد على الأنواع، إنها تختلف عن ضرورات الحياة الطيبة للإنسان. إننا لا نستطيع بأي منطــق أن نــشكو أن حيوانا يعيش حياة ليس فيها التعبير عن الذات أو المسؤولية فهي أشــياء لا يحتاجها الحيوان. ومن ناحية أخرى لأن هناك إمكانية أقل للأشياء الجيدة في حياة الحيوان، فإن هناك طرقًا أقل بالإضافة إلى كمية الأشياء الجيدة في حياة الحيوان، إن كل الجيد هناك سيكون السعادة الاستقلالية وهكذا. ونتيجة لذلك سيكون حجم الضرورات أقل مما يحتاجه الإنسان.

إذا كانت كمية الضرورات للحيوان أقل فإن الحال بالنسبة لمن لــديهم أي تلف أو فساد تكون كذلك وبنفس الطريق تكون السعادة في حياة الحيوان أكثر كما هي بالنسبة لمن لديه تلف (إعاقة). إنني لا أمانع في العيش ليــوم أو يومين كذئب أو طير أو أي حيوان مستمتعًا بحياة الحرية. أليس رائعًا أن نعيش الحياة الفطرية وأن تدافع عن نفسك في البرية بدلا من القيــام بعمــل طوال اليوم ثم تتقاضى مقابل هذا العمل قطعة ورقية ثم تذهب لتستبدل هــذه القطعة الورقية بمأكولات مختلفة ثم تجمعها لتصبح وجبة؟ ألا يكون الأفضل أن تأكل العشب من الغابة أو تصطاد حيوانا لتأكله في غابة بعيدة أو السباحة في عمق البحر وتأكل من خيره؟ إن معرفة الأشياء الجيدة في حياة الحيوانات لها فائدة عملية مهمة؛ إنها يمكن أن تجعلنا نفكر مــرتين فــي الــشمبانزي المصاب بالإيدز أو الحمى السيامية الذي يستخدم لإجراء التجارب عليه فــي مراكز الأبحاث ويظل محبوسًا لمراقبته عدة سنوات؛ إن هذه الحيوانات تجبر على أن تعيش حياة سيئة بينما كان في إمكانها أن تعيش حياة جيدة لو تركت على راحتها لكن هذه ليست المشكلة الوحيدة فهناك حالة الشك حول مــدى أخلاقية إجراء التجارب على تلك الحيوانات.

ربما إجراء التجارب على الفئران أكثر سهولة، ولو أن هنــاك أيــضًا شعورًا بعدم الارتياح لأنهم لا يستطيعون التعبير عن أنفسهم وهذا ما يجعلنا

نقول إن حياتهم فيها نقص لأنها تفتقر إلى الأخلاقيات والتعبير عن الـذات. ولهذا فإننا على حق عندما نقول إن كمية الجيد في حياتهم أقل. إنني أستطيع تخيل كمية أكبر من السعادة في حياة الأسد ولكن الفأر لا يعيش حياة مسلية بهذا القدر. ربما أكون مخطئة لأني أرى أن انطلاق الفأر في أماكن ضيقة ليس شيئًا مسليًا ربما يكون شيئًا رائعًا بالنسبة له.

لقد تحدثنا كثيرًا عن الضرورة، لماذا لا نستطيع الاستغناء عن قلة أحد الأشياء الجيدة بالوفرة في أشياء أخرى؟ لقد أوضحت أننا هكذا نضع جانبًا شيئًا جوهريًا مهمًا. الحقيقة هي أن الضرورات ليست بنفس الأهمية في كل حياة، اعتمادًا على القدرات. إن هذه الفكرة يمكن أن تتناسب وتتوافق مع حياة المعوقين وهي أساسية في حياة الحيوان.

ماذا يكون الوضع بالنسبة للاختلافات بين الأفراد؟ أليس لهذه الاختلافات دلالة؟ ماذا يمكن الاستفادة منه؟ وماذا يمكن الاستغناء عنه بين الأنواع والجماعات داخل الأنواع؟

هناك بالتأكيد اختلافات؛ فمثلاً لن يكون هناك مشكلة كبيرة لو أنني أهدرت قدراتي الفنية فهي ليست شيئًا غير عادي، أما إذا أهدر بيكاسو قدراته الفنية فهناك فرق كبير. إذا كان الإهدار سيئًا جدًا في حالة أشياء جوهرية مثل الاستقلالية فإنه أقل سوءًا بالنسبة لأشياء أخرى. لكن ما زالت الأشياء الجيدة التي ركزت عليها في هذا البحث ذات مكانة متميزة. تمامًا مثل الموهبة الفنية ولكنها ليست مساوية لقدرتك على إدارة شئونك الحياتية. إن الأشياء الجيدة التي نعتقد أنها يجب ألا تهدر هي أشياء لحسن الحظ موزعة بالتساوي بين البشر العاديين، أما بالنسبة للأشياء الجيدة الأخرى مثل الفن والموسيقى وما شابه ذلك فإن الكثير يمكن أن يقال عنها وستظل أساس الفصل العاشر.

ثم ننتقل الآن إلى طبيعة الاختيار؛ كيف نختار بين الأشياء الجوهرية؟ هذا سؤال مهم عندما تكون الضرورات كثيرة. يمكن أن تكون المناقشة حول قوائم وضرورات مختلفة؛ قائمة كارلوس أو قائمة بيكاسو. لكنـــي ســـأعود للقائمة الأصلية التي نوقشت في الفصل الخامس. الأشياء الرئيسية التي تشكل الضرورات لكل منا إذا كانت كل هذه الأشياء ضرورية ونحن مـــضطرون لأن يمارس أحدها على حساب الآخر فكيف نختار؟

الفصل السابع

اختيارات صعبة

إنسان محظوظ جدا يمكن أن يعيش حياة طيبة دون الاهتمام بالأشياء الأساسية التي تجعل الحياة تسير سيرًا أفضل أو أسوأ؛ القوانين، المؤسسات، العادات. والحظ الجيد تمامًا يمكن أن يبقي الحياة تسير دائمًا في الاتجاه الصحيح حتى تأتي وبدون بذل مجهود بسعادة وفيرة واستقلالية وتعبير عن الذات وكل ذلك. وحتى في ظروف غير مواتية تمامًا فإننا لا نناضل غالبًا مع الاختيارات بين الأشياء الأساسية؛ إذا كنا ممزقين بين طرق مختلفة للتقدم فإننا يحتمل أن نناضل بين مدرسة القانون ومدرسة الفن أو بين الأسرة والعمل بدلاً من أن نفكر في ضوء المنافسة بين الأشياء الجيدة الأساسية مثل الاستقلالية والتعبير عن الذات. إنها تشبه كثيرا الحيرة بين أنواع الحمية المختلفة، إنك من المحتمل أن تشعر بتمزيق بين فطيرة التفاح وكعكة الشيكولاتة، أفضل أن تقلق بين فيتامين (S) والكالسيوم. إنها تجعل الأشياء تسير سيرًا خاطئًا إلى درجة ما، أن تقع في فخ الحيرة وإنها لحيرة لشخص أن يبدأ ليفحص بدقة ماذا تقدم له اختياراته في الأمور الأساسية، ولكن هذا يحدث وإنه لأمر يستحق البحث ماذا يحدث في الاختيارات الأساسية.

بينلوب أم لثلاثة أطفال، أطفالها كبروا وأصبحوا يعتمدون على أنفسهم وبدأت تشعر بأنها لديها وقت فراغ. وبحثًا عن طريقة "للنمو" قررت أن تعود للدراسة بالكلية لتحصل على الدرجة العلمية التي تركتها منذ سنوات وقد فتحت لها الدراسة مجالات جديدة وأناسًا ممتعين ولكنها سريعًا اكتشفت أن الدراسة ضيعت وقتها ولم يعد لديها وقت كاف لتمضيه مع أطفالها كما تريد،

لم تعد مديرة جيدة للبيت حتى الأسرة لا ترتبها، كانت المشكلة في البداية هي الأعمال المنزلية والأطباق غير النظيفة ورياضاتها البدنية وأشياء دقيقة أخرى، ولكن عندما بدأت تتاضل مع المشكلة تغيرت الألوان أصبح الأمر يتعلق باستقلاليتها التي بدت مهددة بسبب عودتها للدراسة. بدأت تشعر بأنها تفقد الانضباط (الإمساك بزمام الأمور) والتطور الشخصي الذي بدأ. إن الحيرة يمكن أن تكون بسبب أشياء أخرى أيضًا؛ ماذا يجب أن تفعل حتى تعبر عن ذاتيتها؟ ماذا يجعلها أكثر سعادة؟ إذا كانت مشكلتها تبدو جد صعبة كان عليها أن تفكر فيها في ضوء كل المعطيات.

نوع آخر من الحيرة هو ذلك الذي يكون بين الأفضل أخلاقيًا والأسوأ أخلاقيًا؛ إنك تشعر بالالتزام الأخلاقي تجاه تمضية وقت أطول مع أطفالك، ولكنه شيء جيد أن تدربهم على رياضة الثلاثي الحديث triathaus. سوف يسعدك أن تشتري تليفزيونيًا كبيرًا وتدفع ثمنه مبلغًا كبيرًا من المال، لكن نفس هذا المبلغ يمكن أن ينقذ حياة كثيرين في الدول النامية، هنا تبدو الأمور محيرة. إن الأخلاقيات تفرض طريقًا آخر غير ما تقتضيه الأشياء الجيدة الأخرى. إننا لأسباب كثيرة يجب أن نبحث عن سعادتنا واستقلاليتنا وغيرها. فهي أشياء جيدة لا يجب إهدارها والسبيل إلى حياة أفضل يكون بالبحث عنها. إنك يمكن أن تقول نفس الشئ عن الأخلاقيات لكن هناك سبب إضافي لجعل الأخلاق الاختيار الأحسن، إنه ببساطة الشيء الجيد الذي يجب عمله. وهكذا عندما نكون ممزقين بين الأخلاقيات وأي شيء آخر فالأخلاقيات ربما تكون لها الأولوية، وسوف نتناول هذه الإمكانية في الفصل القادم.

أما الآن فسوف نخرج الأخلاقيات خارج القائمة، ثم ننظر إلى وضع العناصر الجيدة الأخرى في مواجهة بعضها البعض. ممزقون بين الأشياء الجيدة الأساسية المختلفة أيها نختار؟ هل الاختيارات يمكن أن تتم بموضوعية أو أنها غير موضوعية؟ إننا سنبدأ بحيرة الحياة المعاصرة ثم نعود إلى

الماضي لقرن ونصف من الزمان إلى الاختيارات الصعبة المؤلمة للعبيد الأمريكيين رجالاً ونساء الذين ما كانوا ليحققوا الاستقلالية إلا مقابل معاناة أليمة.

جون فينيس هو فيلسوف معاصر يقترح قائمة من الأشياء الجيدة الأساسية الغرض منها مختلف، إنني أناقش كيفية الحياة الطيبة أما هو فيقترح مجموعة متكاملة من الالتزامات الأخلاقية. على أي حال إن ما يقوله عن الاختيار له بعض الارتباط الوثيق.

أولاً، بعض الخلفيات الحياتية، المعرفة، اللعب، التجربة الجمالية، الصداقة، العقلانية، العملية، الدين هي في قائمة فينيس، إنه يرى أن الأمر يتعلق بالمنطق الرئيسي لرؤية القيمة الأساسية للأشياء، الخير بمعنى آخر مكتوب في الأزل.. لماذا تكون المعرفة جيدة؟ إنها هكذا، فكر فقط بعقلك وستجدها جيدة (هكذا يضعها فينيس).إن الشيء الأخلاقي الذي يجب عمله هو ما يطور مختلف الأشياء الجيدة، هناك شرط إضافي أن الشخص الأخلاقي يولي أهمية متساوية لما هو جيد لكل فرد، وكل ما هو جيد.

يقول:

> "إن الالتزامات لا بد أن تكون منسجمة ومستقرة. لا بد أن تعطي مكاناً لكل من المظاهر الرئيسية للحالة الإنسانية الجيدة. لا شيء جيد يمكن أن يقدم بهيئته بدون اشتراطات أو بلا دلالة خاصة. إن كل شيء يمارس بطريقة خلاقة وباستمرار. لا اختيار يمكن أن يكبت أي مظهر للبقاء الجيد لأي شخص".

إن الشيء الذي يتطلب مهارة خاصة هو كيف نتصرف عندما تتصارع الأشياء الجيدة الأساسية. إن كتاب فينيس يحتوي أمثلة قليلة، لكن هناك مثل مهم ومثير في استخدام قائمة الأشياء الجيدة؛ أنت ناظر مدرسة ثانوية، إحدى

تلميذاتك مسلمة من أسرة محافظة جدًا، وهي تعتنق المعتقدات الدينية لأسرتها وتلبس الحجاب من رأسها لأخمص قدمها، وفي هذا اللباس لا تستطيع أن تمارس جيدًا دروس التربية الرياضية. لا تفكر في هذا الأمر في إطار القانون الفرنسي أو القانون الأمريكي أو أي نظام قانوني آخر، لا تتخيل أن اتحاد الحريات الدينية الأمريكي (ACLU) أو منظمة العفو العام الدولية تراقب القضية عن كثب، إن ما يخصك هو أن تفعل الشيء الصحيح لا أن تبقى في إطار القانون الحالي، ماذا ستفعل إذن؟

إن دين الفتاة يجب احترامه، كما أن أهمية اللعب يجب الإقرار بها بلا شروط وبدلالة خاصة. أحد الخيارات سيكون فصل البنين عن البنات حتى تستطيع الفتاة أن تخلع العباءة وتشارك في الألعاب كافة (وهذا هو ما يحدث في بعض البلاد الإسلامية لمواجهة المشكلة)، ولكن هذا ليس حلاً عمليًا مجديًا، كما أننا يمكن أن نطلب من الفتاة أن تمارس تلك الرياضات في أوقات خاصة بها، لكن لو فشلت كل الحلول لا بد من الاختيار بين اللعب والدين: إما خلع العباءة أو أن تلعب كرة القدم أو ألا تخلعها وتجلس في المقاعد الجانبية؛ ماذا تختار؟ يقول فينيس إن كل ما تستطيع عمله هو أن تنظر إلى القيم بعدالة ثم تختار، إن هذا المفهوم في الاختيار يبرز أيضًا عند الفيلسوف الأكثر اختلافا ذلك هو جان بول سارتر الفيلسوف الفرنسي الوجودي الذي ظهر في منتصف القرن العشرين. إن فينيس كاثوليكي منغمس في تراث القانون الطبيعي لأرسطو وتوما الأكويني، القيم الأساسية له حقيقية وموضوعية وتدرك بالعقل (بالمنطق). أما سارتر الذي يتخلى عن كل هذه القيم المحترمة ولكنه يصل إلى نتيجة غير متباينة عن الاختيار، ومثاله المشهور –الوارد في كتابه الكلاسيكي "الوجودية نزعة إنسانية" الصادر عام ١٩٤٨– يتعلق بأمر شاب يشعر بالصراع إزاء الاختيار الحرج الذي يجد نفسه فيه في أثناء الحرب العالمية الثانية بين اختيارين: هل يجب عليه

الانضمام إلى المقاومة أو أن يبقى بالمنزل لرعاية أمه المريضة؟ طلب الشاب النصيحة من النظريات الأخلاقية ومن قسيسه وأخيرًا من سارتر، قال له سارتر: لا توجد إجابة موضوعية، عليك أن تخترع تبتكر.

كل من فينيس وسارتر Minimalists بشأن الاختيارات الأساسية النهائية. الاختيارات التي نعقدها بين أشياء جيدة أساسًا ولكن جيدة بطرق مختلفة؛ فمثلاً الاختيار بين ما تختار بينلوب بين التطور الذي تقدمه لها المدرسة والاستقلالية التي تستعيدها إذا تركتها، سوف ينصح فينيس بتبني توجه عادل حيال القيم، أما سارتر فسوف يقول: "ابتكر، هناك الكثير أيضًا، حاول الاختيار". هؤلاء الفلاسفة يتركون المظاهر العقلانية والحسابية للاختيارات، والعناصر العاطفية. لنعود إلى اختيار بينلوب بين الدرجة الجامعية أو البقاء في البيت: إن أفكارها ستشمل بالحتمية أكثر من مجرد التفضيل بين الاستقلال أو التطور كأشياء جيدة. قطعة معينة من الاستقلال يمكن أن تكون أفضل بقليل أو بكثير من قطعة معينة من التطور، إن بينلوب لن تختار أن تحضر دراسة تكلفها الكثير من استقلاليتها إذا كان التطور الذي سيحدث لها سيكون قليلاً. إن الشيء الجيد الذي ستفقده سيكون كثيرًا إذا قورن بالجيد الذي ستحصل عليه. إذا فكرنا بهذه الطريقة –وهو ما يجب علينا عمله– فإن فينيس سوف يعتبرنا مخطئين، إننا لا نستطيع في الواقع أن نقيم أحكاما مقارنة خاصة إذا كنا حيال أنواع مختلفة من الأشياء الجيدة.

يصر فينيس على أن المقارنة تتطلب معايير في نفس الوحدات وإننا لا نستطيع أن نضع تلك المعايير عندما نقارن قليلاً من الاستقلالية مع قليل من التطور (هذه هي القيم الموجودة على قائمتي ولكنها ليست على قائمته). إن بينلوب لا تستطيع أن تضع الاستقلالية والتطور على الميزان ثم تعلن أيهما أجود من الآخر. إن ميزانًا للجودة لا يعني أكثر من ميزان للحجم يستخدم

للمقارنة بين صخرة ثقيلة وبالونة كبيرة، كما أنه لا يمكن مقارنة وزن وحجم الصخرة بوزن وحجم البالونة كذلك لا يمكن المقارنة بين الجودة في التطور والجودة في الدراسة وبين إهدار الاستقلالية.

إن رأي فينيس يبدو صحيحًا ولكن الحقيقة أننا نعقد مقارنات بانتظام إذا كان لديك قبضة من الاستقلالية، باعتباره شيئًا جيدًا فإنك تستطيع أن تتعرف على أمثلة أكثر أو أقل دلالة، هناك عشرات ومئات من الأشياء الجيدة على الميزان ونفس الشيء بالنسبة للتطور. إن قضية بينلوب الشيء الجيد في التطور والتقدم يجب أن يقارن بالشيء الجيد في الاستقلالية. لأن القضية تشمل نوعين من الجيد المفترض أن يكون مستحيلاً استخدام الميزان الخيالي للجودة، لكن من وجهة نظرنا هو ليس مستحيلاً.

مرة أخرى يضعنا في حيرة عقد المقارنات، إن هناك الكثير من الأشياء الجيدة التي نريد مقارنتها. وليس السعادة والأخلاقيات والاستقلالية هي ما نقارن كميات منها عندما تقارن الأشياء الجيدة في أشكالها المختلفة؛ طبقا لبعض الفلاسفة مثل أفلاطون فإن هناك أشكالاً من الجيد الاعتماد على كمية الخير الموجود في كل منها ودرجته، إن مقارنة كمية الجيد في شيئين هو ملمح واحد من جغرافية الاختيار التي يتركها فينيس على الخريطة في شيئين، إنه ملمح مهم، إننا دائمًا مدفوعون للبحث في كمية الجيد الذي نحصل عليه من (أ) ونقارنه بالجيد الذي نحصل عليه من (ب) ثم نختار ما بين (أ) و(ب)، إن هذه ليست الطريقة المضمونة دائمًا فهنا قدر من الجيد وهنا قدر أكبر، ولكن هناك فرق بين كل، ما هو مقدار الجيد الذي يأتي من هذا؟ هذا هو السؤال الذي نسأل لأنفسنا قبل الاختيار. إنه عامل ضروري قبل اتخاذ القرار، على أي حال إن هدفنا ليس ببساطة أن نحصل على أكبر قدر ممكن من الجيد، كما ذكرت فإن هناك الكثير من الأشياء الجيدة التي تعتبر مكونات

ضرورية للحياة، وهذا يعني أن بينلوب عليها أن تأخذ في حسابها كمية الجيد التي تأتي من مختلف الاختيارات وأيضًا ضرورة كل نوع منها. كيف يتحد هذان الاعتباران ليسفرا عن قرار واحد؟

دعنا نفترض أن بينلوب -رغم ارتياب فينيس في عمل المقارنات- رأت أن الخير في التطور من خلال مواصلة الدراسة أقل من الجيد من الاستقلالية إذا هي توقفت عن الدراسة. إذا كان هدفها هو ببساطة أن تزيد مجموع الخير في حياتها فإنها سوف تتوقف. لكن هناك عاملاً آخر؛ إن التطور والاستقلالية ضرورتان في حياتها، إن الكمية الصغيرة من التطور يمكن أن تكون هو ما تحتاج إليه، ربما كانت ملتزمة بنظام معين لفترة طويلة من حياتها تفعل نفس الشيء عامًا بعد عام، لقد شعرت بالركود رغم أنها كانت مستقلة تمامًا وتسيطر سيطرة تامة على حياتها. ولأن هدفها ليس مجرد تحقيق أكبر قدر من الجيد ولكن تحقيق الضرورات ربما تكون قررت أن تستمر في الدراسة.

التفكير في كمية الخير التي تأتي من اختياراتنا والتفكير فيما إذا كنا قد حصلنا على ما يكفي من كل ضروراتنا هما وجهان للموضوعية والعقلانية في الاختيار، لكن هل نحن عقلانيون وموضوعيون تمامًا؟ هل علينا أن نحاول أن نكون؟ للنظر في هذا الأمر باقتراب أكثر سوف أترك موضوع بينلوب إلى أمور أخرى أكثر إثارة حيث تتجلى العاطفة أكثر.

إحدى أشهر القصص عن تجربة العبودية في أمريكا هي قصة "حياة فتاة في الرق" التي كتبتها هاريت جاكوبز قبل الحرب الأهلية مباشرة. كانت جاكوبز جارية ترزح تحت العبودية تعمل ضمن خدم طبيب في كارولينا الشمالية. مقارنة بعبيد الزراعة عاشت حياة مريحة نسبيًا كما أقرت بهذا رغم معاناتها من التحرش الجنسي من جانب مخدومها سيدها، ظلت لسنوات تتمنى الهرب.

وفي سن العشرين تركت طفليها الصغيرين عمر أكبرهما خمس سنوات والثاني عامان فقط واختبأت عند أصدقائها وبعد ذلك في منزل جدتها لأمها التي كانت حرة، كان كل أملها أن يستطيع والد الطفلين وهو محام أبيض أن يحصل على إذن بشرائهما، كان أول رد فعل من سيدها أن يعاقبها بوضع الطفلين في السجن حيث بقيا أكثر من شهرين بينما جاكوبز في مخبئها تتعذب على وضعها هل تخرج من مخبئها أم لا تخرج، وأخيرًا قررت عدم الخروج.

وفي النهاية باع السيد الطفلين لوالدهما الذي سمح ببقائهما عند جدة أمهما حيث عاشا أسفل الغرفة المظلمة التي كانت تختبئ فيها أمهما لمدة سبع سنوات لا تراهما إلا من خلال فتحة صغيرة حفرتها في حائط غرفتها لتشاهد طفليها وهما يلعبان، أما هما فلم يعرفا أبدًا أنها كانت هناك، وفي النهاية نجح الأصدقاء بمخاطرة كبيرة في مساعدتها للهرب نحو الشمال. والشيء المدهش أن الطفلين ذهبا أيضًا إلى الشمال حيث اجتمع شمل الأسرة واستطاعت أن تنفق على تعليم الابنين وساهمت هي وهما مساهمة كبيرة في قضية إلغاء العبودية.

هكذا نجح القرار في تحسين أحوال جاكوبز وابنيها ولكن لم يكن هذا النجاح متوقعًا عند هربها. من أجل فرصة صغيرة جدًا للحرية لنفسها وطفليها وضعت نفسها في بؤس شديد وتسببت في الشقاء لابنيها واتهمها كل من يعرفونها بأنها تخلت عن ولديها.

يمكنك أن تتخيل أن الإقامة في السجن المحلي لم تكن مريحة بالمرة رغم أن خال الطفلين وخالتهما كانا في نفس الزنزانة. كما أن كل من ساعدوا جاكوبز تعرضوا لخطر السجن والجلد إذا اكتشفت مساعدتهم لها. لقد فرضت جاكوبز على نفسها القدر الأكبر من المعاناة كانت تحترق من حرارة

الجو صيفا وتتجمد من برد الشتاء. كانت تتمكن أحيانا من تفصيل ملابس للأطفال وتقرأ قليلاً وتجد متنفسا في غرفة صغيرة مجاورة ولكن معاناتها كانت غير عادية.

نعم لقد كانت معاناة كبيرة لكن معاناة العبودية كانت أسوأ. إن سبع سنوات في غرفة مظلمة كانت تجربة قاسية لكنها كانت الاختيار الأفضل إذا أخذنا في الاعتبار قيمة الحرية والاستقلالية. إن الحرمان من قدر كبير من الاستقلالية كجارية وضحية للاستغلال الجنسي جعل شوقها للحرية كبيرًا أكبر بكثير إذا قارناها بغيرها من العبيد الذين كانوا يعانون من نفس الحرمان. قليل من النساء هربوا من العبودية لأنهن لم يردن ترك أبنائهن لقد فضلن أن يعطين أطفالهن السعادة والحماية الممكنتين في قربهن بدلاً من الجري وراء الاحتمالات البعيدة للحصول على الحرية. إن الاستقلالية في نظرهن لا تستحق الشقاء الذي يأتي من ورائها. إن توجه جاكوبز يتناقض بشدة مع غيرها من العبيد الذين استمروا في حياة العبودية بمحض إرادتهم.

إن العمل عند سيد طيب يمكن أن يكون اختيارًا سعيدًا بالمقارنة مع الدفاع عن النفس والمعاناة من التفرقة والعدوانية التي تصب على السود المتحررين في الشمال والجنوب أيضًا. هؤلاء العبيد ربما يكونوا قد قدروا قيمة الحرية والاستقلالية لكن ليس بنفس الدرجة التي قيمتها بهما جاكوبز. لم تكن في نظرهم تستحق كل تلك المعاناة، لقد أرادت جاكوبز الاستقلالية أكثر بكثير من معظم الناس في نفس الوضع، نعم لقد أرادتها أكثر منهم جميعا، هذا شيء والشيء الآخر أنها أرادت الكثير منها، إن بعض العبيد ربما يكونون قد شعروا أن لديهم الاستقلالية الكافية لحد أنهم قد خصصت لهم أماكن لعيشهم أو أنهم منحوا وظائف لها شيء من السلطة.

صحيح أن جاكوبز كانت قد حصلت على بعض السلطة على الخدم في منزل ابن دكتور فلينت عندما هربت لكنها لم تكتفِ بهذا القدر من الاستقلالية. لم تكن تريد فقط نوعًا ما من الاعتماد على النفس والتحكم الذاتي في حياتها، إنها أرادت أن تنعم بكل ما كان ينعم به البيض في زمانها.

كانت الحدة التي قيمت بها جاكوبز الاستقلالية عنصرًا شخصيًا وعاطفيًا في الأسلوب الذي تمت به اختياراتها، وبسبب هذا الأسلوب كان ينقصها الاتجاه المتعادل الذي يعجب فينيس. إن ميزان الأعمال الحسنة عندها كان مائلاً ناحية الاستقلالية لدرجة أن كفة الاستقلالية عندها كانت أرجح من كفة السعادة. كانت مشاعرها حيال الاستقلالية عنيفة لم تكن حالتها العقلية في حالة تعادل كانت منحازة لدرجة أنها حاربت بعنف من أجل الحرية التي كانت تقيمها تقييمًا انفعاليًا مشبوب العاطفة. كيف يجب علينا تقييم تلك التوجهات الذاتية العاطفية في الاختيار؟ هل يجب ترويضها أو تخفيفها أم الترحيب بها؟

إن هاريت جاكوبز كانت في حاجة إلى حب عنيف للاستقلالية حتى تحصل عليها من بين أنياب عالم الجنوب العنيف الشرير الغريب الذي يعارضها وإن أسلوبًا آخر يعتمد على الموازنة بين الاختيارات لم يكن بإمكانه تحقيق ما أرادت من خلال قضاء سبع سنوات في غرفة السطح، إن اللهاث وراء قيمة واحدة مقابل قيم أخرى يدفع الناس للقيام بأنشطة كثيرة جديرة بالإعجاب. بعدم التحيز لن يستطيع شخص تسلق قمة جبل عال، أو عزف الكمان ببراعة. إن الأشخاص الذين يفعلون هذه الأشياء يحبونها بدون حدود ذلك التوازن الموضوعي أو ميزان الجيد، إنهم بالحتمية يحبون أشياء أخرى أقل مما تستحق بالفعل.

إن العناصر العاطفية في الاختيار تبدو صفة مميزة لنا. وخليط الأشياء الجيدة التي تفضلها هو أحد العناصر التي تميز الشخصية الفردية وأن تكون لنا شخصيتنا الخاصة شيء جيد نحتاجه كي نعيش حياة خيرة بصفة عامة كما أوضحت في الفصل الخامس. التحيز يعني أشخاصًا مختلفين يقومون باختيارات شرعية لا تنهي التوزيع المثالي الكامل لكل الأشياء الجيدة في حياتهم. إننا نحتاج للتطور والاستقلالية لكنه شيء طيب أن نحقق المزيد من التطور مع استقلالية أقل أو مزيد من الاستقلالية وتطور أقل.

إذن هل التحيز العاطفي متساوٍ مع أو حتى أفضل من التوجه المتساوي حيال كل أنواع الجيد؟ إن فينيس مقنع عندما يتكلم عن الاختيار من خلال التزام غير متحيز لأي من الأشياء ذات القيمة. فهل نحن حقًا نريد أن نتخلى عن هذا النموذج؟

من الأهمية بمكان أن نضع نصب عقولنا الفرق بين مشكلة فينيس ومشكلتي. إن سؤاله هو كيف يعقد الاختيارات التي تؤثر في أي شخص؟ إنني أركز على اختيار هاريت جاكوبز لنفسها بنفسها. إننا سوف نتعرف على الفرق بينها وبين ناظر المدرسة الذي تكلمت عنه منذ عدة صفحات. عندما كان عليه أن يقرر ماذا يفعل حيال مشكلة للفتاة المسلمة والمشكلة التي ستواجهها الفتاة إذا سمح لها أن تحل المشكلة بنفسها لم يكن يبدو من حق الناظر أن يقر بأنه غيور على الدين ويرفض لعب الرياضة على أنه تفاهة أو استهتار ويتركها تجلس في صفوف المتفرجين. كما أنه لم يكن مخولاً لأن يقرر أن اللعب مهم وضروري وأن الدين ليس أمرًا مهمًا. أما إذا ترك للفتاة نفسها حل المشكلة فإن هذا سيكون شأنًا آخر. ربما تكون متحيزة لدينها وليست كذلك بالنسبة للألعاب الرياضية أو ربما تكون عاشقة للرياضة وتهتم بالدين اهتمامًا عابرًا، هذه المشاعر تبدو مشروعة حين اتخاذها القرار وهي

ليست كذلك بالنسبة للناظر الذي سيكون هدفه الرئيسي العدل ولـن تتـدخل المشاعر وهذا يحقق عدم التحيز للأشخاص المختلفين والقيم المختلفـة. أمـا بالنسبة للفتاة فإن هدفها لن يكون العدل بعد كل ما قيل، دعنـا نأخـذ تلـك الملاحظة، تمامًا مثلما تحب شخصًا آخر حبًا جمًا لأنه شيء جيد لـك مـن الممكن أيضًا أن تحب من أجل قيمة معينة بصرف النظر عن نفسك.

الرواية الرائعة "بقايا اليوم" للكاتب كازيو إيشيجورو هي السيرة الذاتية لرجل إنجليزي يدعى ستيفن يعمل رئيس خدم في منزل لورد دارلنجتـون، يؤدي عمله بمهنية واحترام فيفعل ما يؤمر به ولا يـسأل أسـئلة ولا يهـتم باحتياجاته الخاصة ولا مشاعره. وهذا الولاء التام لعملـه جعلـه لا يهـتم بالإشارات العاطفية التي كان يتلقاها من مديرة المنزل الجميلة ممـا دفعهـا لترك المنزل والزواج من رجل آخر. إننا نتعاطف بشدة مع ستيفن ورغم هذا يخامرنا الشعور طيلة الوقت أنه لا يهتم اهتمامًا كافيًا باستقلاليته ولذلك فشلت حياته.

في كتاب "الناس المستقلون" للكاتب هالدور لاكـزنس، كـان للفـلاح المستقل بيجارتور مشكلة مختلفة إنه كان يكافح للتمسك بمزرعته في أيسلندا في بدايات القرن العشرين، كان عنيدًا جدًا لا يقبل المساعدة من أحد، ومـن خلال سلسلة من الأحداث تسبب هذا العناد في الإضرار بعلاقته مـع ابنتـه المحبوبة، وفشلت حياته تمامًا مثل ستيفن ولكـن فـي الاتجـاه المعـاكس. إن بيجارتور أحب استقلاليته حبًا شديدا فكانت النتيجـة أن أصـبح بائـسًا غير سعيد.

إن عواطفنا تدفعنا إلى أولويات تكون بالتأكيد متطرفة جدًا. الاهتمـام الشديد بالاستقلالية يجعلنا معرضين لإمكانية أن نحصل على الكثير جدًا منها مقابل القليل جدًا من أشياء أخرى. إن العواطف المتأججة تضعنا في خطـر

الاختيار غير الحكيم حتى لأنفسنا، بالإضافة إلى هذا فإن القرار حول كيف أعيش حياتي لا يخصني فقط ولكنه يخص غيري أيضًا.

إن ستيفن يبدو كما لو كان يختار لنفسه فقط عندما يخلص الخدمة للورد ولكن لورد دارلنجتون تحول إلى التعاطف مع النازيين وهو ما جعل ستيفن يتورط في أشياء غير أخلاقية. فقد اضطر لأن يصوب النيران لصدر اثنين من الخدم اليهود. إن تعطش هاربت جاكوبز للحرية كان قرارًا يخص حياتها هي ولكنه أثر في كل من كانوا حولها. لقد صار القرار جيدًا ولكن هذا لحسن الحظ، كان من الممكن أن يموت الطفلان في السجن أو كان من الممكن أن ينتقم منها السيد ببيع الأطفال خارج الولاية وكان هناك أيضًا احتمال أن يكتشف أمر أصدقائها ويعاقبوا.

أيضًا الفتاة المسلمة التي ذكرناها آنفًا لم يكن اختيارها (إن صح وكان اختيارها) أن يتم من فراغ. إن نصيحة سارتر البسيطة للرجل الشاب "ابتكر" شريطة أن الاختيارات التي نقوم بها لا تسبب ألمًا مبرحًا. إن اختيارك لنفسك هو اختيار للجميع يقول:

"عندما يلتزم الشخص بشيء، يعلم جيدًا أنه لا يختار فقط ماذا سيكون هو ولكنه يكون في ذات الوقت مشرعًا يقرر للناس جميعًا وفي هذه اللحظة لا يمكن للرجل أن يهرب من الإحساس بالمسؤولية العميقة، بطريقته المبالغة يضع سارتر نقطة واضحة. مهما كان ما ستفعله الفتاة المسلمة، سواء لعبت الكرة وهي ترتدي الحجاب أو خلعت الحجاب أو جلست في صفوف المتفرجين، فإنها تغير –ولو قليلاً– مفهوم الفتاة المسلمة وتعطي لزملائها درسًا في هذا الموضوع".

ما علاقة هذا بالعاطفة؟ دون إمكانية قول شيء بسيط. نحن لا نحتاج لأن نطهر أنفسنا من عواطف غير عادلة حيال الأشياء المختلفة. الحاجة لأن

تكون غير منحازين ليست واضحة عندما ندير حياتنا الخاصة كما هو الحال عندما نتخذ قرارات خاصة بحياة الآخرين، إن عواطفنا تجعلنا كما نحن ولا يمكن أن تضعنا بالطبع قريبين من أي توزيع مثالي للأشياء الجيدة. ومن ناحية أخرى، من الخطأ أن نجعل العاطفة تحكمنا فإن قراراتنا لأنفسنا تؤثر في الآخرين وبالإضافة لهذا يمكن أن تؤدي إلى فشل حياتنا.

الاختيار الصحيح يشمل عناصر عقلية وحسابية وأيضًا عاطفية. إنه يستدعي نوعًا من الذكاء؛ القدرة على سبر أغوار الخير في الأشياء المختلفة والتعرف على الدور الرئيسي لمختلف أنواع الخير. ولكنه أيضًا يسمح للعاطفة. يمكننا أن نتعرف على بعض الناس على أنهم يحسنوا الاختيار، إنهم الأشخاص الذين يربطون جيدًا كل هذه العناصر الذكاء والعاطفة. أو الأشخاص الذين ليس لديهم هذه الحماسة العاطفية أو الأشخاص الذين لديهم حماسة لشيء واحد.

لحسن الحظ لسنا جميعًا معرضين لاختيارات مؤلمة كتلك التي تعرضت لها هاريت جاكوبز لكن حيرة بينلوب حول الذهاب للدراسة هي الحيرة العادية اليومية. وعمل القرار هنا هو بالتعرف على الأشياء المهمة ولا نستبعدها، نتعرف على ما نحتاجه في المرحلة الراهنة من حياتنا، وإن عمل مثل هذا الاختيار لا يستبعد وجود شوق لأشياء دون غيرها.

ماذا نقول عن شخص محظوظ يجري نحو كل الأشياء الجيدة ولا يواجه هذه الحيرة بين الأفضل والأسوأ؟ هل هو يفتقد عنصرًا مهمًا من عناصر الحياة لا يصارع بين الاختيارات؟ هل الاختيار نفسه ضرورة حياتية؟ من الغريب أن نقول نعم ومن الغريب أيضًا أن نقول لا. إن كان الاختيار ضرورة فإن الشخص المحظوظ بالأشياء الجيدة دائمًا سيكون مضطرًا للبحث عن حيرة ليجعل حياته تسير سيرًا أفضل. وهذا سيكون شيئًا غبيًا. الاختيار الصحيح دائمًا مفيد لكن ليس ضرورة.

هل الاختيار الصحيح يضيف شيئًا لحياتنا؟ إذا كان أمر كذلك، فإن الشخص المحظوظ بالأشياء الجيدة دائمًا يمكن أن يعيش حياة جيدة لكن الشخص الآخر الذي يوفق في الاختيار بذكاء وتشوق يعيش حياة أفضل إلى حد ما، ما لم يكن الاختيار مؤلمًا عمومًا. إننا نود جميعًا ألا نواجه شيئًا مؤلمًا، ولكنه من البؤس دائمًا أن نشق طريقنا لحل مشكلة عويصة. فيا أيها القارئ العزيز في محاورات أفلاطون المبكرة يجد سقراط متعته في مناقشات القيم والمداخلات البديلة للحياة. ربما تكون قارئي العزيز شخصًا يستمتع بالمصارعة من أجل قرارات صعبة ما دمت قد قرأت إلى هذا الحد في هذا الكتاب الراهن، ربما لا مدعاة للرضا عن النفس أن نقول إن الأشخاص الذين لديهم الفرص للمشاجرة مع القيم والاستمتاع بالشجار لديهم الإمكانية لعيش حياة طيبة بصفة خاصة.

الفصل الثامن

محاولة أن تكون خيرًا

الأخلاقيات مختلفة. ربما يكون لديك حماسة لدخول السباق الثلاثي (تيرياثلون) أو هكذا أتخيل، المشكلة هي أن وقت التمرين سيأخذك بعيدًا عن زوجتك وأطفالك الصغار لوقت طويل. عندما تفكر فيها، سوف تتحقق أنك تقدر مشاركتك لأن سباق تيرياثلون ممتع جدًا ويعطي شعورًا قويًا بالثقة ولذلك أنت لا تريد أن تتخلى عنه، ولكنك من الناحية الأخلاقية مضطر وملزم بأن تكون زوجًا وأبًا جيدًا، إذا فكرت في المشكلة بالأسلوب الذي شرحته في الفصل السابق فإنك ستكون في مشكلة، مثلاً إذا افترضنا أنك أرحت نفسك بالتفكير أن هناك أخلاقيات كافية في حياتك فأنت تحفظ وعودك، تسهم في أعمال خيرية، ولا تفكر في خيانة زوجتك، فهذا يكفي. هذه طريقة للتفكير تعتبر جيدة عندما يأتي إلى أشياء قيمة أخرى. ربما تكون راضيًا عما أنت فيه من سعادة وتستغني عن فرص أخرى للاستمتاع. لكن أن تقول إن الأخلاقيات في حياتك كافية فإن هذا خطأ، فإن الأخلاقيات كل لا يتجزأ ليست كالسعادة أو التعبير عن الذات أو النمو إنها شيء واضح بسيط إنها الشيء الصحيح الذي يجب عمله، إن أكبر دليل على الرغبة في عمل الشيء الصحيح هو التمسك بالأخلاقيات كأول الأولويات في كل وقت. إنك لا تحتاج لأن تذهب مذهب أرسطو والرواقيين وتعتبرها الشيء الوحيد المهم. نعم هناك أشياء أخرى جيدة ويجب متابعتها، لكن إذا كانت تتعارض مع الأخلاقيات فيجب أن تختار الأخلاقيات لأنها الأعلى جودة والأكثر ضرورة.

كيف ستكون حياتك إذا صارت الأخلاقيات على رأس أولوياتك في كل موقف خلال حياتك؟ هل ستكون حياتك طيبة؟ إذا جعلت الأخلاقيات أول أولوياتك فإنك بالطبع لن تنغمس في أعمال تتسم بالقسوة بلا مبرر. لن تستغل الآخرين من أجل مكاسب خاصة، لن تعتدي على ممتلكات الآخرين، لن تضر بالطبيعة أو تضرب الكلب. الشخص الذي يجعل الأخلاقيات على رأس أولوياته سوف يحافظ على وعوده ويقول الصدق، يكون عادلاً مع أصدقائه وموظفيه وتلاميذه، سيعبر عن امتنانه، يعتني بأبويه في شيخوختهما. أما إذا حاد يومًا عن هذه المثل فإنه سوف يفعل هذا لأسباب غير عادية ومبررات قوية. بالأخلاقيات كأولوية سوف تعطي الكثير للآخرين ولنفسك. كلما فكرت في إنفاق الأموال على الرفاهية تفكر في طريقة أفضل لإنفاق الأموال.

في مقال لها تحت عنوان "أخلاق القديسين" تصف الفيلسوفة المعاصرة سوزان وولف الناس الذين يعيشون بهذه الطريقة بالقديسين وتشير لأن حياتهم ليست عادية بالمرة. إن هذا القديس المتمسك بالأخلاق سوف ينظر إلى رفاهية أي إنسان بصرامة شديدة، وإنه سوف ينظر لنفسه على أنه ليس أكثر أهمية من الآخرين، وإلى عائلته وأصدقائه على أنهم ليسوا أكثر أهمية من الأغراب. إن درجة من عدم الانحياز مطلوبة في بعض النظريات الأخلاقية. المنظور الأخلاقي يتضمن التغلب على الاهتمامات الشخصية والروابط القوية التي تربطنا ببعض الناس أكثر من غيرهم. ومن وجهة أخرى يمكن أن ينظر البعض إلى تلك الروابط على أنها أساس للقيام بواجبات معينة مثلاً الالتزام بالاهتمام بأطفالك أكبر من الالتزام بالاهتمام بأطفال آخرين، بالنسبة لذلك القديس المتمسك بالأخلاق فإن هذه المسائل قد حسمت فهو لن يستهين أبدًا بأي مشكلة لأي إنسان إنه سوف يحاول أن يفعل الجيد للآخرين بقدر استطاعته.

إن المكان والزمان والظروف التي يعيش فيها القديس المتمسك بالأخلاقيات سوف تضع الخطوط المحددة له. لو أن شخصًا عاش في قرية صغيرة منذ ألف عام وأراد أن يفعل أشياء خيرة كثيرة فإن هذا القروي سيكون عليه أن يتجول في العالم كما فعل دون كيشوت بحثًا عن المزيد من المشاكل كي يقوم بحلها. أما في وقتنا الحالي فإن القديس المتمسك بالأخلاقيات لن يحتاج للتجوال لأنه يعيش في عالم شديد الاتصال ببعضه وسوف يمكنه الاستجابة للاحتياجات ماديًا دون أن يتجول. إنه يستطيع أن يفعل أشياء خيرة كثيرة يمكنه عمل ثروته محليًا وينفقها عالميًا، أما إذا كان يستطيع أن يعلم الآخرين أو يقدم مساعدات طبية فإنه يستطيع أن يذهب إلى المكان الذي يحتاج إلى هذه الخدمات. إن القديس الأخلاقي سيكون عاملاً دؤوبًا لا يستطيع أن يكرس بعض وقته لهواية إلا في حالة أن يكون هناك ضرورة سيكولوجية. لا مانع من لعبة من أجل الاسترخاء من وقت لآخر أما قضاء إجازة في هاواي تستنفد الوقت والمال فهذا غير مقبول، كما أن إنجاب الأطفال فليس من الحكمة في شيء، أن تخلق شيئًا سيوقفك في كل الأحوال عن فعل كل ما في وسعك من أجل الناس الآخرين. إلا إذا كان قديس الأخلاق لديه مبرر خاص لأن يكون لديه أبناء بسبب النقص في عدد السكان أو أن لديه جينات من نوعية خاصة، وفيما عدا ذلك فإن عليه ألا يكون لديه أبناء، إن هذا يبدو كما لو كان تصويرًا كاريكاتيريًا لحياة قديس الأخلاق. إن أبطالنا الأخلاقيين لا يقتربون من القديسين. الرئيس السابق جيمي كارتر -في رأيي- بطل بسبب العمل الذي قام به حول العالم من أجل السلام والديمقراطية ومحاربة الفقر، لكن كارتر لديه وقت لتأليف الرواية والشعر وأعمال النجارة. الوقت الذي يقضيه لعمل مقعد كان يمكنه بالفعل لعمل المزيد من أجل السلام ومن أجل الفقراء. أما بل جيتس مؤسس ميكروسوفت فإنه في نظري بطل أخلاقي أيضا بسبب الاستثمارات الكبيرة التي خصصها

من ماله وجهده الخاص لمواجهة المشكلات الصحية في العالم كلــه. لكــن جيتس لم يتردد في إنفاق الكثير على متعه الخاصة فهو يعــيش فـــي بيــت مساحته ١٠ آلاف قدم مربع مرصع بأحجار الجاد الثمينة وكان يمكنه أن ينقذ مئات أخرى من الأرواح أو ربما مئات الآلاف إذا لم ينفق بهذا البذخ علـــى متعه. ليس صحيحا أن جيتس و كارتر يجعلان الأخلاقيات أولى أولوياتهمـــا طيلة الوقت.

لكن هناك آخرون يقتربون أكثر من قديس الأخلاق. في كتابها "جبال خلف الجبال" ترسم تروس كيدر صورة تأسر القلب لطبيب اسمه بول فارمر متخصص في الأمراض المعدية وعلم الإنسان الطبي بجامعة هارفرد يقضي معظم السنة يعيش كأفقر الناس في هاييتي ويدير مستشفى تقدم خدمات طبية مجانية وأيضا مهتم بتقديم مبادرات صحية لصالح الفقراء في بيرو وإفريقيـــا وضحايا الأشكال الخطرة من السل المقاوم للعلاج في سجون روسيا ومعـــه آخرين منهم بل جيتس الممول المالي لمؤسسات الرعاية الـــصحية. هنـــاك اهتمام من جانب الاثنين بل جيتس وفارمر العضوين في "شركاء من أجـــل الصحة" الموجودة في كامبريدج، إن كليهما مهتم بصحة الفقراء حول العـــالم ولكن الطريقة التي يعيشان بها حياتهما مختلفة كليا.

فإن فارمر يعطي شيكاته مباشرة إلى "شركاء من أجل الصحة" التـــي تغطي مصاريفه المعيشية، إنه يعيش في كوخ مغطى بسقف من الصفيح في هاييتي مثل مرضاه، عندما يسافر يلبس نفس الملابس كل يوم. إنه مـــشغول جدا في مساعدة مرضاه الفقراء لا يستطيع أن يقضي وقتا في بـــاريس مـــع طفله وزوجته عالمة علم الإنسان. عندما يكون في باريس لا يضيع وقته في زيارة معالمها إنه لا يقضي أمسياته متفرجا على الأعمال الفنيـــة أو زيـــارة دور العرض السينمائي أو السيمفوني، إنه لا يأخذ إجازات. تقول عنه كيـــدر

في كتابها إنه أكثر من سافر ولكنه لأقل من يطلع على نشرات عن معالم البلاد التي زارها إنه لم يزر أبدًا مدينة ماتشو بيتشو في بيرو ولا البولشوي في موسكو، لقد سألته كيدر لماذا؟ فقال: "المشكلة هي أنني إذا لم أعمل بجدية تامة فإن شخصًا يمكن أن يموت وهو يجب ألا يموت". تقول كيدر إنه كان يحاول ألا يحب ابنته أكثر من أبناء الناس الآخرين. عندماه سألته كيدر: أليس من الغرور أن يفكر أي شخص في تحقيق كل هذا القدر من عدم التحيز؟ أجابها فارمر إن كل الأديان العظيمة في العالم تقول: "أحب جارك كما تحب نفسك"، الإجابة هي آسف لا أستطيع ولكن سأحاول، واستمر في المحاولة (كوما). إن كلمة (كوما) هي جزء من لغة خاصة يتحدثها فارمر مع المقربين له. وبالنسبة لكيدر فإن كلمة (كوما) تعقبها كلمة " أبله " وهي كلمة نابية ربما. لكن فارمر يقترب كثيرًا في تصوري من قديس الأخلاق. قليلون جدًا هم الذين يحتمل أن يعيشوا حياة تقترب من حياة فارمر، لكن ما زالت لحياته صلة بحياتنا، بعضنا يكافح ليكون مثله. وإذا لم نبتعد كثيرًا نشعر بالذنب ونأسف لهذا. من الجدير أن نسأل عن إمكانية أن نعيش حياة طيبة بالأخلاقيات لها الأولوية. بعض الفلاسفة يظنون أن هذا غير صحيح.

دعنا أولاً نتعرف على الشكوك القوية على اختلافاتها فيما يتعلق بهذه الفكرة؛ فردريك نيتشه فيلسوف القرن التاسع عشر كان متشككًا تمامًا في فكرة الحياة الأخلاقية، يقول: إن الأخلاقيات بإصرارها على ضبط النفس وعدم الأنانية تعتبر عائقًا لتحقيق التطور الكامل للقدرات الإنسانية. في رأي نيتشه فإن الأنواع الأرقى من الناس لديهم القدرة على عيش حياة قوية، مغامرة، خلاقة، مترفة، فردية، إيجابية. إن نيتشه يحض هؤلاء الناس "أن يعيشوا في خطر" وأن يشيدوا منازلهم في سفح بركان فيزوف ويعتبر الأخلاقيات عائقًا معرقلاً لهؤلاء.

إن نيتشه يرفض أن المعاناة يجب منعها، إنها جزء من الحياة ويجب تأكيدها. كان نيتشه يطبق ما ينصح به، كان يعاني بشدة من نوبات الصداع النصفي ومشكلات في الهضم ولكنه حاول أن يأخذ موقفًا إيجابيًا في حياته كان يتمنى أن يتقبل عيش حياته نفسها بسعادة مرات ومرات إذا دارت عجلة الأحداث وعادت كما هي عدة مرات وللأبد.

كان يبدو أحيانًا كما لو كان يعتقد أن هذا يمكن أن يحدث، أن نكرس أنفسنا لمنع المعاناة يجعلنا محل شفقة، والشفقة إهانة للمشفق عليه، إن المثل الأخلاقية التي تقول لنا أن نعيش من أجل الآخرين وأن نتحكم في أنفسنا هي علامات آثار للعيش كقطيع ماشية عليه أن يحمي نفسه من الأفراد الخطرين، إن هذه مجرد ابتكارات دون أي سلطة تخبرنا كيفية السلوك.

من هم الذين يعجب بهم نيتشه حقا؟ الفنانون، المثقفون، الناس الذين يتصفون بالبطولة في البحث عن المعرفة، هؤلاء الذين يشنون الحروب من أجل الأفكار ونتائجها، إنه يعجب بالمفكرين الأصليين، والفنانين غير التقليديين، أناس يشبهونه، وأيضًا المحاربين الحقيقيين أصحاب الرؤى الجريئة والخلاقة.

إن حياة بول فارمر تجعله من الصعب أخذ معارضة نيتشه للأخلاقيات مأخذ الجد. مهما كان ترحيب نيتشه بتحمل الصداع النصفي، فإنه من المهم منع معاناة وموت الأطفال الذين يعانون من الفقر. إن بول فارمر يبدو في الحقيقة مستمتعًا بكل الفضائل التي يدعو لها نيتشه بالإضافة إلى الإخلاص التام للأخلاقيات، إن حياته قوية، ومغامرة، وخلاقة، وايجابية، ووافرة، وفردية.

إن العيش في هاييتي الفقيرة، والتخلي عن كل المزايا التي يمنحها له كونه طبيبًا متخصصًا من جامعة هارفرد تجعله يحيا حياة خطرة، وليس

هناك شك أنه بنى بيته على ضفاف بركان فيزوف. إنه من الخطأ الشديد أن نفترض أن قديسي الأخلاق لا يمكنهم أن يمتلكوا السمات التي يجدها نيتشه جديرة بالإعجاب. ربما تكون هناك بعض الوظائف التي تمنع التطوير الكامل لكل الفضائل التي يضعها نيتشه لكن مساعدة الفقراء والمرضى ليست منهم.

أما النقد الآخر الذي آخذه مأخذ الجد أكثر ما جاء في مقالة سوزان وولت؛ إنها لا تشارك نيتشه احتقاره الأخلاقيات التقليدية ولا تقديره للمعاناة، إنها تعتقد أننا يجب أن نهتم جيدًا بمقتضيات الأخلاقيات لأنها عنصر مهم للحياة الحسنة لكن الأخلاقيات تخنق كل شيء آخر لقديس الأخلاق وهذا ما يضايق وولف أن قديس الأخلاق يلقى جانبًا أي شيء وكل شيء. إنها تعتقد أن الشخص الذي لديه عيوب هو فقط الذي يرضخ تمامًا للأخلاقيات.

إنها تعتقد أن قديس الأخلاق تنقصه العاطفة، لماذا لا نفترض أنه عاطفي فيما يتعلق بأفعاله الجيدة؟ تقول وولف إن الأخلاقيات لا تبدو شيئًا مناسبًا للعاطفة. إنك يمكن أن تحب الروايات الروسية ولعب التنس وموسيقى كلمزر، لكن الأخلاقيات ما دامت شيئًا غير مناسب للعاطفة فإن الشخص الذي يجعل الأخلاقيات أولى أولوياته ببساطة يجب ألا يحب بشدة أشياء أخرى.

تعتقد وولف أن قديس الأخلاق يجب ألا يكون قادرًا على المتع التي يشعر بها الآخرون في اهتماماتهم غير الأخلاقية. إذا كان لا يسمح لنفسه بمتع فإن هذا راجع لأن قدرته على الاستمتاع معطلة ما دام أنه دائمًا يتخلى عن الأشياء الأخرى من أجل عمل المزيد من الأشياء الجيدة، إنه لا يعرف في الحقيقة كيف يحبهم. وبمعنى آخر فإنه يبدو أن هناك نوع من المتعة لا يستطيع قديس الأخلاق ممارستها إما بطبيعته أو بالمران وهذا في اعتقاد وولف يتطلب إما النقص أو إنكار الذات الشخصية المحددة.

إن وولف تكن كل التقدير لأشخاص من قبيل بول نيومان وكاترين هيبورن. إن الأمثال يمكن أن تضلل. يبدو أنه لا توجد لديها مشكلة بالنسبة لجيمي كارتر وبل جيتس، مع كل التزامهما للقضايا الجيدة فليس لديهما أي نقص في العاطفة حيال الأشياء الأخرى. لكن ماذا عن قديس الأخلاق الحقيقي الذي لا يسمح لأي شيء آخر بالتدخل في التزامه بعمل الأشياء الجيدة، هل هذا الشخص عرضة للنقد من وولف؟

إذا كانت وولف محقة في أن حياة قديس الأخلاق لا بد أن يكون فيها نقص في العاطفة والحب والمتعة إذن سيكون من الصعب تصور أن الأشياء التي اعتبرتها ضرورات يمكن أن تكون موجودة في حياته، بدون العواطف فإنه لا يبدو أن تكون هناك سعادة أو تعبير عن الذات أو استقلالية كافية. ولكن أعتقد أن وولف جانبها الصواب فيما يتعلق بسيكولوجية الناس الجيدين جدا، إن وولف مخطئة حول غرابة أن تكون هناك عاطفة في الأخلاقيات، إن حقيقة أن هناك شيئًا جيدًا صحيحًا يحرك بعض الناس أكثر من غيرهم. هناك بعض الناس الذين يمتلؤون بالطاقة إذا ارتبطوا بأمور أخلاقية وآخرون يفضلون البقاء في المنازل لمتابعة حلقات "أنا أحب لوسي". إن العاطفة في الأخلاقيات ليست شيئًا غريبًا لكنها الحدة التي يشعر بها البعض أكثر من غيرهم عندما تكون الأخلاقيات على المحك، تمامًا كما فعلت هاريت جاكوبز وأخيرًا استمتعت بالاستقلالية بشدة (كما رأينا في الفصل السابع)، هناك بعض الناس الغيورين أكثر على الأخلاق.

إن تروس كيدر تجعل شعور بول فارمر العميق نحو الأخلاق واضحًا وأيضًا حبه وعاطفته نحو الناس الذين يساعدهم، كتبت تقول إن لدى فارمر قدرة غير عادية على تذكر التفاصيل عن كل فرد من مرضاه، عندما يتعامل معهم يعطيهم كل العناية التي ينقلها لهم، يقول لمريضه: "أنت الشخص

الوحيد في العالم الذي يهمني الآن"، إن الكثيرين منا يشعرون بهذا النوع من الحب فقط نحو أفراد عائلاتهم وأصدقائهم أو الأشخاص الذين بيننا وبينهم علاقات طويلة، لكن فارمر يختلف عن هذا فهو كباحث وخبير في الصحة العامة يأخذه عمله أحيانًا بعيدًا عن العناية بمرضاه لكنه يحن إليه ويشعر أنها تدعمه وتقويه.

إن فارمر يجد المتعة في الأعمال الخيرة لذا فإننا لا نجد سببًا لنفترض أنه يكبت قدرته على الاستمتاع أو يجتثها تمامًا أو أنه شخص ذو نفس ينقصها شيء. إن المتعة التي يشعر بها تأتي من مساعدة مرضاه وليس من الذهاب إلى المتاحف الفنية أو اللعب على الآلات الموسيقية. أما عن نقص الفردية والروح المرحة فإن هذا بعيد جدًا عن الحقيقة فإن فارمر يمتلك روح الدعابة، ذات مرة أهدته مريضة من هاييتي لبنًا موضوعًا في زجاجة قذرة فشكرها بلغة هاييتي ثم تحدث إلى كيدر باللغة الإنجليزية قائلاً: "لبن بقرة غير مبستر في زجاجة قذرة لا أستطيع الانتظار لأشربه". عندما غضبت أم من أحد أبنائها متصورة أنه استخدم السحر لقتل شقيقه الذي مات من المرض واساها فارمر ببراعة بالتأكيد على أن السحر لم يكن السبب في هذه الحالة بالذات، ثم أكد لكيدر أنه يشعر بأنه استمتع بنسبة ٨٦٪.

يمكن أن يجعل شخص الأخلاقيات أولى أولوياته ويعيش حياة رائعة، إن الاهتمام الدائم بكل ما هو أخلاقي لا يبعد بالضرورة كل الأشياء الأخرى التي تجعل الحياة طيبة مثل السعادة والتعبير عن الذات وغيرها. إن شخصًا ذا تكوين عاطفي سليم يمكنه أن يجمع بين الإخلاص المتناهي للقضايا الأخلاقية والأشياء الخيرة الأخرى كافة. لكن هل نستطيع جميعا أن نعتمد على أن حياتنا يعززها (يرفع قيمتها) الاحترام الكامل للقيم الأخلاقية؟ هل

ننظر إلى بول فارمر على أنه النموذج الذي يحتذى ونفعل كل ما في وسعنا لنقتدي به في حياتنا؟

إن بيتر سنجر يقترب كثيرًا من هذا القول في كتابه "كيف يتعين أن تعيش؟"، إننا يجب أن نجاهد (نناضل) من أجل حياة أخلاقية (مثالية) لأنها العلاج لآلامنا التي يعتقد سنجر أنها آلام شديدة أيا كانت اهتماماتنا لأن نصبح أغنياء، أو نحصل على ترقية أو إن كانت اهتماماتنا بأسرتنا، فإننا ميالون إلى الشك وإلى التساؤل وماذا بعد؟

إن هذه الاهتمامات لا تعطينا الإحساس بتحقيق الهدف، الحل إذن هو أن نكرس أنفسنا للمسائل الأخلاقية التي تجعل اهتماماتنا ليست لأنفسنا ولكن لكل الناس، إن سنجر يشير بيديه إلى هؤلاء أصحاب الحياة الفارغة ويحاول أن يشدهم تجاه الحياة بيديه مركزًا على الذات (الأقل ذاتية) والأكثر عائدًا ألا وهي حياة المصلحين الاجتماعيين، والنشطاء في مجال البيئة، والمتطوعين لصيانة السلام، والأطباء الذين يعملون في الدول النامية. إن الالتزام بقضايا أخلاقية علاج ناجح ضد الفراغ وهو لا يرى علاجًا آخر أفضل من هذا.

إن بول فارمر يعطي البرهان على أن تحقيق الذات يمكن أن يتحقق من خلال التفاني في القضايا الأخلاقية. لكن ألا يتجه سنجر إلى تعميم أكثر؟ ماذا لو لم يمتلك الشخص تكوين بول فارمر العاطفي وأجبر نفسه على أن يأخذ حياته لأي مكان؟ تخيل مرة أخرى قروي عام ١٠٠٠ تصور أنه لا يحب أي شيء أكثر من بناء الأكواخ واللعب على الماندولين وأنه وقع في الحب وتطلع لأن يحيط نفسه بأطفال صغار في كوخه (أضف إلى القصة المزيد من الأجراس والصفارات وكل ما يمليه ذوقك) ماذا سيكون وضعه إذا خرج إلى الطريق بحثًا عن المزيد والمزيد من الفرص لعمل الخير؟ على الرغم من أنه ربما يكون قادرًا عقليًا على رؤية مشاكل الناس كما هي مثل مشاكله

تمامًا فإنه ربما لا يكون لديه الاستعداد العاطفي الصحيح الذي يبني عليه الاهتمام الكوني إذا حاول وسيبدو في النهاية كبيت بسيط مربع الشكل يحاول أن يحمل قبة ذهبية ضخمة.

إن قديس الأخلاق في هذا الزمان ليس بالضرورة فاعل خير متجول، ليس عليه حتميًا إن يقتلع نفسه ماديًا (جسمانيًا)، لكن اهتمامه سوف يتشتت مرات ومرات، فما إن يستقر في مشروع ما ويعرض فكره عما يجب عمله حتى يجد نفسه مطلوبًا لعمل آخر، إنه يتحاشى روابط الحب والصداقة والأسرة والذرية، إنه لا يستطيع أن يسعد بالمساعدة إذا لم يحب الغرباء كما يحب أباه أو زوجته أو صديقه أو طفله. إذا كان يفضل أن يشاهد الأفلام أو يبني عشه الخاص فإن الأخلاقيات ستكون في النهاية الشيء الوحيد الجيد في حياته، لن يكون سعيدًا أو معبرًا عن ذاته لن يدير أمور حياته الخاصة ولكنه يفضل عليها مثلاً معينة.

هذا النموذج رسمه نيك هوربني في روايته " كيف تكون خيرا؟ " في شخصية دافيد وهو ساخر يرغب في أن يكون روائيًا وكاتبًا لعمود صحفي بعنوان "أكثر الرجال غضبًا في هوليوات"، وفيه يتحدث بشدة وغضب عن كل التفاصيل الصغيرة، وعندما تمل زوجته الطبيعية وتهدده بطلب الطلاق يتحول فورًا إلى نفس الحياة التي يصفها بيتر سنجر، إنه يأمل في شيء أبعد من الخليط التقليدي الخاص بزوجته وهو الإيثار والغيرية، إنه يريد أن يعطي كل شيء لا تحتاجه زوجته وطفلاه لأنفسهم. أما الحجرة الإضافية فإنه يعطيها لرجل لا مأوى له ويعطي الكمبيوتر الزائد عن حاجة طفليه إلى ملجأ وأيضًا تخلى عن الشواء الذي يقدم في كل يوم. إنه يريد أن يعامل كل شخص باهتمام خاص لا يفرق بين نفسه والآخرين ولا أسرته والغرباء. لم يكن توجهه الجديد أفضل لعلاقته الزوجية من القديم، ولكن يبدأ قلبه في الحنين

بعد شهور قليلة، وفي نفس الوقت لم يتخل عن نظامه لأنه لم ير فيه أي شيء سيئ لكن زوجته لا تدعمه، إن دافيد ببساطة ليس بول فارمر.

إن وصفة سنجر ليست علاجًا مؤكدًا، إن الإخلاص لقضية أخلاقية سامية يحقق الرضا للبعض وليس للجميع فهل لا توجد حلول أخرى ممكنة؟ الحقيقة أن الشخص غير المؤهل لأن يكون من قديسي الأخلاق لديه طرق أخرى لزيادة الرضا. في البانوراما التي يرسمها سنجر للمجتمع الحديث هناك أشخاص غير مرئيين لا يركزون على النجاح المادي ولا القضايا الأخلاقية إنهم يعملون باجتهاد ليكونوا موسيقيين أو كتابًا أو مؤرخين أو رياضيين، يسعون لتحقيق أرقامًا قياسية أو يتسلقون قمم الجبال، أو يسافرون حول العالم أو يعتنون بوالد مريض أو طفل معوق، إنهم يقومون بخدمات مطلوبة، إنهم محامون أو أطباء أو محاسبون يقومون بكل هذا في خيرية ثرية. هذه الأنشطة ليست بالتأكيد سيئة أخلاقيًا ولكنها ليست قدسية لكنها تحقق الرضا للبعض أيًا كان مصدر الرضا، فإنه يبدو أن هناك أرضية مشتركة بين كل الأنشطة التي تحقق الرضا العميق، إن المتطوع الباحث عن السلام الذي يكرس نفسه لقضية أخلاقية سامية؛ الشاعر ومتسلق الجبال والأم والتي تقوم بدور الأم بينهم شيء مشترك أنهم يركزون على شيء خارج الذات، شيء مهم جدًا، إن لديهم جميعا الإحساس بأنهم يفعلون شيئًا يستحق، ربما يكون هذا هو السبب في أنهم جميعا يشعرون أنهم يؤدون هذه الأنشطة المختلفة بعاطفة حقيقية.

يقول سنجر إن هؤلاء الناس يكتسبون الشعور بأن لهم هدفًا من خلال الانغماس في قضايا أخلاقية. إن الشخص الذي يساعد الآخرين هو الأقل عرضة للاستيقاظ في منتصف الليل متسائلاً ما هو الهدف وما هي الدلائل؟ نعم إن متسلق الجبال يمكن أن يتعجب لماذا يبذل كل هذا الجهد في محاولة

الوصول لقمة الجبل، والأم يمكن أن يخامرها اليأس من أن ابنها سيكبر يومًا ولن يحتاج إليها بهذا الشكل. لكن هذه الشكوك يمكن أن تنشأ في أي حياة. حتى بول فارمر نفسه ربما شعر بها لو سمحت طبيعته إذا أطال التفكير فيما يفعل إذا قال لنفسه إذا شفيت مريضًا فإنه سيعود لمواجهة الفقر والعنف وربما المرض من جديد، إن هناك الملايين من المرضى الذين لا أساعدهم، فما الهدف؟

بالنسبة للبعض فإن إعطاء الأولوية للأخلاقيات طيلة الوقت هو الطريق للحصول على كل الأشياء الخيرة الأخرى في الحياة. أما الآخرون فيرون أن هناك طرقًا أخرى يمكن الاعتماد عليها. حتى على افتراض أن الأخلاقيات هي أحد الأشياء القيمة التي تجعل حياتي خيرة فإن الأخلاقيات المتفوقة الدائمة المشحونة هي شيء آخر، إنها يمكن أن تنتعش في مثل هذه الحياة ويمكن ألا يحدث ذلك.

الإجابة عن التساؤل هل الأخلاقيات تجعل الحياة تسير للأفضل؟ هي نعم أحيانًا، ولا أحيانًا، السؤال الآن عن أولوية الأخلاق أصبح عاجلاً، إذا كنت تشبه أكثر شخصية نيك هورنبي المشروخة (المعيبة) من بول فارمر ولا يملؤك كل سلوك أخلاقي بالرضا فماذا تفعل؟ هل تتخلى عن الأخلاقيات الكاملة أو تتمسك بها رغم العائد الشخصي المحدود؟ هل علينا أن نفعل الشيء الأخلاقي بصرف النظر عن فائدته لنا أو تكاليفه التي نتحملها؟

في بعض المواقف نعم، هناك أوقات تتطلب الأخلاقيات من الإنسان أن يضحي بحياته. محاربو النيران الذين اندفعوا نحو مركز التجارة العالمي في ١١ سبتمبر كانوا يفعلون ما يجب عليهم. إن شجاعة هؤلاء الأبطال تبدو كما لو كانت ترفعهم لأعلى درجات الامتياز، وبالتأكيد فليس صحيحًا أن الموت يقوض حياة الإنسان. عندما قرر سقراط أن يشرب السم لا يبدو أنه فعل شيئًا

يجعل حياته أسوأ بل بالعكس، إن سقراط عاش ٧٠ سنة ثرية جدًا عندما مات جعلته شجاعته في النهاية شهيدًا من أجل قضية الفلسفة. لقد أثرى موته حياته لكن سقراط حالة استثنائية لا تنطبق على كل الناس فالشخص الذي يفقد حياته يفقد سنوات جيدة ولا يترك علامة في الذاكرة أو في كتب التاريخ.

إذا كان ضروريًا ألا نجعل حياتنا تسير للأسوأ حتى المخاطرة بالموت أحيانًا يكون صحيحًا، أن نضع الأخلاقيات قبل المصلحة الذاتية بطرق أقل صرامة. إن عمل الأشياء الصحيحة أحيانًا يأخذ الصدارة، أما ما يجعل حياتي تسير للأحسن يكون أحيانًا شيئًا ثانويًا. هناك أشياء يجب عليّ عملها. كثيرون منا يفضلون الاعتقاد أن الأخلاقيات ليست إجبارية. إن مقاوم النيران يكون في وضع يجعل التضحية ضرورية ولكن عندما نكون أمام شراء سيارة أو قضاء إجازة فإن التضحية لا تكون مطلوبة لمجرد أن شخصًا في مكان ما يحتاج مساعدتنا. هل يمكننا تبرير اختيار المسلك الأقل أخلاقية أحيانًا؟

إن ما نريد قوله هو أن الأخلاقيات تكون أحيانًا ضرورة لا يمكن إنكارها وأحيانًا لا تكون، هذا الشاب عازف الماندولين من عام ١٠٠٠ كان عليه أن يمتنع عن قتل رئيس القرية. عندما رأى أن قتله خطأ أخلاقي لا يستطيع أن يبدأ في التفكير في عمل هذا من أجل مصالح ذاتية. إن الأخلاقيات ضرورية في هذه الحالة لكن إذا لم يشأ الاندفاع لمساعدة الناس الذين يموتون جميعًا على بعد مئات الأميال فإن هذا صحيح، كان هذا أفضل ولكن لم يكن عليه أن يفعل. هل هناك تبريرات لهذه التفرقة؟

الأول: يبدو أن هناك محاذير للإقدام على عمل ما، ومحاذير أقل ضد عمله، الأخلاقيات تمنع وبشدة الإقدام على خنق رئيس القرية، أما إذا كنت جالسًا تعزف على الماندولين تفكر في شؤونك فقط فإن الأخلاقيات لا تتطلب منك أن تنهض لمساعدة ضحايا المجاعة على بعد مئات الأميال. حسنًا يفعل

القروي إذا رغب في الذهاب والمساعدة، أما إذا كان له خطط خاصة به فإن هذا حسن. إن ترك الأشياء السيئة تحدث ليس مشابهًا للإقدام على عمل الأشياء السيئة.

إن هناك أدبيات كثيرة عن مثل هذه الأمور، لكن هناك مثال سريع معاكس يوضح المعنى. إذا لمح القروي طفلاً يغرق أمام عينيه، يكون عليه أن يسارع لإنقاذه، أما إذا وقف متكاسلاً وترك الطفل ليغرق فهنا شيء سيئ جدًا بسبب السلبية. بالتأكيد إن الذي يقف كالمتفرج سيكون شبيهًا تمامًا للشخص الذي يدفع الطفل إلى الماء ليغرقه.

الثاني: الأخلاقيات تتطلب من القروي أن يمتنع عن قتل زعيم القرية لأن هكذا يبدو كما لو كان قتل زعيم القرية هو هدفه وهو هدف غير مسموح به. إنه شيء مختلف عن امتناعه عن الذهاب لمساعدة ضحايا المجاعة على بعد مئات الأميال. المساعدة جيدة ولكنها ليست مطلوبة، لأنه إذا كان لم يذهب فلن يكون معنى هذا أنه يريد موت الضحايا. وهناك أيضًا أدبيات كثيرة حول هذه الطريقة في التفكير، النقاد يرون أنه من الغريب التوقف كثيرًا على سلامة تفكير القروي كما لو كان ما يهم الوقوف عنده حقا هو الأفكار التي دخلت إلى رأسه أو لم تدخل.

الثالث: الفصل بين مسؤولية القروي عن شيء وعدم مسؤوليته عن شيء آخر. إذا كان قد وقف بجوار زعيم القرية والفأس في يده تكون سلامة الزعيم مسؤولية يجب عليه أن يكف عنها ويمنع الضرر. أما الناس على بعد مئات الأميال فليس مسؤوليته أن يذهب ليساعدهم أو لا يذهب هذا هو اختياره.

هذه الطريقة الأخيرة في التفكير هي ما يلجأ له الكثيرون منـــا عنـــدما نفرق بين ما يجب علينا عمله وما لا يجب ولكنه عمل جدير بالإعجـــاب. إذا كان عندي أطفال فإنني مسؤولة عن الاهتمام بهم، هناك أشياء يجـــب علـــيّ عملها من أجلهم، أمر أخلاقي آخر هو عندما أعطي وعدًا فإنني أكون مسؤولاً عن الوفاء به وغير ذلك من الأشياء المشابهة. إذا كنت مسؤولاً عـــن وضـــع درجات فإن الدرجات العادلة هي مسؤوليتي وعملي. إنني مسؤول عن نتـــائج أعمالي السابقة، طفل يغرق أمامي هو مسئوليتي. إذا فكرنا بهذا الشكل فإننا لن نستطيع أن ننكر أي شيء يحدث سواء في بلاد بعيدة أو حتى غير مرئية. إذا كنت أشتري أحذية نايك فإنه من الأفضل أن أفكر في أحوال وشروط العمـــل في المصنع الصيني حيث تتم صناعتها. إذا كنت آكل هامبورجر فإن ما يحدث في المجزرة هو مسؤوليتي. لكن الكثير من مشكلات العالم ليست مـــسؤوليتي؛ أزمة الإيدز في إفريقيا، البركان على حدود الهنـــد والـــصين عـــام ٢٠٠٩، صراعات الشرق الأوسط التي لا تنتهي. لكن هناك أسبابًا كثيرة تجعلنا نقلـــق من أجل هذه الكوارث، إنني أريد لذريتي عالمًا صالحًا ليعيشوا فيه، إنني أعلم أنه أفضل لي أن أعيش في عالم لا تقوض استقراره الأمراض والكوارث، لكن الباعث الأخلاقي أضعف، إن الاستجابة إلى هذه الأشـــياء لا تمنـــع القلاقـــل الأخرى، إنني أستطيع أن أجعل حياتي تتناسب (تتماشى) مع هذه الأشياء بدلاً من أن أفعل (أبذل) جهدًا لإزالة كل هذه الأشياء.

إن كنا راغبين في نقد أنفسنا وأننا لا نتوخى فقط العقلانية فهل سنصف الافتراض الثالث؟ من المؤكد أنه يبدو صحيحًا أننا جميعا لدينا دوائـــر مـــن المسؤولية ولدينا أيضًا التزامات خاصة داخل تلك الدوائر. علـــى أي حـــال هناك مشكلات كثيرة.

إن محيط مسؤولية كل شخص غير واضح تمامًا، إذا خرجت للتنزه سيرًا على الأقدام في المنطقة المجاورة لي ورأيت طفلاً على وشك السقوط في جدول ماء فإن هذا الطفل يكون مسؤوليتي. ماذا يكون الأمر إذا كنت في رحلة إلى المكسيك ووجدت نفسي محاصرة بالأطفال الفقراء داخل دائرتي أو خارجها؟ ثم إذا كان هناك فرق مهم بين ما هو داخل نطاق مسؤوليتي وما هو خارجها؟ هل يتبع ذلك أنني لست ملزمة بشدة لمواجهة أية مشكلات خارجها. الحقيقة أن المشكلات داخلها مختلفة وتتطلب موقفًا آخر. أولوية المشكلات الداخلية تعني أن عليّ مواجهتها أولاً، أما المشكلات الخارجية فتأتي ثانيًا. ما هو السبب حقيقة لأن أفكر في المشكلات الداخلية على أنها مشكلات يجب على أن أحلها، أما الخارجية فإنها اختيارية؟ وأخيرًا وخارج هذه الصورة فإنك يمكن أن تؤكد على حسن موقفك الأخلاقي بتحاشي المسؤولية إذا لم يكن لديك أطفال، لا تعطي وعودًا، لا تشتري أحذية فإنك خارج المسؤولية، هناك أشياء من الخير أن تفعلها لكنك تفعلها وقتما تشاء حسبما يسمح وقت فراغك.

بسبب كل هذه المشكلات لا يبدو أن علينا أن نقنع بفكرة أننا قد أعطينا الأخلاقيات حقها ما دمنا اعتنينا بمسؤوليتنا، وما دمنا نحتاج أن نحكم قبضتنا على ما هو في نطاق مسؤوليتنا وأن نعطي هذه الأشياء اهتمامًا خاصًا.

إنه لشيء جيد أن نفي بمسؤولياتنا ولكنه ليس واضحًا أننا إذا قمنا بها فهذا كل شيء. إننا نحتاج أيضًا لألا نأخذ المزيد من المسؤوليات على عاتقنا أو أن نستجيب أخلاقيًا لمواقف خارج حدودنا أو أن نستجيب أخلاقيًا لمواقف ليست داخل مسؤولياتنا تمامًا. لكن هل نحن محتاجون لأن نفعل هذا باستمرار يوما بعد يوم؟ هل الطريق الأخلاقي هو ما نحن ملتزمون به؟

الأشخاص العظام في الفلسفة الأخلاقية لا يرون أن الأخلاقيات تتطلب التضحية الدائمة وليس هذا لأن أفكارهم الأخلاقية لا تسير في هذا الاتجاه

فأرسطو يرى الفضيلة أقصى ما يطمح إليه كل شخص. إنه ليس شيئًا لا يمكن تصديقه إنه يستطيع أن يتوقع من الشخص الخير أن يجمع في حياته كل ما يستطيع من الفضيلة عن طريق التجوال من مكان لمكان بحثًا عن فرص جديدة ليكون فاضلاً. لكنه يفترض من حياة تعاش بروابط مع جماعة معينة ومع أسرة وأصدقاء أن حياة المتجول الأخلاقي هي حياة خارج نطاق الممكن.

أما كانط فيعتقد أن علينا واجبات كاملة لأن نفعل أو نمتنع عن بعض التصرفات، مثلاً المحافظة على الوعود، عدم الكذب، وأن علينا واجبات غير كاملة حيال تطوير أحوال الآخرين بمعنى أن علينا أن نبذل جهودنا على، اعتبار أن كانط يرى أن الاستحقاق الأخلاقي هو الشيء الوحيد المؤهل فإن عليك أن تتوقع من كانط أن يطلق الكثير نموذجًا من الحياة الإنسانية تتطلب من الشخص الأخلاقي أن يتسامح مع كافة المحاذير الممكنة لعدم الكذب مطلقًا وعدم الحنث بالوعود، ولكن ليس هناك في كتابات كانت أو في حياته الخاصة ما يشير لأنه يصور الشخص الأخلاقي الكامل على صورة أخلاقي متحمس يقفز دائمًا وراء كل فرصة جديدة لعمل الخير للآخرين.

أما مل فيبدو الأكثر ميلاً لأن تكون لديه فكرة أكثر طلبًا للحياة الخلقية، يقول جون ستيوارت مل:

> "إن السعادة التي تشكل المستوى الكلي لما هو صحيح في السلوك ليس لسعادة الفرد ولكن كلا المعنيين، حيث تتطلب النفعية من الشخص ألا يكون منحازًا تمامًا كما لو كان متفرجًا غير مهتم، وذلك فيما يتعلق بسعادته وسعادة الآخرين. إنه يعرف السلوك القويم بذلك الذي يعظم الخير العام لكل المتأثرين".

إن توقعات مل ليست هائلة إنه يدافع عن النفعية بأنها ضد اتهامها أنها تطلب كمية هائلة من كل شخص بالقول إن معظمنا لديه الفرصة لأن يكون له تأثير فقط على عدد قليل من الحيوات، إننا لا نحتاج لأن نقلق أنفسنا بمشكلات المجتمع على نطاق واسع. إن مل لا يأخذ مثل دون كيشوت وهو أننا إذا لم نجد المشكلات الكافية محليًا نخرج على الطريق للبحث عنها.

هؤلاء الفلاسفة يعطون للأخلاقيات نوعًا من القيمة القصوى تجعلهم من الصعب مجرد القول إن هناك سببًا وجيهًا للتوقف عن فعل المزيد منها لكنهم لم يتوقعوا الكثير، وهذا راجع إلى الطريقة التي يعتنقونها عن الحياة العادية. إن الحدود الفاصلة عن الحياة العادية محددة تشمل المجتمع، والأسرة، والاهتمامات، والمصالح الخاصة، والأوقات الماضية، والأخلاقيات شيء مضاف إلى هذه الحياة، شيء لا يغير شكلها كثيرًا، هناك استثناءات لهذا كما ذكرت آنفا مثل رجل الإطفاء الذي يندفع في بيت تشب فيه النيران. ولكن على العموم فإن الأخلاقيات لا تتطلب التخلي عن الحياة العادية.

هل علينا أن نسمح للتصورات السابقة عن الحياة العادية أن تحدد السؤال حول أولوية الأخلاقيات في حياتنا ونتخلى عن البحث عن مبررات؟ ربما يكون هذا غير واقعي أو حتى غرور أن نعتقد أن قدراتنا العقلانية كبيرة جدًا لدرجة أننا نستطيع أن نؤثر على العناصر الرئيسية في أسلوب حياتنا.

هذه العناصر أنشأها تآلف العديد من القوى التي تشمل السيكولوجية والتاريخ الثقافي والبيولوجي. إننا لا نستطيع أن ننحي أنفسنا كثيرًا عن العناصر الرئيسية للحياة لنفكر حقًا حول ما إذا كانت جيدة أو سيئة ونغيرها.

إننا نحتاج لأن نقبل بعض القيود على قوانا لنفكر بموضوعية في تغير النماذج الرئيسية للحياة لكن الاستسلام كلية للأمر الواقع يكون مضللاً. إن

عدم الاستسلام للأمر الواقع كان الحافز الذي حفز هؤلاء الذين أنهوا العبودية والذين فكروا في عدم المساواة بين الجنسين والـذين دافعـوا عـن حقـوق المعوقين والأطفال والحيوانات إننا يجب على الأقل أن نبرر أسـلوبنا فـي الحياة أو نكون مستعدين لتغييره إذا لم نستطع.

إن الأخلاقيات حقًا شيء مختلف عن الأشياء الجيدة الأخرى الملائمـة لرفاهيتنا مهما كان حجم ما تم تكريسه لتحقيق متطلبات الأخلاقيات فما زال هناك المزيد فالعالم كبير وهناك مشكلات كثيرة تحتاج للحل. ما دام هنـاك ولو شخص واحد لديه مشكلة عويصة فهناك وازع أخلاقـي لوضـع هـذه المشكلة أمامي، وبعد كل هذا إنني لا يمكن أن أعطي لنفسي أهمية أكثر مما أعطيه لأي شخص آخر. إننا نستطيع أن نضع أيدينا على آذاننـا لكـن إذا أنصتنا فإن البواعث الأخلاقية تكون قوية مهما كنا قد حققنا الكثير منها، إن حاصل جمع ٢+٢ سيكون دائمًا أربعة مهما مللت من أربعة كإجابة وفضلت أن يكون خمسة، "أعط الأولوية لإنقاذ الأرواح" هذه دائمًا نصيحة جيدة حتى ولو كنت قد أنقذت أرواحًا كثيرة من قبل وتفضل قضاء إجازة مرفهـة فـي هاواي. أعتقد أنه لدينا قدرة سيكولوجية أن نتبع البواعـث الأخلاقيـة دون انتظار للجزاء ومهما كانت التكلفة، لكن الأخلاقيات تنهكنا فكلما ملأنا حياتنا أكثر وأكثر بالأعمال الجيدة نجد أنفسنا نلتفت لأشياء أخرى. وعنـد نقطـة معينة نتقبل قلقنا إذا لم نستنكر قوة الجميع ما عدا عددًا قليلاً من البـشر قـد عاشوا حياة فاشلة فإننا سنقول إن هناك "ما يكفي" من الأخلاقيات في حيـاة، قبل أن تتحقق كل البواعث الأخلاقية، إنه يبدو شيئًا مضحكًا، لكن يبـدو أن الحقيقة هي أنك تستطيع أن تعيش حياة طيبة حتى ولو لم تكن تفعل كل شيء يجب أن تفعله.

هل نستطيع القول إن هذا يكفي؟ إن النقاش الذي أدرته في الفصل السادس حول عناصر الحياة الطيبة وأن كلاً منها ضروري لأنه يستجيب إلى سمة معينة لا يجب إهدارها. إذا لم تفعل ما تطلبه الأخلاقيات فإنك تهدر سمة قيمة. إذا فعلت كل ما تأمر به الأخلاقيات كل يوم وتوقفت يومًا واحدًا فإن هذا لن يكفي. إن سمة الأخلاقيات تشمل القدرة على معرفة الفروق الأخلاقية المهمة هذه الفروق ليست هي سمة الأخلاقيات ولكنها الفروق بين ما نحن مسئولون عنه وما نحن غير مسئولين. لا يبدو أننا نستطيع أن نحكم على شخص بأنه يحسن استخدام قدراته الأخلاقية إذا لم يستطع أن يرسم خطا بين مجالات مسؤولياته، إذا كان يعمل من أجل المشردين ولا يعتني بأطفاله، أو إذا كان يرسل المساعدات لضحايا الزلازل في باكستان ثم لا يهتم بأن يكون عادلاً مع موظفيه، فإنه هكذا لا يكون قد أحسن استخدام قدراته الأخلاقية، هذه الفروق مهمة وتدخل في نطاق قدراته على الجدل الأخلاقي.

إننا لا نطيق صبرًا على شخص يتعب سريعًا (يمل سريعًا) من مسؤولياته، إذا أخذ شخص على نفسه وعدًا فإن هذا الوعد يدخل في نطاق مسؤولياته وعليه أن يفي به. حقيقة أنه أعطى مئات من الوعود الأخرى وأصبح ملولاً من حفظ الوعود. ليس هذا مبررًا. إن العناية بالأطفال مرهقة بلا شك وتستطيع أن تتفهم أن شخصًا لن يتخلى عنها بسبب الملل ويهمل مسؤولياته ولكن هذا التفهم ليس مقبولاً.

إن الملل يصبح مقبولاً بعد أن نقوم بمسؤولياتنا. إن الشخص الذي يتحاشى مسؤولياته يجب ألا يكون راضيًا عن نفسه. بتقليل عدد الأشياء التي يكون مسؤولا عنها فإنه يهدر القدرة على الأخلاقيات. وحتى لو كان على عاتقنا الكثير من المسؤوليات فإنه لا يبدو صحيحًا أن ننكر ما يتبقى. إن الابن أو الابنة الشغوف بهما لا يختلفان عن الأطفال الآخرين الذين تكون أكثر

ارتياحًا لو أهملتهم، من المعقول أن تطعم طفلك أولاً لكن لا تبعد الطفل البعيد عن حساباتك.

في نقطة ما يكون عمل الخير أكثر وأكثر وأكثر سببًا في تقليل سعادتي الخاصة وقدرتي على التعبير عن الذات والاستقلال. لكن هذا ليس صحيحًا في حالة بول فارمر ولكن على أن أقر أن هذا ينطبق على حالتي.

إن العناصر الجيدة المختلفة ليست متساوية في جودتها. إن قدرتها الأخلاقية هي الأكثر مدعاة للدهشة. كيف يمكننا أن نعلو فوق همومنا الشخصية ونهتم بالآخرين أو حتى بالأغراب؟ إذا كانت الأخلاقيات الأفضل مقارنة بالسعادة والاستقلالية والتعبير عن الذات وغيرها، يكون المزيد من الأخلاقيات يستحق التقليل من العناصر الجيدة الأخرى، المحصلة النهائية لفعل المزيد مما تمليه الأخلاقيات سيكون تحسين حياتي الخاصة.

في نقطة ما فإن العجز في مناطق أخرى سيكون كبيرًا جدًا. فإن هذا لا يعني أنه لي الحق في إجازة من الأخلاقيات. إنني ما زلت مطالبًا بالاهتمام بمسؤولياتي وأن أكون مدركًا لما يجب عليَّ عمله.

إذا كانت المقدرة على الأخلاقيات أهم من أي قدرات أخرى فليس معنى هذا أن الأخلاقيات تأخذ الصدارة في كل موقف، إذا كنت قد فعلت ما هو مطلوب فورًا وتحملت مسؤولياتي ونفذت كل متطلباتها وكرست وقتًا لما هو أفضل فإنني لا أكون جديرًا بالازدراء إذا انغمست في حياتي الخاصة. أستطيع أن أكتب الشعر وألعب على البيانو وآخذ أبنائي وأذهب إلى السينما.

لكن إلى متى؟ ومتى يجب أن أعود لعمل ما هو أفضل أخلاقيًا؟ ما هي أنواع الإسراف التي تعتبر سخيفة وغير محتملة؟ إنني أحسد الناس القلائل الذين يستطيعون أن يجعلوا الأخلاقيات أول أولوياتهم في كل المواقف.

والحسد ليس لأنهم يستمتعون بوضوح، ليس هناك شيء سهل في العمل في وطن تحطمه الحرب أو الأمراض أو الكوارث الطبيعية، لكن إناسًا مثل بول فارمر يفعلون شيئًا جيدًا جدًا للآخرين ويستمتعون بالرضا عن هذا العمل ولكنهم أيضًا يعانون من كمية من الضغط العقلي، إن ما نختاره في موقف معين ليس من السهل قوله. دعنا نعود إلى مشكلات لاعب السباق الثلاثي الذي تحدثنا عنه في بداية هذا الفصل، شخص كنا ندعي أنه أنت. أخلاقيًا إنه من الأفضل أن تقضي وقتًا أطول مع أطفالك، إنهم مسؤولياتك هل أنت مطالب حقيقة لأن تتوقف عن السباق أو أن هذا أفضل؟ إذا كان أفضل هل تكون مهدرًا لقدرتك الأخلاقية إذا لم تفعل؟ إذا كان يكفي أن تعطي من أجل قضية عادلة أو أن تعوض أولادك بعمل أشياء جيدة ماذا ستفعل؟

إن إنكار الفكرة البسيطة أن الأخلاق تخنق كل شيء آخر تضعنا على أرض غير صلبة. كما هو صعب على بول فارمر هناك أيضًا عمل صعب على قديس الأخلاق وهو تقرير متى يلتفت إلى الأخلاقيات. إن الأفكار التي وضعتها هنا تعطي الخطوط العريضة ولكنها لا تحل الكثير من الحيرة. إننا نناضل لنعرف كم نحتاج من الجيد. ستكون مفاجأة كبيرة أن نجد مبدأ ينهي هذا النضال.

الفصل التاسع

المجال الديني

في منتصف حياته صار تولستوي غير راض عن كل شيء في حياته؛ كتبه، أسرته، حتى نفسه صارت بالنسبة له مقدرًا لها نفس النهاية، التدهور ثم الموت. فكرة أن كل شيء إلى زوال كانت غير محتملة بالنسبة له، جعلته أزمته يبحث عن الاعتقاد الديني وعندما حصل عليه بدأ يركز حياته على الأشياء الباقية، الاتحاد مع الإله سواء في هذه الحياة أو الحياة القادمة، إطاعة أوامر الإله وبخاصة التي عبر عنها في العظة فوق الجبل.

السمو فوق الوجود المادي والزوال والموت والاتحاد مع كائن علوي والبقاء فيما بعد الحياة، هي أشياء جيدة بالتأكيد وهي نوع من الأشياء الجيدة التي تجعل الحياة أفضل. لكن هل هي ضرورية؟ هل تفشل حياتك فعلاً إذا لم تكن لديك؟ كان هذا رأي تولستوي، وأكثر من هذا لقد ظن أن حاجته الخاصة يجب أن تكون أعلى أولوياته والمرتكز الأساسي لطاقاته، لقد اعتبر أن توجهه الديني الجديد هو الذي يعطيه إحساسا دائما بأهمية حياته الباقية.

إذا كان تولستوي محقًا فإن الصورة التي كنت أرسمها للحياة الطيبة تكون غير كاملة تمامًا، إذ تشبه في الحقيقة حياة بلا شيء إلا خلفية فقط، إن السمو فوق الوجود المادي يجب أن يوضع في الصورة الآن وفي المقدمة، السؤال المحرج الآن هل كان هو على حق؟

في الفصل السادس قلت إن بعض العناصر لا بد أن توجد في أي حياة يعتبر أنها طيبة، السعادة مثلاً. إن كائنًا بلا وعي أو من يكون تجربته الواعية بائسة لا يمكن أن تعتبر حياته طيبة. هناك ضرورات أخرى مزروعة في القدرات. عندما تكون هناك قدرة على شكل من الأشكال الجيدة الأساسية والكبيرة فإن تحقيق هذه الأشكال يكون ضرورة. إهدار هذه القدرة يخلق فشلاً لا يمكن التغلب عليه بمساعدة إضافية من الأشياء الجيدة الأخرى. إذا كان السمو فوق الوجود المادي ضرورة إذن هي إما ضرورة مطلقة (لا توجد حياة طيبة بدونها) أو ضرورة نسبية مزروعة داخل قدراتنا (يمكن أن نحققها أو أنها جيدة جدًا يجب ألا نهدرها).

لقد فكر تولستوي في السمو فوق الوجود المادي على أنه ضرورة مطلقة. قبل تحوله لم يعتقد في الإله ولا في الحياة بعد الموت ولذلك لم يفكر أن أيًا لديه القدرة الفعلية على تحقيق السمو فوق الوجود المادي. لهذا السبب كان مقتنعًا أن حياته لا يمكن أن تكون طيبة ومن هنا جاء شقاؤه والحافز القوي لأن يصبح مؤمنًا، كان عليه أن يؤمن بوجود الإله لأن هذا الاعتقاد حفز إمكانيات التفكير في أن حياته تستحق أن يعيشها.

هل السمو فوق الوجود المادي هو حقًا ضرورة مطلقة؟ ماذا لو كان هناك كائن علوي ولكن الاتحاد مع هذا الكائن غير ممكن أو أنه لا توجد حياة بعد الموت؟ إن بعض الآباء الأمريكيين المؤسسين اعتقدوا في وجود إله بعيد مسؤول عن خلق الكون وجعله يسير وفقًا لقوانين ولكنه ليس مسؤولاً على نحو قوي عن شئوننا، تفكيرًا في عالم مثل هذا لن ترى إلا حياة تافهة وحقيرة. من المفهوم الأفلاطوني الذي ناقشناه في الفصل الأول، فإنه إذا لم يكن هناك جسر من حياتنا إلى مجال آخر أكثر دوامًا فإن حياتنا تكون شديدة الطلب. لكن ليس هناك أي شيء حتمي في النظر إلى الأشياء بهذه الطريقة.

فإن الكلام البلاغي النبيل المملوء بأعلى التقدير لجهود الإنسان والذي كتبه توماس جيفرسون عاش بجانب اللاهوت. إذا استيقظنا غدًا صباحًا فكانت العناوين الرئيسية في الصحف تقول: "لا حياة بعد الموت، لا وحدة مع الإله" وتمت البرهنة على هذه الحقائق، فهل يتفق الناس مع تولستوي أن هذه هي أسوأ أنباء ممكنة وأساس للتوقف عن كل جهودنا؟ هل نتوقف حقيقة عن إطعام أطفالنا وإرسالهم للمدارس؟ هل نتوقف عن الذهاب للعمل والاستمتاع بالكتب والفن والموسيقى والسينما والمباريات الكروية؟ كثيرون سيفقدون التوازن ولكن أظن أن معظمنا سيشكلون صورة إيجابية للحياة الإنسانية، طريق آخر لإزالة السمو فوق الوجود المادي من صورتنا عن العالم هو أن نفكر ماذا سيكون الحال إذا لم تكن هناك قوة عليا بالمرة بدلاً من جسر بين الإنسان والإلهي، بدون قوة عليا هل تكون هناك حياة طيبة؟ من الممكن أن نفكر أنه لن يكون هناك خير وشر على الإطلاق بدون إله. إن الحياة ذات القيمة تعتمد على رغبات وأوامر إلهية أو مدارك، كما يعتمد ضوء القمر على الشمس. إذا كان وجود الإله مطلوبًا ليجعل أي شيء أو أي حياة جيدة أو سيئة فإن هذا لا يعني بالضرورة أن هناك شيئًا ما لا بد أن يضاف إلى قائمة العناصر الحياتية المهمة التي ذكرتها، إن الأشياء على القائمة الصحيحة تدين بجودتها إلى الاستحسان الذي تجده في عيون الإله، تلك الأشياء يمكن أن تكون هي السعادة والاستقلالية وباقي القائمة. وفي نفس الوقت، فإن الإله يكون ضروريًا لجعل كل شيء على القائمة جيدًا.

إن هذا يمكن أن يكون تنازلاً كبيرًا وأعتقد أنه من السهل فهمه أن يتم نبذه أكثر من الاستمرار فيه، ومن وجهة نظر المؤمن فإن من السهل الاعتقاد أن بعض الأشياء تدين بجودتها إلى الإله.

دعنا نعود لمحتويات القائمة؛ السمو فوق الوجود المادي ليس مرشحًا جيدًا لأن يكون ضرورة مطلقة. لكن ماذا لو نظرنا إلى السمو المادي كضرورة نسبية مزروعة في قدراتنا؟ إذا كنا حقيقة نستطيع أن نحقق الاتحاد مع كائن لا نهائي وحياة أبدية ألا يكون هذا نوعًا من القدرة العميقة للخير التي لا يجب أن نبددها، على الرغم من أن هناك غموضًا شديدًا حول حقيقة ما يمكن أن تصل إليه هذه القدرات مقارنة بالقدرات على السعادة أو الاستقلالية أو التعبير عن الذات؟ بالتأكيد إننا لو استطعنا أن نسمو فوق الوجود المادي والفناء فإننا يجب ألا نبدد هذه القدرة.

قارن بين عالمين محتملين أحدهما غامض والآخر واضح؛ في العالم الغامض يمكن الحصول على السمو فوق الوجود المادي وفي الآخر الواضح لا يمكن ذلك. في العالم الغامض يستطيع البعض تحقيق السمو فوق الوجود المادي والبعض لا يستطيع. أما في العالم الواضح فإن لا أحد يستطيع. أعتقد أن هناك حياة طيبة في العالم الواضح لأن السمو فوق الوجود المادي ليس ضرورة مطلقة. حيثما يكون السمو فوق الوجود المادي غير ممكن (مستحيلاً) فإن غيابه لا يفسد حياة الناس. في العالم الغامض على الرغم من أن بعض الناس الذين يستفيدون من هذه المقدرة يعيشون حياة أفضل فإن الآخرين الذين يهدرونها يكونون أسوأ بكثير. هناك حياة جيدة في العالمين لكن هل الحياة الجيدة بدون السمو فوق الوجود المادي أو به متساويتان في الجودة؟ في الفصل السادس كنت أقرر أن الأشياء الجيدة في حياة الفيل يمكن أن تتكدس في كومة أعلى من الأشياء الجيدة في حياة الفأر، حتى مع منح الفأر كل الأشياء الجيدة الضرورية له. بنفس الرمز نستطيع أن نقول إن الحياة الجيدة التي تشمل السمو فوق الوجود المادي تكون حياة أفضل. إذا كان العالم الحقيقي واضحًا فإن هذا لا يجعل حياتنا سيئة ولكنه قد يعني أنها يمكن أن تكون أفضل.

إذا كنت غير متأكد إن كان العالم واضحًا أوْ غامضًا فسيكون من المعقول أن تفضل العالم الغامض حتى تستطيع أن تفكر أن الحياة المتاحة لنا هي من النوع الأسمى. وإذا كنت مؤمنًا فسيكون من المعقول أن تكون مسرورًا لوجود الإله ومسرورًا لإمكانية السمو فوق الوجود المادي. أما إذا لم تكن مؤمنا بالإله ولا بالسمو فوق الوجود المادي فإنه من المعقول أن تشعر بالرثاء. إنه ليس بالشيء الهين أن نوطن أنفسنا لإمكانية الموت في أي لحظة دون أن نأمل في التحكم في المستقبل عن طريق الصلاة أو أن نتغلب على الشعور بخيبة الأمل وسوء الحظ عن طريق الشعور بالاتحاد مع شيء ما. ستكون مدعاة للرثاء ألا يكون هناك جسر من هذه الحياة إلى أفق آخر. إنني شخصيًا أشك في وجود مثل هذا الجسر. أعتقد أن العالم هو عالم واضح ولكنه أيضًا رائع، تمامًا مثل الفأر السعيد الذي لا يضيع وقته يتمنى أن يكون فيلاً. إنني راضية عن حياة ليس فيها سمو فوق الوجود المادي.

قبل تحوله، كانت توجهات تولستوي عن الإله والسمو فوق الوجود المادي أكثر من مجرد تفضيل. لقد شعر أن حياته مخربة تمامًا لأنه اعتقد في السمو فوق الوجود المادي على أنه ضرورة مطلقة. افترض أن الحياة بدون السمو فوق الوجود المادي تكون كارثة، لقد فكر في الانتحار وفقد كل استمتاع بالحياة. أن نطلب الحياة الأفضل التي يتيحها السمو فوق الوجود المادي هذا شيء، أن نستنكر الشعور بالأسف بالرثاء لعدم وجوده هذا شيء آخر. إن السمو فوق الوجود المادي هو الشيء الذي وجده تولستوي جميلاً، آسرًا، مولدًا للطاقة.

هل بالغ تولستوي في هذا الحب الشديد للسمو فوق الوجود المادي؟ سوف نعود لهذا السؤال قرب نهاية هذا الفصل.

إذا كان السمو فوق الوجود المادي إمكانية حقيقية، فإنه يكون مفهومًا أن هناك توجهات صحيحة وأخرى خاطئة وطرقًا نسلكها من أجل تحقيقه، لا بد أن يكون هناك اعتناق كامن لمعتقدات دينية معينة أو إطاعة لوصايا روحانية أو توحد مع قوى عليا أو تفضيل لطقوس دينية أو كل ذلك. إن السبيل الوحيد للسمو فوق الوجود المادي يأتي من خلال الدين، هناك بعض الآراء المحددة ترى أنها تأتي من خلال التعميد، إن التعميد هو الطريق الوحيد للسمو فوق الوجود المادي، أو إنها الهندوسية أو بعض الأشكال المعينة في الإسلام. لكن بين كل هؤلاء نوع من التسامح، لكن هناك رأي مؤكد أن السمو فوق الوجود المادي لا يتحقق للشخص الذي يتشكك في السمو فوق الوجود المادي أو الذي يتشكك في وجود الإله.

وفي نهاية المطاف فإن السلوكيات والتوجهات الحرجة والحاسمة المهمة تكون مفتوحة لأتباع الديانات المختلفة وغير المتدينين على السواء. فهناك أشياء مثل الشعور بالاحترام والدهشة في مواجهة العالم المحيط بنا تتمثل في المحبة والتصرف باحترام تجاه الآخرين ومحاولة الحفاظ على ما هو جيد ومحاربة كل الأشياء السيئة. إذا كان هناك قوة عليا فإن مثل هذه التوجهات هي ما تحبه وتفضله، ربما لا تطلب تلك الذات العليا عبادتها أو حتى الاعتراف بها، وربما يكون حتى غير المتدين متحدًا مع الإله دون أن يدرك ذلك، وربما يكون هذا ما نمر به جميعًا نتيجة لحبنا واحترامنا وانفتاحنا على العالم من حولنا حيث ينتابنا شعور بالرهبة الغامضة، بعض الناس ربما يخالجهم هذا الشعور بقوة عندما يتذوقون جمال الطبيعة أو شعور التوحد مع مجموعة من الناس أو متعة كالمولد الجديد أو متعة الجنس.

كان تولستوي مفتونًا بالرأي المتعالي المترفع عن التسامح الديني لكن آراءه ليست هي نهاية المطاف، كتب تولستوي يقول: "إن الإنسان كائن

ضعيف وبائس، عندما لا تضيء روحه بنور الإله، ولكن عندما تضيء يصبح الإنسان أقوى كائن في العالم"، أن نعتنق فكرًا دينيًا هو في الحقيقة أن نعتنق أشياء جوهرية. هناك إله هو الذي خلق هذا العالم، إننا نستطيع أن نتحد معه، إن فينا ومضة إلهية، إننا متساوون لأن فينا جميعًا هذه الومضة نفسها، إن ما يحدث لنا هو ما يحدث للآخرين. ويعتقد تولستوي أن أتباع كل معتقد ديني لا بد أن يؤمنوا بذلك وحتى الديانات غير السماوية مثل البوذية والتاوية.

إنني لست قلقة على الذهاب إلى النار أو عدم الاتحاد مع الإله أو الطرد من الحياة الآخرة. كيف أقلق وأنا لا أؤمن بهذه الأشياء؟ إنني أظن حتى أن الترفع (تجنب الاختلاط بمن يعتقد أنهم دون المنزلة) شيء خطير. إن أكثر الأشكال تطرفًا التي تصر على المعتقدات المسيحية والمعتقدات الإسلامية أو غيرها، أي كانت هي الأساس في الحروب المقدسة، والإرهاب أو سلب المجتمعات الكافرة، والتعصب وعدم التسامح، إن تجنب الاختلاط بمن يعتقد أنهم دون المنزلة شيء خطير لا معنى له. إذا كان هناك معتقدات معينة وطقوس يطلبها الإله منا سيكون هناك الكثيرون خارج الطريق دون خطأ من جانبهم. إن كان المطلوب هو الاعتقاد المسيحي –مثلا– فمعنى ذلك أن الناس الذين قضوا حياتهم دون اتصال بالمسيحيين يعتبرون محكومًا عليهم بالإدانة. نتمنى ألا يكون الإله الذي يقول هذا حاكمًا للعالم. يوافق تولستوي على هذه النقطة، إنك لن تستطيع أن تسأل عن حليف ضد عدم التسامح الديني أكثر قوة وبلاغة من هذا. لكننا نريد أن نحتاج حقًا أن نأخذ التسامح خطوة أبعد من هذا.

حتى ولو كان مجرد الاعتقاد في وجود الإله هو الذي يعتبر أساسيًا فإن الدلائل لا تقنع كل شخص. أن نزن الأمور بميزان العقل فهذا فضيلة أما أن ننحي العقل جانبًا ونعتقد في شيء بدون أي ذرة من التعقل فهذا ليس فضيلة.

إذا كان الاستمتاع بالاتحاد مع الإله يحتاج إلى معتقدات محددة ومعينة فإن شخصًا فاسدًا عقليًا سيستبعد نهائيًا من هذا وكـذلك الأطفـال الـصغار والحيوانات، وإن إلهًا يفرض أية معتقدات محددة وممارسات كشروط مبدئية لن يكون -كما يبدو لي- إلهًا عادلاً. إذا كان هناك إله يمكن الاتحاد معه فإن هذا الاتحاد يكون ضرورة ولكن لا يستتبع هذا ضرورة الـذهاب للكنيـسة صباح الأحد أو قراءة النصوص الدينية أو الانتماء لـدين معـين أو حتـى الإيمان بما يعتبره تولستوي الحد الأدنى كبدايـة. باختـصار إن مـا يبـدو ضرورة هو الاتحاد نفسه كيفما يتحقق.

إن الكتب المقدسة الخاصة بالأديان الكبرى في العالم مملوءة بالمواقف المترفعة عن الآخر أو الداعية لعدم الاختلاط به أو حتى محاربته. يقول يهوه للإسرائيليين أن يدمروا مدن أصحاب الديانات الأخرى. أما في دين النبـي محمد فإن الله يأمر المسلمين في القرآن بقتل الكفار المشركين. أمـا كتـاب المسيحيين يتنبأ بمصير مؤلم لمن لا يتبع المسيح. هناك بالتأكيـد مـشكلات بسبب النصوص فإنه تواجهها اليوم (في الوقت الحاضر) الفئات المـصممة على أن تتبنى موقفًا شاملاً.

وفي خطوة متقدمة نحو الشمولية يبرز على الأقل هذا النهج المعرفـي المتواضع الذي يقول إن الدين الصحيح ربما يكون ديني أو ربما يكون دينـًا آخر، إننا لا نعرف على وجه التأكيد. إن هذا النوع من التواضع يمكـن أن يقضي على قدر كبير من الـسموم التـي يفرزهـا المفهـوم الاسـتعلائي (التمييزي). لكنها تبقى نظرتنا إلى الإله على أنه يميز تمامًا بين الناس فيتقبل هؤلاء الذين يسيرون في طريق الإيمان التقليدي الصحيح ويرفض ما عداهم. إن تعديلاً دراميًا لهذا التوجه ضروري جدًا.

إن هذا الرأي الليبرالي الشمولي يشجع على تقليد يمزج الأديان المختلفة في إطار واحد، لكن هذا التوجه الليبرالي لا يجعل من المستحيل انقسام هذا التقليد الموحد. إنه ليس مستحيلاً على يهودي ومسيحي على سبيل المثال أن يحبا تقاليدهما الخاصة دون أن ينظرا إليها على أنها الأعلى تمامًا مثلما نحب أطفالنا بالذات دون أن نعتقد أنهم الأفضل، أما إذا تبنينا الرأي الشمولي فإننا لن نستطيع أن نعتقد في كل ما تقوله لنا هذه الأديان حول كيف نجد التعاطف مع الله، إن شخصًا متدينًا ذا توجه شمولي عليه أن يحترم الأديان الأخرى أيضًا، من يرفضون الدين، إنه شيء يحتاج للحيلة أن تحتفظ بهذا التوجه، ويحتاج لمجهود كبير أن تصلي خمس مرات في اليوم وتقرأ الترانيم وغير ذلك. أن يكون لديك التوجه الشمولي يعني أن تحترم الناس الذين يقومون بالشعائر الأخرى وأيضًا أن تحترم شخصًا مثلي لا يقوم بأي منها. أعتقد أنني أمتلك سلوكًا وتوجهًا صحيحًا بالمعنى الليبرالي للكلمة. إذا كان هناك فعلاً إله وإمكانية السمو فوق الوجود المادي، إذا كان العالم أفضل مما أعتقد فهل يكون من العدل أن أسمو فوق الوجود المادي الذي تعملون من أجله دون حتى أن أعتقد فيه؟ إنه يبدو كما لو كنت سأحصل على شيء لم أعمل من أجله، إنني أشاهد الإله متمثلاً في شكل رئيس تأديبي لنادي قائم على أساس تمييزي.

لقد قلت إن الوحدة مع الإله على قائمة الضرورات إذا كان هناك حقيقة إمكانية لها. على فرض أن هناك وحدة مع الإله وبقاء بعد الموت فإن الأشياء الجيدة الأخرى في الحياة تكون أقزامًا بجوارها ويجعل النجاح في هذا أفضل من الفشل في كل النواحي الأخرى. إن كمية الخير الذي يحققه السمو فوق الوجود المادي لأي حياة شيء غير عادي.

إن الشيء المدهش أن تقييمًا لأي حياة وهل كانت جيدة لا ينسحب نسبيًا على هذه النقطة بالذات، وهذا صحيح إذا كنا ننظر للأمور من خلال خلفية دينية أولاً. إذا كان شخص قد قضى حياته عبدًا بلا استقلالية تذكر ولا سعادة تذكر فإن هذا لن يجعل حياته طيبة إذا افترضنا أنه سيذهب إلى حياة أخرى ويستمتع فيها بالوحدة مع الإله، إننا سوف نستمر نتمنى لو كان قد عاش حياة أفضل. أما إذا كان الشخص قاسيًا ومعذبًا للآخرين ولكننا نفترض أنه وفي النهاية تغير واتحد مع الإله في الحياة الأخرى، فإننا لن نغير نظرتنا بخصوص حياته وسنظل نعتبرها فاسدة (فاشلة). إن سيمون إستايلست الذي تحدثت عنه في الفصل الثاني مثال للشخص الذي كانت حياته فاشلة حتى ولو افترضنا أنه كان ناجحًا في أهدافه الأولية -الاتحاد مع الإله هنا وفي العالم الآخر- كانت أيامه على الأرض مملوءة بالألم، ينقصها الكثير من الأنشطة المهمة، تنقصها الكثير من الأخلاقيات وكل ما يجعل الحياة طيبة.

في رواية "موت إيفان إيليتش" لتولستوي يقضي إيفان أيامه الأخيرة في ألم وعدم ارتياح ولكنه في النهاية يجد السلام لقد تخلص من عذابه النفسي عندما أقر في النهاية بما كان ينكره باستمرار. لقد ظهر له أن حياته لم تكن أبدًا كما يجب أن تكون لكن ما زال في الإمكان تصحيحها. ماذا يمكن تصحيحه؟ حياته الماضية؟ بالطبع لا لأن حياته لم تسر سيرًا جيدًا. إنها فقط لحظة الموت هي التي صححت. لقد برقت في عينيه مشاعر الحب التي منحتها له أمه وهو طفل ووجد الحب يحيط به في الغرفة حتى في عيون أفراد أسرته الذين لم يكونوا محببين له من قبل وأخيرًا اختفى رعب الموت أين هو؟ ما هو الموت؟ لم يكن هناك خوف لأنه لم يكن هناك موت. في مكان الموت ظهر ضوء، إذن هذا هو الموت فجأة صاح: "يا له من سرور".

إنه بالتأكيد شيء محير لماذا "الوحدة مع اللانهائي" هي التي تعوض عن كل قصور تجعل كل شيء جيدًا وهي بعد كل ذلك تبدو شيئًا جيدًا تجعل كل جيد آخر غير ضروري ما دامت هي حاضرة، لكنها لماذا لا تؤثر فينا بهذا الشكل عندما نفحص (نختبر) حياة حقيقية أو حتى خيالية؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تبدو متضمنة في هذا الفصل؛ إنه ليس واضحًا تمامًا ما هي أن تمر بتجربة الاتحاد مع اللانهائي. إننا لا نعلم بالضبط ما هي الحياة الآخرة هل هي استمرار لهذه الحياة بكل ما تحتوي؟ هل هناك فرص للنمو والتعبير عن الذات والاهتمام بالآخرين في الحياة الآخرة أم هي حالة من السعادة والغبطة الشديدة؟ لأننا لا نعرف لأنه ليس لدينا فكرة محددة عن السمو فوق الوجود المادي فإنه ليس لدينا فكرة محددة بماذا يمكن أن نقارنه أو ما هي الأشياء الأخرى التي ترتبط به. من الوهلة الأولى الاتحاد مع اللانهائي والحياة الدائمة لا بد أن تخلق (تسبب) مشاكل كبيرة في الحياة، وبالفحص القريب (الدقيق) تبدو معتمة وغير واضحة التأثير على تفكيرنا أكثر بكثير من الأشياء الملموسة الواضحة.

السبب الآخر الذي يجعل تحقيق البقاء الدائم لا يمثل القيمة البارزة في الحياة هو أننا نعرف الحياة على أنها الـ٧٥ سنة تقريبًا التي نقضيها هنا على الأرض إذا كنا محظوظين. نتعامل مع الناس والأماكن والأشياء. ربما إن كانت هناك حياة أخرى فإنه سيكون لنا منظور جديد منه ستبدو الحياة على الأرض أقل أهمية، ربما سوف ننظر إلى الـ٧٥ عامًا الأولى كما ننظر الآن إلى أيام طفولتنا الأولى على أنها وقت لم نكن فيه نحن أنفسنا بعد. أما الآن فإننا ننظر للحياة على أنها مكونة من أيامنا وسنواتنا هنا. إن تحقيق البقاء ربما يكون ضرورة –أقول هذا– إذا كان هذا ممكنًا.

سوف أضرب مثلاً وأأسف للتشبيه لكن لنفكر في شخص يقضي أعوامه الجامعية الأربعة منكبًا على دراسته، لا يشارك في أي أنشطة غير الدراسة وليس له حياة اجتماعية، فإننا سنقول إن حياته الجامعية لم تسر سيرًا حسنًا رغم أنه مرتبط مع من سيجد له عملاً ويضمن له مستقبلاً وظيفيًا مرموقًا. بالمثل فإن سيمون إستايليست كانت له علاقة ومستقبل مع الإله ولكنه قضى ثلاثين عامًا واقفًا فوق عمود وهذا لم يجعل حياته طيبة.

إذا كنا نعلم كما يعلم الإله فترة عمرنا هنا وفي الحياة الآخر، ربما كان الوزن الذي نعطيه لتحقيق البقاء مختلفًا، لكن من المنظور الوحيد المتاح لنا في هذه الحياة فإن البقاء لا يحل محل شيء ولا يسيطر على كل شيء في قائمة الضرورات، إن علينا التزامات أخلاقية نحتاج لتحملها وأن ندير شئون حياتنا وأن نعبر عن أنفسنا وكل ذلك، (وإذا كان ممكنًا أن نفعل كل ذلك) فإننا نحتاج لأن نحقق الاتحاد مع الإله والحياة الباقية.

هل تحقيق البقاء هو فعلاً ونهائيًا أهم شيء ويستحق التضحية بكل شيء آخر؟ إنه لا يهم إلا إذا كنا أحيانًا مجبرين على الاختيار بين البقاء وبين الأشياء الأخرى على القائمة، إن سيمون قد ظن أنه عليه بتعذيب نفسه من أجل الاتحاد مع الإله، كان عليه أن يتخلى عن السعادة والمتع الجسدية، وعن المشاركة المعتادة في الإنتاج وحتى عن أن يكون ابنًا جيدًا عندما رفض أن يرى أمه حتى وهي على فراش الموت. أما تولستوي فقد كان هو نفسه كالزاهد لقد ظن أن الاتحاد مع الإله يعني ألا يمارس الجنس مع زوجته ولا يشرب الخمر ولا يكتب أدبًا إلا في موضوعات تتعلق بالدين. لكن هذه الآراء في الحرمان تعني أنواعًا من التطرف فيما هو مطلوب للاتحاد مع الإله، ونوعًا من التمييز الذي يعني أنه لا اتحاد مع الإله ولا حياة آخره إلا للمختارين الذين يؤمنون الإيمان الصحيح ويتخلون عن الأشياء الصحيحة ويركزون اهتماماتهم مباشرة على الإله.

أما الرأي الشمولي فإنه يجعل الاتحاد مع الإله سهلاً، إنه يجعل الاتحاد مع الإله متاحًا لمن يكتب الأدب وينجب أطفالاً ويحارب ضد عدم العدالة ويتسلق قمة الإيفرست وهكذا. إنه ما نشعر به عندما ننشغل بسعادة ومتعة واحترام مع ما خلقه الله. هذا يجعل التعارض بين الاتحاد مع الإله والأشياء الأخرى نادرًا وهكذا يجعل الموازنة بين قيمة البقاء وقيمة الأشياء الأخرى، أقل حرجا وخطورة.

إن تقييم تحقيق البقاء لا يغير شيئًا مما قيل في هذا الكتاب، إن كل العناصر التي تصنع الحياة الطيبة والتي ذكرتها من قبل ما زالت هي العناصر الخطرة (المهمة) وإن السمو فوق الوجود المادي يجب أن يضاف إلى القائمة إن كان هذا ممكنًا ولكنه لا يحل محل أي منها ولا يطغى عليها (ولا يحجبها).

إنك في الحقيقة زاهد أو إنك تعتقد في استحالة معرفة شيء عن الخالق الإله، على الأقل إنني الآن سأفترض ذلك. ربما تكون مخطئًا بخصوص الإله وربما تكون تمر بتجربة الاتحاد معه وتسير نحو الحياة الآخرة رغم معتقداتك. ولكن لنفترض أنك لست مخطئًا وأنك فعلاً تعيش في عالم بدون قوة عليا هل البقاء غير ممكن؟

حسنًا ليس تمامًا فما زال بإمكانك أن تركز طاقاتك على أشياء دائمة نسبيًا تستطيع أن تبحث عن معرفة المظاهر الدائمة للحقيقة، أن تصبح عالم طبيعة أفضل من أن تكون سياسيًا أو باحثًا اقتصاديًا. إذا لم يكن هناك إمكانية حقيقية للخلود فإنك يمكن أن تناضل من أجل الخلود بأن تترك وراءك علامة (أثرًا) باقيًا في هذا العالم، إن المشاركة في تقليد تراث ديني يمكن أن يكون طريقًا للتغلب على الفناء بعيدًا عن كل الحقائق الإلهية. وهذا هو جزء من السبب الذي يجعلني وعلى الرغم من رؤيتي الطبيعية للأشياء أهتم بهويتي

كيهودية. إنني أستمتع بفكرة أن هناك رابطة تربطني بأناس في الماضي البعيد وفي المستقبل.

يبدو أن تولستوي لم يشعر بأي انجذاب نحو البقاء النسبي الذي كان لديه الكثير منه فإن كتبه كانت تدور حول قضايا إنسانية دائمة وليست عارضة وكان يعلم أنها ستبقى وكان لديه أطفال كثيرون ما يجعله متأكدا من استمرار ذريته لوقت طويل، لكن الخلود المؤقت (شبه الخلود) لم يكن يرضيه ولكني أعتقد أنه يرضي الكثير من الناس حتى هؤلاء الذين لا يعتقدون أن هذا عالم بلا إله غالبًا ما يعلقون أهمية كبيرة على العيش في هذا العالم، بنفس القدر الذي تسرهم فكرة الحياة التي تستمر في مكان آخر فإنهم لا تسرهم فكرة عدم استمرار الحياة هنا.

ليس أي استمرار، إننا نريد استمرار الحياة الطيبة التي نحياها وهذا يعني أن العلامات التي نتركها لا بد أن تعكس هذه الجودة. إننا لا نرتاح إذا عرفنا أن الطعم (الرقعة) التي حفرناها في شجرة -في لحظة من لحظات عدم النضج- سوف تستمر بعد موتنا. إننا لا نريد أن يبقى انتهاك كهذا في ذاكرة الناس. ليس هناك قدر كبير من الارتياح في فكرة أن طفلاً شريرًا لنا سوف يبقى سنوات بعد موتنا، إننا نريد أن نحيا في علامات إيجابية نتركها وراءنا، إننا نريد أن يكون لنا أثر ايجابي باق بعدنا.

إننا نهتم بكل هذا ولكن إلى أي حد؟ بوضوح الأمر يختلف من شخص لآخر ومن فترة لأخرى. إن أبطال هوميروس يفضلون في أثناء المعركة القاتلة أن يذكر أعمالهم البطولية أكثر من تفكيرهم في العودة للراحة في البيت بجوار المدفأة، أما الرؤساء الأمريكيون الذين يستمرون لفترة رئاسة ثانية فإنهم أحيانًا يبدؤون في تعديل السرعة من أجل إرثهم، إننا نستطيع أن نقيس مقدار اهتمامنا بقياس القيمة التي نعطيها لتأثيرنا عندما تكون هناك

أشياء أخرى على المحك. ربما يحدث هذا لك عندما تفكر أن يكون لك أطفال لأنهم سوف يعيشون بعدك، لكن هذه الفكرة سوف يحبطها اعتبار أنك لا تحب الأطفال، أو أنك تريد أطفالاً ولكنك متردد لأنك تعلم أنهم سيأخذون الوقت الذي تخصصه للرسم. أنت تعلم أن الناس يمكن أن يتحدثوا عنك لمئات السنين إذا كان فنك موجودًا ولكن ليس محتملاً أن يحدث هذا إذا كان أحفادك موجودين.

هذا النوع من الأفكار لها حجية كافية تلعب دورًا في صنع القرار، لكن ما هو أكثر وزنًا هو رغباتنا المباشرة التي نشعر بها تجاه إنجاب الأطفال أو صنع الفن. أن يكون لنا أثر باق يجب أن ينظر إليه على أنه شيء جيد شيء يمكن أن يجعل الحياة أفضل، ولكنه شيء ثانوي.

ماذا عن الفكرة القائلة إنه من الأفضل أن نلجأ إلى المعرفة حول أشياء دائمة (أكثر دوامًا)؟ بصفة عامة هذا يبدو أفضل لكننا عندما نفحص كل الأشياء فإن هذه الفكرة أيضًا ستهزم. إن معرفة رجل السياسة ستركز على أشياء زائلة لكن هذا لن يهمه كثيرًا إذا كان مهتمًا أكثر بالانتخابات القادمة. إذا كنت تعشق موسيقى الروك فإن معرفة الكثير عنها سوف يحقق الكثير لك، ولن تهتم كثيرًا بأن موسيقى الروك ظاهرة عابرة. إن البقاء النسبي له بعض القيمة لكن بالنسبة للكثير منا فإن هذا لا يساوي الأشياء الأخرى التي نقيمها (نعتبرها ذات قيمة).

دعنا نعود مرة ثانية لموضوع الدين، إن أي شخص يرى الدين ببساطة على أنه معتقدات معينة أو القيام ببعض الطقوس مثل الصلوات وقراءة بعض النصوص أو إشعال الشموع أو الذهاب لدور العبادة كدعامة للحياة الطيبة، لن يكون سعيدًا جدًا بالنتيجة التي وصلت إليها. لقد قلت إن السمو فوق الوجود المادي له ارتباط ممكن نسبيًا بالحياة الطيبة، وإن الدين ليس الطريق

الوحيد للسمو فوق الوجود المادي (إن كان هذا شيئًا يمكن بالفعل تحقيقه). إنني لا أعني بهذا أن الدين ليس أساسيًا تمامًا. ربما أكون قد فقدت النقطة الأساسية، ربما تأتي ضرورة الدين عن طريق آخر وليس عن طريق ارتباطه بالسمو فوق الوجود المادي.

إن بعض الأديان لا تركز على السمو فوق الوجود المادي؛ البوذي مثلاً لا يتطلع لليوم الذي تتحد فيه روحه الخالدة بالإله في الحياة الآخرة فهو لا يؤمن بالثلاثة: الروح والإله والحياة الآخرة. إنه يتطلع لأن يسمو فوق الألم الذي تسببه الحياة على الأرض ويتحرر من ربقة الحياة وينطلق من دائرة تكرار المولد. هل هذا شيء مشابه؟

إن التعاليم البوذية تتركز حول كيف نسلك سلوكًا أفضل لنشعر شعورًا أفضل. عندما سألت صديقة قديمة ماذا استفادت من كونها بوذية لم تذكر شيئًا عن أي جسر يربطها بما هو أبعد، لكنها كتبت لي رسالة بالبريد الإلكتروني بعد عودتها من رحلة للحج استمرت أسبوعين قضتها في الهند شاركت فيها في طقوس تلقينية بقيادة الدلاي لاما كتبت تقول:

"طبقا للبوذا فإن تجربة الاستنارة هي الشكل الحقيقي الوحيد الدائم للسعادة، كل نوع آخر من السعادة هو قصير الأمد ثم يعقبه الألم. إن البوذية جعلتني أتذوق الثراء الداخلي بإظهار ميكانيكية ما يحدث في الواقع في العالم المحيط بنا. عندما نضع هذه المعرفة موضع التنفيذ فهذا يقودنا إلى الكمال والغبطة ويبعدنا عن العذاب والألم".

إن الدين الذي يركز على السمو فوق الوجود المادي يعد بأشياء أخرى بالإضافة لهذا. إن تولستوي في أثناء أزمته كان يهاجمه الشعور بأن لا شيء له معنى. وعندما أخذ المعتقدات الدينية من الفلاحين المحيطين به راح عنه الشعور باللامعنى. إنه من الأفضل بالتأكيد ألا يخامرنا الشعور باللامعنى هذا

أفضل بكثير وبطرق كثيرة، إن هذا الشعور يعطل، إنه يقف في طريق السعادة والأشياء الجيدة الأخرى كافة. إذا كانت المعتقدات الدينية مهمة لتفادي هذا الشعور فإنه لا غنى عنها أبدًا.

دعنا ننظر عن قرب إلى الشعور باللامعنى؛ الفيلسوف المعاصر توماس ناجل يقدم تحليلاً واضحًا لما يسبب هذا الشعور؛ إن هناك موقفين يمكن أن نأخذهما حيال حياتنا، إننا نستطيع أن نحيا حياتنا من الداخل. من هذا المنظور فإن أعمالنا وعائلاتنا وانشغالنا بالسياسة ومشروعاتنا وغيرها بلا تساؤل مهمة. إننا نأخذ كل ما نعمل مأخذ الجد التام ولكننا نستطيع أيضًا أن ننظر إلى حياتنا من الداخل. هذا هو منظور الرجل الذي ذكرناه في الفصل الأول الذي تخيل نفسه في العام ١٠,٠٠٠ ينظر إلى الوراء إلى عالم اليوم، والشخص الذي ينظر إلى النمل خلفه من فوق عجلة فريس من وجهة النظر الخارجية إن طفلته هي أحد الملايين من الأطفال. ليس مهمًا ما إذا كانت تؤدي واجباتها المدرسية أو تأخذ حمامًا أو حتى تعاني من مرض خطير أو إعاقة.

من الداخل كان تولستوي مشغولاً تمامًا في كتابة رواياته ورعاية أسرته الكبيرة، لكن كان لديه توجه لتبني موقف خارجي لم يكن يستطيع أن يرى من خلاله لماذا كل هذا الاهتمام بكتبه وعائلته.

والآن نأتي للعلاج: إن الدين بالنسبة لكثير من الناس حل فعال، كيف يعمل هذا الحل؟ دعنا نقوم بجولة داخل قائمة أكثر الأعداد مبيعًا من مجلة النيويورك تايمز، في المقال الأكثر تأثيرًا للوزير الإيفانجيلكي ريك وارن تحت عنوان "هدف الحياة" يقول إن الإنسان المندفع بشدة نحو هدف معين لا بد أن يؤمن بأن الحياة الإنسانية تستمر لتحقيق هذا الهدف وهذا يتضمن الإيمان بالخالق الذي خلقنا من أجل هذا الهدف. هذه الأهداف قليلة ولكن

وارن يجد في الإنجيل سطورًا قليلة تتحدث عن الحياة الإنسانية وأن لها هدفًا ألا وهو تمجيد الإله. يقول وارن إن هذه القناعات الدينية تطرد الشعور المحبط بعدم المعنى.

يقول ناجل إننا لا نستطيع أن نستبعد أي اتجاه، إننا مشغولون ملتزمون، جادون، وفي نفس الوقت نحن منعزلون، شكاكون، محبطون أو (إذا كنا محظوظين) فنحن مجرد مستمتعين بحالة اللامعنى، ليس دائمًا بالطبع ولكن الاحتمالان موجودان دائمًا، وهذا هو سخف الحياة، ليس هناك مخرج من أيهما الالتزام أو الشك. يقول ناجل إن فكرة وجود هدف محدد لا تساعد مساعدة حقيقية (كبيرة)، فإنك يمكن أن تشعر بعدم الاهتمام بأي شيء حتى تمجيد الخالق!

يقر ناجل أن كلاً منا يفترض فيه أن يرى ويشارك في تمجيد الإله لكنه يقول إن أي هدف أكبر يمكن أن يكون موضعًا للشك تمامًا مثل أهداف حياة الفرد ذلك باختصار يمكن أن تشعر بعدم الاهتمام بأي شيء حتى تمجيد الكائن الأعظم!

واضح أن الملايين من قراء "هدف الحياة" وجدوا أن رسالة الكتاب منعشة، إذا كنت تشعر بعدم الأهمية وعدم وجود هدف ثم تتجه للكتاب فإن الرسالة سوف تصلك وتصبح لديك القدرة لعمل أشياء وتستطيع فعلاً أن تمجد القوة الأعظم وهذا سيضع قدرًا مدهشًا من القوة والأهمية داخلك، ستحس أنك جوهرة في تاج على رأس كائن كامل إذا اقتنعت به سيكون تعظيمًا كبيرًا لمعنوياتك. لكن هل ناجل على حق أننا لا يمكن أن نتحصن ضد الشعور أحيانًا بأن أهدافنا حتى الشعور بتمجيد الإله يمكن أن تكون أحيانًا غير جديرة بالمتابعة؟

ربما يبدو أحياناً أن هذا الهدف المعين ليس مثل غيره لأنه هو بوضوح يستحق المتابعة، لكنني أعتقد فعلاً أنه لا يتمتع بهذه المكانة. في الحقيقة أن هذا الهدف المعين غريب إلى حد ما؛ فإذا كان الإله كاملاً بالفعل لماذا يحتاجني لأمجده؟ أمجده في عيون من؟ هل في عيونه هو؟ لكن أليس هو كاملاً فعلاً في عيونه؟

هناك مشكلة أخرى في محاولة استخلاص شعور بالهدف، هدفنا الأصلي (إن كان لدينا هدف بالفعل). إن شيئاً مخلوقاً لهدف معين يمكن أن يسير عكس هذا الهدف؛ إن الشعر مخلوق من أجل الدفء لكننا نستمتع بتصفيفه وأحياناً قصه كله من أجل الموضة، وليس في هذا خطأ على ما أعتقد، إنني أستطيع أن أفعل أشياء وأشياء مثل السباحة ورواية قصص لأبنائي ولا أعرف إذا كانت هذه الأنشطة تمجد الإله أم لا. لكن ما أهميتها؟ لماذا يجب عليّ أن أقيس وباستمرار الأهداف الراهنة التي أريد أن أتبعها في مقابل الهدف الأصلي الذي خلقت من أجله؟

إنني لا أعتقد أن العلاج الذي يصفه وارن وهو العلاج الديني يمكن أن يكون فعالاً لشخص مفكر، لكن هناك وجه آخر من العلاج الديني له فاعلية أكثر وهو ذلك الذي استخدمه تولستوي.

إن النسخة المسيحية التي استخدمها تولستوي لا ترى أن الإنسان قد صنع من أجل شيء كما أن المطرقة صنعت من أجل شيء، بداية إن هذه الفكرة لا تكاد توجد في الإنجيل؛ إن قصة الخليقة ليست مثل قصة المطرقة أو العجلة، إن الإله خلق الإنسان "ويرى أن هذا شيء جيد". بعد ذلك في قصص الإنجيل يصدر الإله أوامر كثيرة تحدد ما يجب وما لا يجب أن نفعله، هذه الأوامر لعبت دوراً في التغلب على شعور تولستوي باللامعنى إن تولستوي قد تأثر بعظة الجبل، ملتفتاً عن هذه الأفكار عن كيفية الحياة، بذل

تولستوي مجهودات ليتعلم من الفلاحين في مزرعته ولأن يستجيب لحاجات الفقراء، وعندما كان يفعل هذه الأشياء استطاع أن يعيش حياته من الداخل مشغولاً وملتزمًا.

لم يكن تولستوي وحده الذي وجد معيشته في فهمه لتعليمات الرب، إن بول فارمر الذي تحدثنا عنه في الفصل الثامن في اختياره لوضع خدمة الفقراء في مقدمة أهداف حياته، كان أيضًا قد استقى إلهامه من عظة الجبل، كان يرى نفسه مطيعًا لأوامر الرب وهذا أعطاه حافزًا كبيرًا لاختيار الحياة التي اختارها. أفادت تراس كيدر أن معظم الناس الذين يعملون لمنظمة فارمر " شركاء في الصحة " كلهم ملهمون بالإيمان الديني. إن صديقتي جولي تتبع التعاليم البوذية عندما تمتنع عن قتل كل الحيوانات حتى إن كانت ناموسة تضايقها. إن أي شخص لديه الإحساس بأن هناك أوامر مقدسة سواء أكان مسيحيًا ألهمته عظة الجبل، أو بوذيًا ألهمه الطريق ذو الثماني شعب، أو مسلمًا يتبع أحاديث محمد؛ له مصدر إضافي يعينه في جهوده.

إن الشيء المدهش هو أن الدين كان الشيء الوحيد الذي دعم تولستوي، لم يبد أنه رأى القيم الجوهرية للأخلاقيات كما أعتقد أن بول فارمر رآها، إنه لم يستطع أن يصبح مهتمًا بخدمة الفقراء إلا بعد أن غمر الدين حياته، لقد فقد رغبته في ملذاته القديمة ومواهبه. لم يكن الإنجيل يمجد روايات القرن التاسع عشر لذلك لم يشأ أن يكتب المزيد منها، إن اعتماد تولستوي على الدين كان مدهشًا ولكن يجب أن نأخذه على أنه الاستثناء وليس القاعدة. إن الأشياء التي ناقشتها في هذا الكتاب هي أشياء أصلية جيدة لحياتنا ومن العار إهدارها. إن شخصًا ولوعًا بالاستقلالية سيكون مدفوعا بشدة لتحقيقها بمساعدة الدين أو بدونه، وشخصًا يرغب في التطور والنمو كشيء جيد وضروري لن يحتاج إلى تصريح إلهي لبذل جهوده من أجل التطور والنمو.

إن كل الأشياء الجيدة التي تحدثت عنها هي دوافع لأهداف قوية بعيدًا عـن الإطار الديني.

عندما ننظر للحياة الحقيقية سنجد في الحقيقة كثيرًا من الأمثلـة عـن القوة الدافعة لهذه القيم؛ هاريت جاكوبز مثلاً كانت مستعدة لعمل أي شـيء للحصول على حريتها واستقلاليتها هي وأطفالها رغم أنها كامرأة متدينة لـم تعتقد أن الرب أمرها بأن تفعل هذه الأشياء. ليس هناك أوامر في الإنجيـل تأمر بالهروب من العبودية، كتلك التي تحث على مساعدة الفقـراء. لانـس أرمسترونج راكب الدراجة يعبر عن قوة الهدف التي يحسد عليهـا؛ كتـب يقول إن معجبيه كانوا غالبًا مندهشين عندما عرفوا أنه يعتقد أنـه يـستحيل معرفة شيء عن الخالق إن لم يكن ملحدًا، إنه يقول إنه يـسابق مـن أجـل السباق وأيضًا ليثبت لمن شفوا من السرطان أن هناك هدفًا يمكن تحقيقه. إن إحساسه بالهدف مبني على أساس ما هو جدير بالتحقيق من بين الآمال ومن هو. هاريت ماكبيرد المحامية التي تحدثت عنها في الفصل الـسادس كانـت تكرس نفسها لفتح نوافذ الأمل للمعوقين رغم أنها ملحدة.

إن الدين ليس أهم شيء ليكون هناك هدف لكن لا أحد ينكر أنه تدعيم أكبر لأهدافنا وهذا أفضل فإذا فشل أحدها كان هناك هدف آخر. أن نعرف ما هو جيد وضروري وأن نفعل ما يناسبنا، أن نعيش حياة تتناسب مع معتقداتنا الدينية هذا هو السبيل لتحقيق الشعور بالهدف. إن الناس الذين لديهم كل هذه الأشياء في وضع جيد للتقدم نحو أهدافهم.

مع كل الدعم بما فيه الدين هل نأمل أن نحتل الداخل وأن نتبنى وجهة نظر طوال الوقت؟ هل لنا على الأقل أن نقول إن الدين يمنح نوعًا من اليقين ضد الشك؟ حسنًا يبدو لي أنك تستطيع حقًا أن تنظر لحياتـك دائمـا "مـن الخارج" وتجد الأشياء التي تعمل من أجلها أقل جاذبية مما تبدو عليـه مـن

الداخل. إن بول فارمر معرض مزاجيًا للشك، لكن لا أحد يستطيع أن يتخيله حتى يشعر أنه يقوم بعمل الرب. رغم كل هذا الدعم فإن الفرد ما زال يمكن أن تمر به لحظات من اليأس. إن أعداد المرضى لا تنتهي، إني أستطيع أن أساعد القليل منهم، لماذا إذن أعمل بكل هذه الجدية لإنقاذ حياة الناس إذا كان الأحياء يموتون كل يوم؟ عندما يموت شخص فإنه سيبرأ من المعاناة على أي حال.

قبل أن يساورنا القلق علينا أن نسأل أنفسنا عن كم الأمان الذي نحتاج لنحمي أنفسنا من عدم التحيز الذي نريده حقًا؟ إن الرواقيين يصفون التجرد وعدم التحيز كوسيلة تحمينا كلية من سوء الطالع والبقاء في حالة هدوء مهما كان الأمر. إن التجرد وعدم التحيز لن يفعلا كل هذا لنا لكن إن استطعت أن تجعل نفسك متجردًا غير منحاز فإن هذا له بعض الفائدة. إذا كنت مقتنعًا أنك إذا أصبحت طبيبًا فإن هذا يناسبك وأنه شيء جدير بأن تفعله وأنه شيء جيد في عيون الرب وكل هذا يهيئك جيدًا للالتزم التام بمهنة الطب، لكنها لا تؤهلك للوصول لمدرسة الطب. إننا ربما يكون علينا أن نغير منهجنا، إن الحياة مشوار طويل، يمكننا أن نتغير ونلزم أنفسنا بهدف واحد ثم نفقد الرغبة فيه ثم نلتزم بهدف آخر.

إن قليلاً من التجرد مهم لأن نبقى منفتحين على ما يستحق عمله وما لا يستحق، إننا لا نختار شيئًا ثم نتوقف عن التفكير بقية حياتنا. الشخص الذي لديه ثقة تامة أن حياته مملوءة بأشياء مهمة له وفروض إلهية يمكن أن يصبح متعنتًا متصلبًا وغير متأمل وإن امتداد هذا سيكون عدم التسامح مع الأسلوب الذي يعيش به أناس آخرون حياتهم. إذا كان ما أفعله هو بلا شك ما يستحق فلماذا لا يفعله كل الناس؟ حتى التجرد وعدم التحيز للآراء الدينية له قيمته. طبقًا للراهب البوذي تيتش ناهت هان "لا تظن أن المعرفة التي تمتلكها الآن

غير متغيرة أو صدق مطلق.. تجنب ضيق الأفق والتقيد بالأفكار الحالية. تعلم وجرب عدم التحيز للآراء حتى تكون منفتحًا لتلقي وجهات نظر الآخرين".

عندما نكون قد اخترنا أهدافًا (وأفكارًا) فإن التحيز سيكون لأفكار تختفي سريعًا غالبًا فإننا سنستقر على الاعتقاد أن أهدافنا قيمة ولكننا أحيانًا نغير مجرانا. إن إحساسًا باللامعنى جيد ويجب السعي له. أن نكون قادرين على أن نتساءل "ما هي النقطة؟" من وقت لآخر هذا له قيمته.

إن تحقيق بقاء نسبي بترك علامتك (أثرك) لا يأخذ الأولوية على العناصر الأخرى من قائمة عناصر العيش الجيد، (وما يدهش أكثر) أن تحقيق السمو فوق الوجود المادي أيضًا لا يأخذ الأولوية، وحتى بالنسبة لتولستوي الذي حقق الاتحاد مع الرب وهي العاطفة التي استهلكت حياته منذ بداية أزمته وحتى موته بعد ٣٠ سنة. بعد تحوله كان زواجه مملوءًا بالتقلبات؛ كان أبًا غير مستقر لأبنائه، ونادرًا ما عاد إلى نوع الكتابة التي حققت شهرته، ربما يحتاج الأمر لملاحظة دقيقة من طبيب نفسي بارع ليشرح بالضبط ماذا حدث له ولماذا لم يكن قادرًا على الاستمتاع بالقيمة الكامنة في نشاطاته. هل النجاح الباهر يتبعه دائمًا الشعور بأنه لم يبق هناك شيء نأمل فيه؟ هل الناجحون أحيانًا يشعرون أنهم غير جديرين بنجاحهم وخائفون من فقدانه؟ هل كان تولستوي يعاني من اكتئاب جسدي؟

هل هناك على الأقل تشخيص جيد يأخذ في الاعتبار عاطفة تولستوي القوية نحو السمو فوق الوجود المادي في حد ذاته؟ إن عاطفة تولستوي للمنحى الديني تشبه لحد ما عاطفة هاريت جاكوبز نحو الاستقلالية وعاطفة بول فارمر نحو الأخلاقيات، في كل هذه الحالات ليس هناك مقياس أو رأي سديد حول طريقة وزن أو اتباع القيم المختلفة.

هناك شيء غير عادي ومؤثر حول هؤلاء الناس؛ إن حبهم لقيمة معينة بهذه القوة والتشدد يوحي بإحساسهم بقيمتها بطريقة لا يستطيعها إلا القليلون لكن ما زال هناك شيء من الضرر في الاهتمام الشديد بقيمة واحدة فقط وترك القيم الأخرى. كما ذكرت في الفصل السابع، لو كانت عاطفة تولستوي قد أخذت حياته كما كان يعتقد لقلنا إنها متجاوزة، لو كان قد وقف ٣٠ عامًا على عمود كما فعل سيمون إستايلست لقلنا إنه قد تجاوز، ولكن من الصعب أن نستنكر عاطفة تدفع إلى الأحسن والأفضل. لم يكن تولستوي مسرورًا لأن يعيش متوجهًا باعتدال تجاه كل الأشياء الجيدة في الحياة والتي تشعر زوجته بالنشوة لكن عاطفة تولستوي قادته إلى تطوير المساواة، الإحسان، الهدوء، ولم تنته مهنته الأدبية.

وإجمالاً فإن سعي تولستوي للسمو فوق الوجود المادي يؤكد تنوع الأشياء الجيدة والحياة الطيبة إن لم يكن هناك إله وإمكانية للبقاء إذا كان عالمًا واضحًا فإن هناك حياة طيبة على كل حال. إن كان السمو فوق الوجود المادي ممكنًا فإن تحقيقه يجب أن يضاف إلى قائمة الضرورات، ولكن مما له معنى أنه يمكن تحقيقه في حياة المتدينين وأيضًا غير المتدينين. الأشياء الأخرى على قائمة الأشياء الجيدة لا تقل أهميتها بإضافة هذا العنصر، إن السمو فوق الوجود المادي إن كان ممكنًا لا يبتلع باقي الأشياء الجيدة، إن عاطفة تولستوي الشديدة للسمو فوق الوجود المادي مدهشة وجميلة إلى حد ما ولكن هناك عواطف أخرى تستحق.

الفصل العاشر
تحديد الهدف

بدون سعادة، واستقلالية، وأخلاقيات، وتطور (وغير ذلك) تهدر الطاقات الرئيسة وتفشل الحياة. إذا كانت حياة شخص تسير نحو الهاوية فإنه وعلى الأقل في السيناريو الذي أتخيله، فإن المزيد من هذه الأشياء الستة أو السبعة سوف ينقذها ويجعلها تسير إلى المستوى الذي يجعلها على الأقل جيدة. لكن ماذا بعد؟ إن كان شخصًا يريد حياة أكثر من مجرد جيدة فماذا بعد ذلك؟

إن الأكثر من هذه الأشياء يجعل الحياة أفضل؛ سعادة أكثر، نشاطًا أكثر، قيمًا أخلاقية، تعليمًا أكثر وتطورًا. كل هذه الأشياء ما دام أنها لا تتداخل مع بعضها فإنها سوف تعظم الجودة في حياتك. إن هذه الأشياء ضرورية ولا يمكن إحلالها ولكن هل يجب أن تضيف باستمرار هذه الأشياء تحديدًا؟ هل هي المعظمة الوحيدة للحياة؟ في الفصل الخامس اقترحت غير ذلك، إنك تستطيع أن تجعل البيت أفضل بإضافة غرف جديدة أو سقف أجمل أو إضاءة جديدة وربما حمام سباحة. لماذا نفكر في حياة طيبة فيها قائمة عناصر، قائمة ضرورية ثم قائمة اختيارية (قائمة ب)؟ هناك مزايا أضيفت إلى القائمة (ب) مثلاً الإتقان من الممكن أن يكون لديك الكثير والكثير من الأشياء الجيدة التي ناقشناها دون إتقان إذا كانت حياتك طيبة ثم تقضي عشر سنوات لتصبح عازف كمان ممتازًا أو طاهيًا أو ميكانيكيًا فإن هذا سيضيف المزيد من الجودة لحياتك. الاتزان شيء آخر ينظر إليه عادة على أنه شيء إيجابي. جيمي كارتر يعمل من أجل أهداف إنسانية عظيمة حول العالم ولكنه

أيضًا يكتب الشعر والأدب ويقوم بأعمال النجارة في أوقات فراغه، إنه متعلم تعليمًا عاليًا في العلوم والسياسة والحكم وأيضًا في الوعظ، إن التوازن الذي يحققه شيء جدير بإعجابنا. هناك إضافة أخرى في حياة بعض الناس هي الجمال؛ أن تكون جميلاً تعيش وسط أشياء جميلة، وتصنع أشياء جميلة كل هذه أشياء قيمة، أن تكون لديك مواهب وتستخدمها، أن تكون خلاقا ذا وجهة نظر جمالية، أن تكون لديك كمية كبيرة من المعارف كل هذه الأشياء تبدو إضافات. كيف يمكن للإتقان، والاتزان، والموهبة، والجمال، وما شابه ذلك أن تسهم في حياتنا؟

إنك يمكن أن تعتقد أنها مجرد أشياء لها فائدة كبيرة؛ الإتقان يفتح الأبواب ويسهم في تحقيق سعادة أكثر واستقلالية أكثر. إن الشخص الذي يحقق الإتقان يعيش حياة تحقق تطورًا، هو أحد الأشياء التي أعدها من الضرورات، إن الإتقان يشعر الفرد بالذاتية والتعبير عن الذات. لكن الرأي الفعال يقول إنه لا توجد قيمة جوهرية في الإتقان والاتزان وغيرهما في حد ذاتها بل إنه يضعها على مستوى أشياء جيدة أخرى مثل الثراء الذي تقصر قيمته على ما يستطيع أن يجلبه لنا.

على الأقل فإن بعض الأشياء والمزايا على القائمة (ب) لها قيمة في ذاتها بالإضافة إلى قيمتها الآلية (الفعلية). إن بعض الفلاسفة يريدون أن يكونوا مقترين في الأشياء التي تمنح القيمة الجوهرية، إذا كانوا سيقصرون الأمر على شيء واحد فيعطون القيمة الجوهرية مثلاً للسعادة فقط لكان هذا أمرًا يمكن التسامح فيه. في هذا الكتاب عرفت عددًا كبيرًا من الأشياء على أنها ذات قيمة جوهرية، ليس هناك مشكلة في إضافة المزيد فإن المشكلة الأساسية في أي شيء على أنه جيد (أو سيئ) لن يزيد إذا زاد حجم القائمة، لذا فإني أقترح أن بعض الأشياء على القائمة (ب) هي جيدة بطريقة جوهرية.

يمكن أن تكون لديك شكوك حول هذا دون أن يكون لهـا أيـة صـلة بالتقدير، كيف يمكن أن يكون الإتقان شيئًا دون قيمة جوهرية؟

كيف يمكن أن يكون الاتزان قيمة جوهرية إذا كان من الممكن عمـل توازن بين الشفقة والقسوة، كما يمكن التوازن بين الفن والرياضة؟ لكن نفس الشكوك تنشأ بشأن كل شيء على القائمة (أ). إن أحدًا يستطيع أن يدير إدارة ذاتية حياته الإجرامية أو أن يحقق تطورًا باهرًا من مجرم غير متقن لإجرامه إلى مجرم متقن، إنك تستطيع أن تسمي الذاتية والتطور أشـياء ذات قيمـة جوهرية وتقر بذلك، إنك تستطيع أن تحصي أشياء جيدة كثيـرة ويمكـن أن تعيش في حيوات سيئة. ونفس الشيء يصدق على القائمة (ب).

إذن لماذا الإتقان والتوازن وما شابههما على القائمـة (ب)؟ إن كـل العناصر على القائمة (أ) تعتبر ضرورات بمعنى أشياء جيدة أساسية لا يمكن تضييعها كما ناقشنا في الفصل السادس، أما العناصر على القائمة (ب) فإنها ذات قيمة جوهرية لكنها أقل، إنها عناصر مهمة ولكن لها نطاق أصغر، إنها ليست مثل السعادة أو إدارة شؤون حياتك. إنه ليس شـيئًا مرعبًـا إذا فعـل شخص كثيرًا من الأشياء الجيدة بدرجة معقولة ولكنه لم يهتم بأن يـتقن أي شيء، إنك لن تكون قد أهدرت طاقة كبيـرة إذا أصـبحت طـائرًا مراقبًـا متعصبًا بدلاً من أن تكون أكثر توازنًا، ليس هناك عار كبير إذا لـم تـصنع أقصى ما يمكن صنعه من جمالك الممكن. وهكذا إننا لا نريد أن نحتفظ فـي عقولنا بقائمتين منفصلتين تجعلان حياتنا أفضل.

الهدف الذي يجب أن نصبو إليه إذا أردنا أن تسير حياتنا إلى أفـضل وأفضل ليس مثل المجموعة المعتادة من الدوائر ذات المركز الواحد، إنهـا مثل شبكة خطوط متعامدة في خريطة ذات مربعات ملونـة مختلفـة تمثـل العناصر الضرورية والاختيارية، الضرورات هي مختلف درجـات اللـون

الأخضر (مثلاً) وإننا نحتاج لأن نصبو لكل منها، ومختلف درجات البنفسجي تستحق أيضًا أن نصبو إليها ولكنها ليست بذات الأهمية. إذا بدأنا بحياة لا تسير سيرًا حسنًا أن نصبو إلى كل درجات اللون الأخضر: السعادة الاستقلالية وكافة الأشياء الأساسية إنها تبقى مركزية طوال حياتنا، ولكن درجات اللون البنفسجي وهي الإتقان والتوازن وما شابه ذلك هي مدعمات للحياة.

إن التعبير المجازي (الاستعارة) في السعي نحو هدف مستمد من الذي كان أرسطو يؤكد لتلاميذه أن طبيعة الخير سوف تساعدهم ليعيشوا حياة أفضل، يقول أرسطو:

"ألسنا كرماة السهام الذين يضعون علامة فوق هدفهم فيصبح هناك احتمال أكبر لأن نصيب أهدافنا؟ إذا كان الأمر كذلك فإننا يجب أن نحاول".

كان هدفه هو الهدف التقليدي ذا الدوائر ذات المركز الواحد حيث تحتل الفضيلة العين رغم أنه كان يعلق بعض الأهمية على الأهداف الأخرى مثل (الأبناء، الثروة وغير ذلك).

والآن السؤال الذي تأخر كثيرًا: هل نحن حقًا نسير عبر الحياة وهدفنا طيلة الوقت أن نجعل حياتنا جيدة، أفضل، أحسن؟ أليس هذا مدهشًا إلى حد ما؟ لكن الإجابة هي وبوضوح لا. إذا كنا مثل رماة السهام هدفنا بلا توقف هو حياتنا الطيبة؛ أننا نركز بدقة على أحبائنا، الموضوعات التي تهمنا، المشكلات المحلية، مشكلات العالم، كرة القدم، الموسيقى الكلاسيكية، صناعة طعامنا، قراءة الكتب، إننا نستطيع أن نأمل بمعقولية في مساعدة أبنائنا على التعليم، الحفاظ على نباتات البيئة والأنواع المنقرضة وقراءة كل ما كتب

دوستوفسكي وغير ذلك من الأهداف العديدة. إنها كلها أهــداف تــستحق أن نصبو إليها في حد ذاتها. إننا لا نصبو إليها فقط لأننا نعتقد أنهـا ســتجعل حياتنا أفضل.

إن الهدف إلى حياة أفضل متوقع إذا كانت الحياة تسير سيرًا سيئًا لكــن الكثيرين منا يأخذون تركيزنا من حياتنا إذا وجدنا أن حياتنا طيبة بما يكفــي. الكثير من الناس يعيشون حياة طيبة لكنهم يأملون في حياة أفضل في بعــض الحالات، هناك أشياء مهمة خارج أنفسنا تأخذ الأسبقية (الصدارة) مثلاً نحاول أن نجعل حياة أبنائنا أفضل، أو نساهم أكثر في مجتمعنا، أو في الفن، أو مــن أجل بقاء النمور أو ما إلى ذلك، بصرف النظر عن أن ذلك يمكن أن يــؤدي إلى انتكاس حياتنا، إن هذه الأشياء تجعل حياتنا أفضل ولكن عندما ننشغل بها فإننا لا ننغمس فيها من أجل صالحنا نحن. بعد أن نحقق ما نراه حيــاة طيبــة فإننا ربما لا نهتم كثيرًا بالتقدم نحو الحياة الأفضل أو أحسن حياة؛ إننا نكــون سعداء بأن نبحر على الشاطئ، أن ننسق الحديقة، نقرأ روايات بوليسية أو غير ذلك دون أن نهتم بما إذا كنا نقضي وقتنا في أفضل شيء ممكن. إننا يجب ألا نفكر في أن حياتنا هي تحفة فنية في التقدم والتطور، إننا لا يجب أن نحــسن أنفسنا طيلة الوقت كما لو كنا سنوضع في معرض أو مسابقة.

إن شخصًا يحاول دائمًا أن يغير حياته إلى الأفضل إلى أفضل حيــاة سيضع نفسه دائمًا في المتاعب تمامًا كمتسلق جبال الهمالايا الذي يضع نفسه في الخطر بانجذابه إلى النجاح، يكون تركيز الشخص على حياته الخاصــة حائلاً دون عيش حياة أفضل. ومعظم الأشياء التي تساعد على عيش حيــاة طيبة يصعب الحصول عليها عندما يركز الشخص كليــة علــى ذلــك. إن الشخص المصمم على أن يكون سعيدًا جدًا ربما لا يغرق نفسه تمامًــا فيمــا يمكن بالفعل أن يجعله سعيدًا، إنه قلق جدًا على أن يكون سعيدًا قلقًا يجعله لا

يركز بدلاً من ذلك على القراءة، تنسيق الزهور، صنع الطعام أو غير ذلك مما يمكن أن يجعله سعيداً بالفعل، فتاة في العشرين بلا توجهات تقول: "إنني أريد فعلاً أن أكون شخصًا مهمًا"، وتكرر هذا القول بينما لا توجه طاقاتها إلى الأنشطة التي تجعلها شخصًا مهمًا. إن كثيرًا من العناصر المهمة لها هذه الخاصية المتناقضة، إنها تتحول إلى رماد بفعل لهيب الاهتمام المستمر.

إن التركيز على تحسين الذات يمكن أن يؤدي إلى نتائج عكسية؛ فالطاقة التي يوجهها شخص للحصول على أقصى ما يمكنه من الأشياء الجيدة في حياته سوف توقفه عن الاهتمام بالآخرين، نعم فإنك إما تفعل كل شيء من أجل حياتك أنت كأن تقوم بأعمال خيرية، تقدم وجبات لجيرانك المرضى، تزور أمك العجوز، تفعل كل هذا لتجعل حياتك أفضل، فإنك لن تكون لك بالفعل الخاصية التي تجعل حياتك أفضل.

إننا لا نقضي حياتنا نحاول أن نصل إلى قمة الحياة الأفضل لكنا ما زلنا نفكر فيما يجعل الحياة تسير سيرًا حسنًا، إننا أحيانًا نكون مثل رماة السهام نهدف إلى الشيء الجيد لنا بالذات، بالإضافة لهذا فإننا إذا كنا نأمل في شيء خارج أنفسنا فإنه أحيانًا يكون الحياة الطيبة، للآخرين. كان أرسطو مدركًا تمامًا لهذا الدور المزدوج في دراسة الحياة الطيبة، كان تلاميذه يتوقعون أن يكتسبوا الحياة الطيبة نتيجة حضور محاضراته، ولكن أرسطو أيضًا رأى في دراسة الحياة الطيبة مدخلاً للعلوم السياسية. واضعًا مفهوم الحياة الطيبة نصب عينيه، سار أرسطو في طريق السياسة لمناقشة كيفية إدارة المجتمع، الدارسون الذين يحضرون محاضراته عن الحياة الطيبة (والسياسة) كانوا يأملون في التقدم نحو المساهمة بحكمة لإدارة أثينا الإدارة الجيدة.

المزايا الأخرى التي يجلبها تفهم ما يجعل الحياة طيبة لم تكن هي موضع التركيز في هذا الكتاب ولكنها مهمة جدًا، إنها مثل الآباء الذين يلعب

معظمنا دورهم في تشكيل حياة الآخرين، إننا بلا شك نريد حياة طيبة لأطفالنا وربما أحسن حياة ممكنة. يمكن أن نضع هذا بطريقة أفضل إذا فكرنا في أهدافنا بوضوح، إذا أردنا أن يعيش أبناؤنا حياة طيبة وكنا نعتقد أن السعادة هي كل ما يهم فإننا سنربيهم بطريق واحد، إذا كنا نفكر في الأخلاقيات والاستقلالية والتطور كعناصر للحياة الطيبة فإن هناك قرارات أخرى سنأخذها.

المعلمون، ومصممو المناهج الدراسية أيضًا يعملون وفق فكرة كيف تسير الحياة سيرًا جيدًا. إن مسؤولياتهم متعددة لإمداد المجتمع بأناس يقومون بأعمال ضرورية وبمواطنين يمكن أن يعيشوا بسلام مع بعضهم البعض وأيضًا بإمكانيات الحياة الطيبة، إنهم يستطيعون فعلاً أن يحققوا النجاح إذا كانوا يعرفون ما يهدفون إليه.

منظمو المجتمع: القادة، والمشرعون، والمواطنون أنفسهم هم أيضًا منظمون للحياة أي مناطق الاستقلالية أكثر حيوية حتى تتم حمايتها من أجل صالح الجميع، إلى أي مدى يمكن أن تتدخل الحكومات في طريقة تفكيرنا وحديثنا وحبنا وإنتاجنا الأبوي؟ إن كل من يضع القرارات حول هذه الأشياء يفعلها ضمنيًا وعينه على كل ما يؤهل لحياة لائقة مهذبة.

وفي سياقات أخرى، هناك من يكون فاعلاً في جعل الحياة تسير سيرًا حسنًا فمثلاً الجماعات التبشيرية التي تفكر تفكيرًا ضمنيًا في حياة الآخرين عندما تعمل على "نشر الكلمة" في بلد آخر، ربما تعمل من أجل منح النساء حق التصويت أو منع ختان الإناث أو حماية حرية التعبير، المنظمات الحكومية وغير الحكومية تنفق أموالاً في عمليات محددة متخصصة للإغاثة ومشروعات التنمية وعينها على ما يفيد حياة الناس وما لا يفيد.

من الممكن أن تساورنا أحيانًا بعض الشكوك بشأن مثل هذه الأمـور -من وجهة نظرنا- في ما يجعل الحياة أفضل. قد يكون من الواجب علينا أن نمتنع عن هذا ولا نفعل إلا ما يمكن الآخرين من تبنـي أهـداف لأنفـسهم وينجحون في تحقيقها. إحدى النظريات التي ناقشناها ثم رفضناها في الفصل الرابع تأتي إلى الذهن الآن: فكرة أن أفضل حياة لأي شخص هي تلك التـي يملؤها كل ما يريد في لحظة التفكير المتأني في ما يتعلق بهدفه في الحيـاة. إن كان هذا صحيحًا فإن هدفنا للآخرين يجب أن يكون أقل يجب ألا يكـون شيئًا أكثر مما يرضي رغباتهم. أليس من الخطر العمل بفكرة أكثر تفـصيلاً وتحديدًا عن الهدف الصحيح لكل شخص؟

إنه خطر؛ لا يجب أن نحكم على كل شخص بمعيار أكثر تحديـدًا، أن نقول إن الحياة الطيبة هي حياة الفيلسوف المتفرغ أو رجل الدولـة، الحيـاة الطيبة هي حياة المسيحي، صاحب المشاريع وله زوجـة وطفـلان، أو أن الحياة الطيبة هي حياتي. أعتقد أن المبشر يخطئ بالاعتقاد أن كل شـخص يحتاج لأن يتبع مبادئ مثلاً. لتفادي هذا النوع من التعالي نحـن لا نحتـاج للتراجع إلى أقل مستوى من تحقيق الرغبات. إن الهدف الذي رسمته في هذا الكتاب هو الأقل. بالأهمية التي يعطيها للاستقلالية، إنه يعتـرف بأنـه فـي النهاية الناس يجب أن يختاروا بأنفسهم طبقًا لمفاهيمهم الخاصة لما له قيمة. إننا نستطيع أن نربي أبناءنا، ونضع قوانيننا، وندير مؤسساتنا ونـؤثر فـي شئون الدول الأخرى، إنما لا نعني أن شيئًا تم اختياره باستقلالية تامة، ليس هو أظافر طولها ٢٠ بوصة (ارجع إلى كتاب جينيس للأرقام القياسية الفصل الرابع)، أو إجراء عملية بتر أو تشويه أعضاء تناسلية خارجيـة يمكـن أن يسبب ألمًا رهيبًا أو يقلل المتعة، وليس الركود، أو عـدم اسـتخدام التفكيـر أو غير ذلك.

العمل أو العناية بالأطفال لم يظهرا واضحًا لا على القائمة (أ) ولا القائمة (ب)، لكن هذين الشيئين الرئيسين هما ما يملآنه ويتنافسان مع بعضهما بعض الوقت في حياة الكثيرين. إنهما يستحقان بعض الاهتمام.

إننا جميعًا نشعر أن أطفالنا هم مسؤوليتنا الخاصة؛ إذا كانت الأخلاقيات بصفة عامة تأتي على القائمة (أ) فإن العناية بالأطفال هي جزء من الأخلاقيات التي لا يمكن تخطيها، لكن وصف الأبوة بهذه الطريقة لا يعطيها حقها العادل. إن العناية بالأطفال شيء يدعو إلى الارتياح بسبب الطريقة التي يعكس بها الآباء نوع الحياة التي يريدونها لأبنائهم. اعتمادًا على أعداد لا تحصى من القرارات التي نتخذها بخصوص التعليم، والبيئة والظروف المنزلية، وما يقرؤه الطفل وما يشاهده، من يلعب مع الطفل ما يأكل الطفل "وغيرها وغيرها" يتحدد نوع الحياة التي سيعيشها الطفل. كمهندسين للحياة الطيبة يطلبون منا أن نفكر بعناية في المسائل المهمة وبطريقة يومية أنها تستحق التفكير المتأني، والحكم الصائب، والمجموعة الكاملة من الفضائل لنقوم بهذا العمل بطريقة حسنة.

إن قيامنا بعمل الأبوة سوف يمنحنا كل الأشياء التي اعتبرتها ضرورات وأيضًا مزايا القائمة (ب)، أيضًا إن السعادة التي تمنحها لنا الأبوة هي من ناحية متعة أن نحب ومتعة أن نكون محبوبين. والحب الذي نحسه تجاه أطفالنا هو حب من نوع خاص، إنه حب عظيم دائم لا ينتهي. ومن الأشياء التي تجعل الأبوة مهمة التحدي هو أن العمل يتغير كلما تغير الطفل. إنك تعرف كيف تهدئ نوبات طفلك العصبية المفاجئة، غضب طفلك وهو في سن السنتين، أما عندما يصبح في سن الثالثة فإن تلك الحيل لم تعد تصلح لتهدئته، إن طاقاتك الخلاقة تستدعى مرة ثانية وثالثة، إن الأب ينمو مع الطفل، إن الأبوة تعطينا الفرصة كي نستخدم مواهبنا الكثيرة التي دون ذلك

يمكن أن تهدر. غالبًا ما تختلف العناية بالأطفال اختلافًا تامًا عما نفعله في أماكن العمل. لدرجة أن الحياة التي تشمل العناية بالأطفال هي حياة أكثر توازنًا. ومهما كان ما نحققه في العمل فإن إحساسنا العميق بالإنجاز المتقن يأتي من نجاحنا في تربية أطفالنا، عندما تتنافس الأبوة العمل كمحور لاهتمامنا فإنها تصبح منافسًا قويًا، إنها شيء جدير بوقتنا وطاقتنا، لكن ماذا عن العمل؟ هل هو منافس قوي أيضًا؟ إن بعضنا يعمل فقط بهدف سداد الفواتير، أما إذا كنا سنتوقف ونسأل أنفسنا كيف يجعل العمل حياتنا أفضل أو أسوأ ماذا سنجد؟

من الصعب التعميم. إن شخصًا يعمل باجتهاد يمكن أن يقضي كل يومه يحفر حفرًا ثم يملؤها مرة ثانية فقط كي يسلي نفسه، شخصًا غريب الأطوار يمكن أن يدفع لك مقابل أن تقوم بعد أوراق النبات في حديقته فقط بهدف أن يتسلى. إن تربية الأطفال لن تكون أبدًا فكرة فاشلة بينما العمل يجب أحيانًا تفاديه إن كان هذا ممكنًا، العمل يمكن أن يشمل قضاء أيام طويلة دون أي ضابط يتحكم في نشاطاتك أو حتى أفكارك (فكر في كارولين والعمال لابسي الجينز الأزرق في الفصل الخامس). ولكن لحسن الحظ هناك كمية من العمل المثري (بخاصة إذا لم يكن ذا معنى خاص). وفي العمل يمكن أن نصبح أحسن وأحسن في شيء ونتقدم إلى مسؤوليات جديدة ومختلفة. من خلال العمل يمكن أن نحقق ذاتنا ونطور مواهبنا ونزن الأشياء التي نعملها في البيت من خلال مجموعة مختلفة تمامًا من الأنشطة. وبصفة خاصة الإسهام في ميزانية البيت تعطي مزيدًا من الإحساس بالذاتية. وفي أحسن السيناريوهات العمل له معنى، خلاق، مبدع، أو نوع، من النشاط الأخلاقي مثل الاهتمام بالأطفال. فكر في العمل الذي يقوم به بول فارمر (الفصل الثامن) وأيضًا العمل الذي يقوم به طبيبك الخاص، أو العمل الذي

يقوم به مدرس طفلك إذا كنا محظوظين وكنا نقوم بعمل يثبت ذواتنا ويجعلنا نكون أنفسنا. في أحسن الأحوال فإن العمل له مزايا القائمة (أ) وبعض مزايا القائمة (ب).

إن الأبوة دائمًا تضيف شيئًا جيدًا للحياة والعمل أيضًا يفعل ذلك. وليس مدهشًا أن نشعر أننا ممزقون بين العمل والأسرة عندما يتنافسان مع بعضهما طيلة الوقت، إن الأبوة ليست شيئًا يمكن إهداره ببساطة ولكن العمل يمكن أحيانًا تخفيضه.

ماذا عن الاختيار الصعب الذي تتعرض له الأمهات أحيانًا إذا اضطررن لترك العمل نهائيًا من أجل الأمومة؟

إن الكتب التي تتناول هذا الموضوع غالبًا تميل في اتجاه إشارة وصفات عامة مثل القول إن كل أم يجب أن تعمل أو إن أي أم يجب ألا تعمل. إذا كنت أمًا تواجه تلك الحيرة بين العمل والأسرة وفكرت فيها على هدى خطوط هذا الكتاب فإنك ستصبحين في حيرة فريدة من نوعها تخصك أنت فقط. لقد كانت مشكلتي عندما أنجبت أطفالي لم تكن بشأن العمل والأسرة على وجه العموم لكنها كانت أسرتي الخاصة وعملي وكان أي سيناريو من السيناريوهات المختلفة المطروحة سيؤثر على أشياء ذات أهمية خاصة. ومما يزيد من حدة الصعوبة ذلك النوع من القرار الذي تثيره مناقشات سارتر (ارجع إلى الفصل السابع) أن تختار الأفضل بالنسبة لظروفك، ولكن في الاختيار لنفسك تكون عليك مسؤولية حيال الرجال والنساء الآخرين. ومما يجعل الأمور أسوأ تلك الحقيقة أن عواطف قوية تربطنا بأطفالنا وأيضًا بأعمالنا، وأن هذه العواطف لا يمكن التخلي عنها في عملية صنع القرار. عندما يكبر الأطفال وتَقل حاجتهم لآبائهم تتغير الحيرة ويصبح القرار الذي كان له معنى من قبل بلا معنى.

عندما أنظر للوراء للطريقة التي قمت بها لحل الحيرة بين عملي وأسرتي والتي واجهتني عندما أنجبت أبنائي أستطيع أن أقول بسعادة إنني لا أندم أبدًا على نقل التركيز من العمل إلى التركيز على الأسرة، فيما بعد كانت هناك أمور محيرة جديدة وحلول جديدة عن نقل الاهتمام إلى العمل مرة أخرى، إن حيرة اليوم والغد هما أمر آخر وطبيعي تقدم العمل.

من ينجح في أن يعيش حياة طيبة في كل شيء أو جيدة بتفوق؟ ليس كل شخص، لكن الأفكار المطروحة في هذا الكتاب تقترح أن الحيوات الطيبة عديدة ومختلفة، إن هذا قد يبدو خطأ في نظر بعض الفلاسفة في التاريخ، أفلاطون والرواقيون يجعلون الفضيلة الشيء الوحيد المطلوب لحياة طيبة، الفضيلة التي تجعل كل شيء آخر غير مرتبط بالموضوع هي شيء نادر تتطلب روحًا ذات صفات خاصة. إنك لا تحتاج أي حظ في الأشياء الخارجية مثل المال، أو المكانة الاجتماعية، أو الجمال للحصول عليها، ولكنك تحتاج فقط لأن تكون مخلوقًا برأس صحيح على كتفيك. أما أرسطو فإنه يقر بدور الأشياء الخارجية ولا يقلل من شأن المتطلبات الداخلية، لذا فإن الشخص المؤهل لحياة طيبة في رأيه محظوظ من الناحيتين: له عقل مناسب للتأمل، وفضيلة أخلاقية، وعنده قدر معقول من المال، والمكانة الاجتماعية، والجمال وغير ذلك، بالنسبة للقدماء فإن الحياة الطيبة متاحة للقليلين.

البعض قد يجدون هذا الرأي حتى في الحاضر. العناصر المرتبطة بعيش الحياة الطيبة، والأفضل والأحسن هي أشياء ليست موجودة لدينا جميعًا بالتساوي، عوامل كثيرة في المولد والظروف المحيطة بكل منا تؤثر في مدى تمتعنا بالسعادة والاستقلالية وقدر التطور والتقدم الذي نحققه في حياتنا وغير ذلك، الاستقلالية على سبيل المثال لا تنمو فوق الأشجار، معظم الناس في العالم تدار حياتهم بواسطة آخرين: موظفي حكومات، أزواج، زوجات،

أقارب، رجال دين، حتى التعبير عن الذات الذي يؤكد ما يجيش بالنفس فإنه لا يتم إلا إذا توفرت بعض المزايا الخارجية، أشياء أخرى مثل الإتقان والجمال رغم أنها تعطى المرتبة الثانية فإنها أيضًا ليست موزعة بالتساوي.

إن وضع الأشياء على قدم المساواة شيء حسن لكن يجب التعبير عنه بالطريقة الصحيحة وليس بالطريقة الخيالية التي يفعلها كل شخص، الآن العالم من حولنا يعيش أحسن حال ولكن بتصميم أنه في المستقبل لن تقف أي حواجز في طريق أي شخص. بالتأكيد إن الحواجز ليست موزعة بالمساواة، إن الفقر المدقع هو الحاجز الواضح لتحقيق حياة مرضية. هناك حواجز ثقافية أيضًا خذ الاستقلالية كمثال؛ إن بلدًا يرزح تحت نير تقاليد القوانين الإسلامية لا يسمح للناس بإدارة حياتهم الخاصة في أمور معينة ذات أهمية: فالمرأة بالسعودية مثلاً تمنع من اختيار زيها وتحد تحركاتها فلا تغادر المنزل إلا بصحبة محرم ولا تقود سيارة وقدرتها على ترك زوجها محدودة، والتملك والتصويت في الانتخابات، فإذا كانت الاستقلالية عنصرًا مهمًا في جعل الحياة أحسن فإن المرأة في السعودية في مشكلة.

صحيح أن بعض الأماكن تكون فيها حياة الناس أفضل من أماكن أخرى وهناك بعض الثقافات التي تقوي إمكانية الحياة الطيبة أكثر من غيرها من الثقافات.

ورغم هذا فلا تقفز إلى فرض أن الحياة التي تعيشها أنت وجيرانك وأبناء وطنك هي الحياة الأفضل. إننا يجب أن نتعرف على الموانع ضد الحياة الطيبة داخل مجتمعاتنا الغربية الثرية. إن ثقافة صناعة المال والاستهلاك توجهنا في اتجاهات مريبة. من يسأل شخصًا يصمم أو يبني، أو يبيع أو يعلن عن سيارات تستهلك الغاز بنهم وتسبب كوارث التلوث البيئي؟ إن مثل هذا الشخص يحقق نجاحًا كبيرًا ولكن من يقول إن حياة هذا الشخص

فاشلة أخلاقيًا على اعتبار الضرر الذي يسببه؟ شخص آخر يعيش في مجتمع تقليدي سوف يجد نفسه حقًا مضغوطًا في اتجاهات لا قيمة لها يقوم بعمل غير أخاذ يصنع أحذية أو يحرث الأرض أو غير ذلك لكنها أنشطة مرضية تخدم مصالح حقيقية ولا تسبب ضررًا لأحد.

إن الحياة الطيبة ليست حياة راكدة ولكنها تشمل نوعًا من النمو طيلة الوقت في ثقافتنا الغربية الثرية، ننظر إلى التطور على أنه الامتلاك الأكثر، الثراء الأكثر، الاستمتاع الأكثر، علينا أن نتوقف ونتأمل هل هذا هو حقًا التطور؟ في المجتمعات الأضخم ثراء نشعر بالسعادة التي تجلبها المادة، لكن مشاعر البؤس نشعرها بسبب طلب المزيد ومقارنة ما هو لدينا وما هو عند جيراننا إذا كنا نحتاج لأن نكون سعداء فقط، ولكن أن نكون سعداء بسبب الأشياء الجيدة التي توجد في حياتنا فهذه هي مشكلة أيضًا. إننا مغمورون في اللهو، في كل منزل عادي ينشغل الناس به خمس ساعات يوميًا، فمن سيكون لديه وقت للاستمتاع بأي شيء يستحق؟

أين أحسن الاحتمالات لحياة طيبة؟ إنني لا أريد أن أقول إنها كابول وليست كاراكاس، إن هذه أسئلة يحلها الاجتماعيون. ولكن قليلاً من التروي يجعله واضحًا، إن قائمة الضرورات التي اقترحتها ليست قائمة المزايا يمتلكها الغربيون الأثرياء ويفتقدها الآخرون.

في فيلم مونتي بيثو "معنى الحياة" هناك قصة هزلية تتحدث عن اجتماع مجلس إدارة حيث يقول أحد المديرين إنه انتهى من دراسة عن معنى الحياة، ماذا كانت الإجابة؟ "قبعات أكثر"، ما يضحك هو فكرة أن السؤال عن معنى الحياة له إجابة كاملة ونهائية. وإذا كان عند ذلك المدير أرفف رصت عليها عشرة مجلدات ضخمة تحتوي إجابته فإن القصة الهزلية كانت ستبقى مضحكة. حتى ولو كان قد قال إن هذه هي السعادة أو أي شيء آخر مقنع فإن القصة لم تكن لتفقد هزليتها. لا توجد قطعة ورق ولا كتاب ولا

مجموعة كتب تبدو كما لو كانت تحتوي الصدق الكامل والموجز حول معنى الحياة أو الحياة الطيبة أو أحسن حياة.

إن هذا الكتاب لم يعطِ الموضوع حقه، إنني لست مرتبطة جدًا بقائمة الضرورات التي أعرضها رغم أنني أميل إلى الاعتقاد أنني فكرت فيها بعناية وأنني لم أضيع أشياء كثيرة أو أشياء مهمة. أما القائمة (ب) فإنها رسمت على سبيل التجربة ودون أي ادعاء بالكمال. وهناك أشياء تستحق اهتمامًا أكثر. هل الحب مجرد شعور، نوع من المتعة أم هو شيء جيد واضح ومتميز؟ هل احترام الذات يأتي جنبًا إلى جنب مع التعبير عن الذاتية؟ هل هو ما يكون متلازمًا مع تحقيقنا لالتزاماتنا الأخلاقية تجاه أنفسنا، أم هو شيء منفصل عن كل الأشياء الجيدة الأخرى، وهو ذو قيمة في حد ذاته؟

إن معظم الضرورات التي ناقشتها هي مداخل إلى موضوعات أكبر. إذا كانت الأخلاقيات جزءًا حيويًا من الحياة الطيبة فإنه من المحتم أن نعرف ما هو أخلاقي وما هو غير أخلاقي. إننا الآن في ميدان الأخلاق. إذا كانت السعادة ضرورة فما هي؟ هل هي حالة عقلية؟ هل هي شيء غير مادي؟ (والآن أنا دخلت في فلسفة العقل)، وماذا يجب علينا عمله للحصول على أكبر قدر من السعادة؟ هل نكون سعداء عندما تستغرقنا أعمال شاقة، أو عندما نقضي وقت راحة مع الأصدقاء، أو عندما نتوقف عن تمني أي شيء أكثر مما نمتلك، أو عندما يكون أمامنا هدف قوي نعمل لتحقيقه؟ إننا الآن نحتاج لأن نقرأ علم النفس، الدين، الفلسفة، أو ربما مجرد أن نجلس ونتحدث إلى أصدقائنا وأقاربنا. ما هي الأشكال المهمة للاستقلالية؟

هل تشمل الحق في الانتخاب، التعبير عن الرأي جهرًا، قيادة السيارة، اختيار شريك الحياة، الإجهاض؟ الآن نحن نضع قدمًا في المناظرات العامة والقدم الأخرى، في الفلسفة السياسية. ما هو أن تكون لك ذات وتعبر عنها؟

لقد قرأت الأدب وعلم النفس أيضًا لأعرف أحسن، بعد المضي خلال كل هذه الأبواب واستكشاف طبيعة مجال كل الضرورات فإننا ننتهي بقدر كبير من الغموض. إنك تستطيع أن تشتري لنفسك دليلاً مفصلاً للانتقال من حياة سيئة إلى حياة جيدة نوعًا ثم إلى حياة أفضل ثم إلى أحسن حياة. ما هو مستوى السعادة الذي يجب أن تحققه كي يكون عندك أساس الحياة الطيبة؟ هل هو قدر قليل يوميًا أو قدر متوسط باستمرار أو مستوى مرتفع في كل عام؟ كم قدر الاستقلالية الذي يجب أن تحققه؟ هل تستطيع أن تستمر في عمل لا يعني شيئًا بالنسبة لك؟ إذا منحت قدرًا كبيرًا من المسؤولية والاعتماد على الذات هل يمكن أن ترفعك غبطة السعادة إلى أعلى قمة حتى ولو كانت تنقصك أشياء أخرى في مناطق أخرى؟ لا توجد إجابة واضحة عن هذا السؤال.

إن هؤلاء الذين يصلون إلى قمة الجبل لا بد أن يكونوا موهوبين بكل شيء على القائمة (أ) وكذلك بالكثير مما هو على القائمة (ب) مما يكون مناسبا لحياة واحدة. في هذه الارتفاعات الأولمبية هل نجد أمثال أرنولد شوارزنجر لأنه يمتلك كل الضرورات بالإضافة إلى الإتقان والاتزان والجمال، أم نجد بول فارمر الذي يجعل الأخلاقيات أول أولوياته معظم الوقت بطريقة تفوق ما تقوم به؟ هل الأخلاقيات تفعل هذا وبهذا تكون لها مكانة خاصة بين كل الأشياء الجيدة الأخرى كما ذكرت في الفصل الثامن؟ هل نجد تولستوي وهاريت جاكوبز هناك على القمة لأنه حقًا من الأحسن أن نكون مدفوعين بعواطف عنيفة غير حكيمة أو هي الحيوات الأحسن هي الأكثر توازنًا؟

في بداية كتابه "الأخلاق النيقوماخية" يحذر أرسطو تلاميذه من توقع درجة الدقة التي تناسب الموضوع؛ إن صياغة محددة ستكون خاطئة سواء "رفعت قبعات أكثر" أو إذا حددت قدر السعادة ونوع التطور ونوع التعبير

عن الذات وغير ذلك. عندما يأتي الأمر للاهتمام بكيف يجب أن نعيش فإننا يجب أن نكون راضين لأن يعلن الصدق تقريبًا، في الحقيقة إننا لا نريد أكثر من هذا، إن حياتنا ستبدو أقل إمتاعًا إذا كان ممكنًا أن نقترب إليها عن طريق كتاب تعليمات.

وعلى ذلك فإنني لا أقترح نموذجًا لرجل مثالي أو امرأة مثالية للحياة الخيرة. لقد استمتعت بقضاء بعض الوقت مع كل الناس في هذا الكتاب عند كتابته من أول سيمون إستايلست إلى هاريت جاكوبز، وبول فارمر وتولستوي وعمال متجر وول مارت في الفصل الخامس. حياة كل من هؤلاء تلهمنا على الأقل لنفكر بعمق في مسيرتنا.

ملاحظات:

هذه الملاحظات تهدف أساسًا إلى ذكر المصادر، وفي أحيان كثيرة أضع نقطة واقعية وهي دائمًا خارجة عن الموضوع. يمكنك أن تمر عليها في وقت فراغك، هذه ملاحظات تشير إلى الكتب والمؤلف والعنوان، وبيانها بالتفصيل مذكور في قائمة المؤلفات "الببليوجرافيا".

المقدمة:

- اقتباسات من نيتشه The gay science قسم ٢٨٣، المزيد "كيف تعيش؟" أقسام ٢٧٦، ٢٨٩، ٢٢٠، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٨٢.
- الوجوديات على سبيل المثال، سارتر "الوجودية هي نزعة إنسانية".

١ـ هذا العالم الزائل:

- اقتباسات تولستوي من "اعتراف" صفحات ٣٠، ٣١، المقتطف أعيد طبعه في كليمك Klemke معنى الحياة، السيرة الرائعة لتولستوي التي كتبها Troyat تشكل خلفية هذا الفصل.
- "من أعماق قلبه..." تولستوي موت إيفان إيليتش وقصص أخرى صفحة ١٣٧. أود أن أشكر المحرر المجهول الاسم لمنشورات بلاك ويل على اقتراحه لي بأن أقدم هذه الروائع في المناقشة.
- اقتباس من فرانكل "الرجل يبحث عن معنى" صفحة ١٢٤، هذه المذكرة القصيرة مقروءة ولا تنسى. الاقتباس من مقال عن اقتراب فرانكل من علم النفس في آخر المجلد.
- صفحة ٣٤٣ من كتاب Troyat عن تولستوي، قال إن الأصول مثل ماء الينبوع.

- رأي أفلاطون عن الحقائق، المناقشات التي تعبر عن هــذه الأفكــار تمامًا هي: محاورة فيدونPhaedo والمأدبــة Symposium والكتابــان ٦، ٧ من الجمهورية.

- "لا رجل عاقل..." من محاورة فيدون Phaedo. ١١٤ د. يقول سقراط هذا بعد تزيين حسابه الأولي للحياة الآخرة بالزينات الملونة يمكن أن يقول هذا فقط: إن الزينات لم تسفر عن منع الإدانة الشديدة أو بمعنى أنه رغم قيامه بأعمال عظيمة فقد أدين إدانة شديدة.

- طرق متقاربة، مقتطفات من الإنجيل عن ما بعد الحياة تمت مناقشتها بإيجاز لكــن باهتمــام فــي المــدخل الــى "المــوت" Death فــي Harper Collins Bible Dictionary المحرر بواســطة Achtemeier. توجد هناك مراجع وثيقة الصلة بالإنجيل، لمناقشة المفهــوم البــوذي نيرفانا، وما إذا كانت هي ببساطة عدم الوجود. انظر المقالات العديدة عن النيرفانا بقسم النيرفانا في "Smith's Radiat Mood".

- "على أي صورة أضع السؤال...؟" تولستوي اعتراف A Confession ص٩٥.

- حياة بلا إله، حالة وارن معالجة بطريقة أكثــر فلــسفية فــي كتــاب Klemke معنى الحيــاة وفــي كتــاب Craig "ســخف الحيــاة دون إله The Absurdity of Life Without God".

٢ـحيوات غريبة:

- اقتباسات من ليكي Lecky مقتطفات موجزة من ليكي موجــودة فــي Singer's Ethics، كل اقتباساتي هي من الصفحات ١٩٦، ١٩٧ فــي سنجر. المناقشة حول قديسي الصحراء: لقد استعنت بوايــت White

حياة المسيحيين الأوائل Ward،Early Christian lives آباء الصحراء The desert fathers، وكلاهما له مقدمـــة جيـــدة تتـــاقش المحتـــوى التاريخي والدوافع، براون The body and society الجسد والمجتمع.

- القديس أنطوني St. Anthony، انظر The Life of Society التي كتبها أثناسيوس في حياة المـــسيحيين الأوائـــل In Early Christian Lives (White).

- أفلاطون، أرسطو، كانت أوامر الإله. هناك قراءات مـــشابهة لكـــل منهما في الأخلاق لسنجر Singer's Ethics.

- انظر أفلاطون "الجمهورية" لفكرة التقسيم الطبقي. والكتاب الخـــامس ابتداء من ٤٧٤ د. لفكرة أن الفلاسفة يجب أن يتولوا الحكـــم. دفـــاع لأرسطو عن العبودية موجود في كتاب الـــسياسة Politics الكتـــاب الأول الفصل الرابع والسادس، موجودة في Metaphysics of Morals ص٢٢٠، ٢٢١.

٢ـالعقل والحظ:

- أسئلة عن كيف تعيش، جوليا أنـــاس Julia Annas تتـــاقش أن هـــذه الأسئلة عن الحياة ككل كانت بالنسبة للقدماء هي "نقطة الدخول" لكـــل التفكير الأخلاقي. الفصل الأول والأخير من أخلاقيات الـــسعادة The Morality of Happiness ترسم صورة مضيئة عـــن المقارنـــة بـــين الأخلاقيات القديمة والحديثة.

- الحياة الأثينية، انظر كونولي ودودج الحديثة والقديمة Connolly and Dodge.

- أرسطو والحياة الطيبة، انظر بأقصى تركيز، الأخـــلاق النيقوماخيـــة Nichomachean Ethics الكتاب الأول فصول ١، ٢، ٧، ٨.
- الطبيعي وغير مكره، المقارنة بين الطبيعي والمكره يركـــز عليهـــا ويليامز في العار والضرورة Shame and Necessity الفصل الخامس ص١١٣.
- في الـــسياسة أو الحـــرب Politics or War. الأخـــلاق النيقوماخيـــة Nichomachean Ethics. الكتاب الخامس، الفصل الـــسابع عنـــد B٥ ١١٧٧-١٥- مدح أرسطو لحياة الفيلـــسوف فـــي الكتـــاب الخـــامس الفصلان ٧، ٨ كل اقتباسات أرسطو في هذا الفصل هي من ترجمـــة ايروين Irwin.
- أرسطو عن الفضيلة (الاقتباسات): "نحن يمكن أن نكون خـــائفين..." من الكتاب الثاني الفصل السادس، "الأفعال المتماشية مع الفضيلة..." من الكتاب الأول الفصل الثامن.
- أرسطو عن الخير الإنساني (الاقتباسات) من الأخـــلاق النيقوماخيـــة Nichomachean Ethics الكتاب الأول الفصلان ٧، ٨.
- "لجلوسون حياتان" الجمهورية الكتاب الثاني.
- اقتباس من الأخـــلاق النيقوماخيـــة Nichomachean Ethics الكتـــاب السابع الفصل ١٣ "أعتقد الحياة السعيدة..."
- الرواقيون، لمعلومات أكثر عن الرواقيين، انظر الفصل ١٠ من كتاب Nussbaum "The Therapy of Desire" وكتـــاب Julia Annas تحـــت عنوان "The Morality of Happiness" لقد استفدت كثيراً من الكتابين.

- الكتاب المرشد لإبكتيتوس Epictetus، انظر الأقسام ١، ٢، ٥، ٨، ١٤، ١٥، ١٧، ١٩، ٤٨ للنصائح العامة، للعمل من أجل الهدف قسم ٢٩، الذهاب إلى الحمامات: ٤، التعامل مع عبد مهمل: ١٢.
- إبكتيتوس Epictetus عن الموت (اقتباسات) كلها من الكتاب المرشد. "ماذا يحزن الناس؟": ٢٦ "لا تقل عن أي شيء ...": ١١.
- "حياة مفعمة بالفضيلة..." كتاب The Fragility of Goodness للفيلسوفة Nussbaum ص ٣٤٠.
- الأدميرال ستوكدال Stockdale، انظر ستوكدال أفكار فلسفية لطيار مقاتل.
- طرق عديدة للنيرفانا مقتبسات من قداسة الدالاي لاما صفحات ١٧٢، ١٧٣.
- أرسطو والعبودية. كتاب السياسة The Politics الكتاب الأول الفصول ٤-٦.

٤. هل السعادة هي كل ما يهم؟

- الرسم البياني للسعادة. لقد استعرت الفكرة من الفصل العاشر من كتاب نوزيك Nozick اختبار الحياة The Examined Life صفحتي ١٠٠، ١٠١.
- الأبيقوريون، انظر Epicurus. "السعي وراء اللذة The Pursuit of Pleasure" في الأخلاق لسنجر Singer, Ethics.
- مل وبنتهام، المقتبسات الرئيسية من Mill and Bentham من الأخلاق لسنجر ص ٢٠١، ١٩٩.

- القضية الأكثر دلالة عند القدماء... تؤكد جوليا أناس Julia Annas علـــى التركيز المتميز للأخلاقيات القديمة على الأسئلة "الحياة الكاملة" في كتابها .The Morality of Happiness

- آلة التجارب. اقتباسات من نوزيك كتب فوضـــى Anarchy، ودولـــة State، و Utopia المدينة الفاضلة. وأعيد طبعها في الأخلاق لـــسنجر، ونفس السيناريو نوقش في الفصل العاشر من كتاب نوزيـــك اختبـــار الحياة أو الحياة المختبرة Examined Life.

- أأسف لأن أخبرك...أنني أدين في الانتقال من المستقبل إلى الماضي لكتاب نظريات المعرفـــة المعاصـــرة Contemporary Theories of Knowledge ص١، ٤ مؤلف الكتاب هو Pollock.

- اقتباس ويليام جيمس William James من "إشـــباع الرغبـــات" فـــي الأخلاق لسنجر ص٢٠٩.

- نظـــرية إشباع الرغـــبات، ناقشها ديريك بارفيت Derek Parfit في "ماذا يجعل حياة الإنسان تصير أفضل؟" في الأخلاق لسنجر.

- تبني التفصيلات، انظر كتاب Nussbaum "المرأة والتنمية الإنسانية"، الفصل الثاني. المثال الخاص بالأعمال المنزلية موجود في الـــصفحة ١٤٠ والنص ص٢١.

- اقتباسات من Rawls "نظرية العدالة" ص٣٥٩.

٥ـ الضرورات:

- "إنها مثل نور الصباح..." شيشيرون Cicero في "الغايات الأخلاقيـــة" On Moral Ends، ص٧٩.

- كانت Kant والإرادة الطيبة. هذا الرأي يعبر عنه كثيرًا كانت في "أسس ميتافيزيقا الأخلاق" Foundations of the Metaphysics of Morals. انظر سنجر "الأخلاق" ص١٢٣-١٢٩.

- قصة كارولين شيبلر Shipler "العامل الفقير" ص٥٠، ٧٦.

- الزواج في سن الثامنة. المثل من كتاب "المرأة والتنمية الإنسانية" ص٢٩، ٣٠.

- "مبدأ لكل شخص غاية" مارتا نوسباوم، كتاب "المرأة والتنمية الإنسانية" ص٥٦، المبدأ يتم مناقشته والدفاع عنه في الصفحات من ٥٥: ٥٩.

- اقتباسات من كتاب هانه "بوذا الحي والمسيحي الحي "Living Buddha, Living Christ"، ص٥٤. إنني أشعر بالامتنان لمراجع بلاكويل الذي عرفني بهذا المؤلف ونبهني إلى أن تأكيدي على الذات متعارض مع قيم البوذا.

- صناع القوائم المعاصرون، نوسباوم تقترح قائمة من عشر قدرات يجب أن يكون الناس قادرين على ممارستها في المجتمع العادل. انظر "حدود العدالة" Frontiers of Justice صفحات ٧٦- ٧٨. يقترح فينيس Finnis قائمة لكل الأشياء الطيبة الأساسية، الأشياء التي تترتب على القرارات الصحيحة أخلاقيًا. انظر "القيم الأساسية" في كتاب سنجر عن الأخلاق Singer's Ethics.

٦ـ معضلات التنوع:

- مستر سبوك Mr. Spock. أشكر المحرر المجهول الاسم في بلاكويل Blackwell الذي اقترح سبوك كمشكلة ممكنة بالنسبة للرأي القائل إن السعادة ضرورة ذاكرًا الحادثة، أعتقد أنني أتذكرها.

- مل وأرسطو حول الإنسان الكامل. يبدو أن أرسطو يرى أنه أن تكون إنسانًا كاملاً شيء أساسي للحياة الطيبة وذلك في كتابه Nichomachean Ethics، الكتاب الأول الفصل السابع. ولكنه يجعل الوصول إلى أقصى قدراتنا سواء كانت إنسانية متميزة أو لم تكن شيئًا رئيسيًا في الكتاب العاشر الفصل السابع. إننا لا يجب أن نتبع صناع الحكم المأثورة التي تقول كن إنسانًا ما دمت إنسانًا أو كن زائلاً ما دمت زائلاً. الأفضل، بقدر ما نستطيع، أن نحاول أن نكون شبه دائمين وأن نحاول أن نحقق أعلى ارتفاع في الحياة طبقًا لأعلى عناصرها ذلك هو التأمل الذي نشارك فيه الآلهة. أما مل Mill فيجعل من الإنسانية الكاملة شيئًا عرضة للنقد وذلك في بعض المقتطفات من كتاب حول الحرية On Liberty ص١٩١، ويؤيد نظرية تحقيق الرغبات ص١٩٧. لقد وضعته في صف فكرة السعادة البسيطة في الفصل الرابع من هذا الكتاب تأسيسًا على بعض المقتطفات من النفعية Utilitarianism.

٧ـ اختيارات صعبة:

- اقتباس من فينيس Finnis: "أسس الأخلاق" ص٩١.
- الفتاة المسلمة، جيرالدين بروكس Geraldine Brooks تتحدث عن مشاركة الفتيات في الرياضة في المجتمعات الإسلامية التقليدية في Nine parts of desire ص١١.
- "فقط ابتكر": "الوجودية فلسفة الإنسانية" لسارتر في كتاب كوفمان "الوجودية من دوستوفسكي وحتى سارتر" ص٣٥٦.
- الأشكال الجيدة، الجمهورية الكتاب السادس ٥٠٥أ – ٥٠٩ ب.

- إرادة العبيد، جاكوبز Jacobs، حوارات ص١٧٥- ١٧٧.
- "عندما يلتزم الرجل..." لسارتر "الوجودية هي الإنسانية" في كتاب كوفمان ص٣٥١.

٨- محاولة أن تكون جيدا:

- "قديسو الأخلاق" لوولف Wolf's Moral Saints في الأخلاق لسنجر.
- مقتبسات فارمر من كتاب كيدر "جبال خلف الجبال" الاقتباس الخاص ماتشو بيتشو ص٢٠٤، ٢٠٥. "أحب جارك": ص١٩١ شرح كلمة "Comma" ص٢٤.
- آراء نيتشه، انظر The Gay Science. تأكيد المعاناة قسم ٣٣٨، تتابع الحدث دائما: ٣٤١، أخلاقيات الدهماء: ١١٦، ١١٧.
- بمن يعجب نيتشه؟ (اقتباسات) The Gay Science القسم ٢٨٣.
- الاقتباسات من وولف كلها من ص٣٥٠ من كتاب "قديسو الأخلاق" في Singer Ethics.
- كيف نعيش؟ انظر الفصل ٩، ١٠، انظر أيضا مقالة سنجر المؤثرة "المجاعة، الوفرة والأخلاقيات" عن آرائه حول الحد الذي تغير فيه التزاماتنا الأخلاقية مواجهتنا لالتزاماتنا اليومية.
- الطفل الغريق. هذه تنويعات على المثل الموجود في كتاب جيمس راشيل Active and Passive Euthanasia.
- كانت Kant وحدود واجباتنا، انظر الاقتباسات من أخلاق سنجر The Categorical Imperative. انظر مقالة Langton في نفس المجلد في حياة Kant التي توحي أنه لم يكن قديسا.

- آراء مل واقتباساته، مل والنفعية ص٢٦٨. المناقشة حول كيف يتصرف الشخص النموذجي ص٢٧٠.

٩ـ المجال الديني:

- توماس جفرسون، في الحقيقة هو اعتقد أن الحياة يمكن أن تكون جيدة دون فلسفة الإلهيات. انظر خطابه إلى Peter Can في ١٠ أغسطس ١٧٨٧، جفرسون يشجع ابن شقيقه لأن يتساءل عن الإله، الإنجيل، وألوهية عيسى مؤكدًا على أن السعادة والفضيلة يمكن أن تكون من نصيبه حتى لو أنكر كل هذه الأشياء.

- اقتباس من تولستوي "ما هو الدين؟ وممَ يتكون جوهره" ص ١٢٨ في "اعتراف" وكتابات دينية أخرى، تولستوي يشخص باختصار جوهر الدين في الصفحات ١١٨، ١١٩.

- الموقف التمييزي، إنني مدينة لكتاب لهاريس Harris "نهاية الإيمان". في بعض النقاط الخاصة بالتمييز الديني الصفحات ١٦ إلى ٢٣، وفي موضوع وجهة النظر التمييزية في القرآن الصفحات ١١٨-١٢٣.

- إيفان إيليتش على فراش الموت (اقتباسات) من تولستوي. "موت إيفان إيليتش" ص١٦٠، ١٦١.

- علامات باقية، هذه المناقشة تدين في الكثير منها إلى مناقشة نوزيك عن الموت وخطوات في الشرح الفلسفي الصفحات ٥٧٩ إلى ٥٨٥.

- "لا أعتقد..." هانه Hanh "البوذا الحي والمسيحي الحي" ص٢.

١٠- تحديد الهدف:

- الأخلاق النيقوماخية Nicomachean Ethics أرسطو، الكتــاب الأول، الفصل الثاني ١٠٩٤أ، ٢٠ هذه القطعــة مــن و. د. روس W.D.Ross ترجمته لأرسطو في "قارئ جديد لأرسطو" A New Aristotle Reader.

- الروائع في تقدم، إنني أدين في هذه النقطة للفصل الثالث من كتاب سكانلون Scanlon "ماذا نحن مدينون به لبعــضنا؟ What we owe to each other?"، أنظر ص١٣٠، وأيضًا أدين لستيف سفرديك حيث نبهني لها.

- المنظمات الحكومية وغير الحكوميــة، نوســبوام تنــاقش الأهــداف الصحيحة للتنمية الدولية في المرأة والتنمية الإنسانية، حيث وصــفت قضية مقنعة تمامًا أن الهدف الأساسي يجب أن يكون تحقيق القدرات الإنسانية الأساسية وليس فقط زيادة الناتج القومي الإجمالي أو تحقيق إرضاء التفضيلات.

- اقتباسات من الكتاب الأول مــن الأخــلاق النيقوماخيــة لأرســطو Nichomachean Ethics.

البيليوجرافيا

Achtemeier, Paul (ed.), *HarperCollins Bible Dictionary* (revised edition). New York: HarperCollins, 1996.

Ackrill, J. L. (ed.), *A New Aristotle Reader.* Princeton, NJ: Princeton University Press, 1987.

Annas, Julia, *The Morality of Happiness.* Oxford: Oxford University Press, 1993.

Aristotle, *Politics* (trans. C. D. C. Reeve). Indianapolis, IN: Hackett, 1998.

Aristotle, *Nicomachean Ethics* (trans. T. Irwin). Indianapolis, IN: Hackett, 1999.

Armstrong, Karen, *The Spiral Staircase: My Climb Out of Darkness.* New York: Alfred A. Knopf, 2004.

Armstrong, Lance, *Every Second Counts.* New York: Broadway, 2003.

Asimov, Isaac, *The Bicentennial Man.* London: Granada, 1977.

Bérubé, Michael, *Life As We Know It: A Father, a Family, and an Exceptional Child.* New York: Vintage, 1998.

Brooks, Geraldine, *Nine Parts of Desire: The Hidden World of Islamic Women.* New York: Anchor, 1995.

Brown, Peter, *The Body and Society: Men, Women, and Sexual Renunciation in Early Christianity.* New York: Columbia University Press, 1988.

Callahan, Steven, *Adrift: Seventy-six Days Lost at Sea.* New York: Houghton Mifflin, 1986.

Cicero, Marcus Tullius, *On Moral Ends* (ed. J. Annas). Cambridge: Cambridge University Press, 2001.

Connolly, Peter and Hazel Dodge, *The Ancient City: Life in Classical Athens and Rome.* Oxford: Oxford University Press, 1998.

Cott, Jonathan, *On the Sea of Memory: A Journey from Forgetting to Remembering.* New York: Random House, 2005.

Descartes, René, *Meditations* (trans. D. A. Cress). Indianapolis, IN: Hackett, 1993.

Dostoevsky, Fyodor. *Crime and Punishment* (trans. C. B. Garnett). London: Penguin, 2003.

Dylan, Bob. *Chronicles*, volume 1. New York: Simon and Schuster, 2004.

Ehrenreich, Barbara. *Nickel and Dimed: On (Not) Getting by in America*. New York: Henry Holt, 2002.

Epictetus. *The Handbook* (trans. N. P. White). Indianapolis, IN: Hackett, 1983.

Epicurus. "The Pursuit of Pleasure." In: Peter Singer (ed.). *Ethics*. Oxford: Oxford University Press, 1994.

Euripides. *Iphigenia at Aulis*. In: *Euripides: Ten Plays* (trans. P. Roche). New York: Signet, 1998.

Finnis, John. *Fundamentals of Ethics*. Oxford: Oxford University Press, 1983.

Finnis, John. "The Basic Values." In: Peter Singer (ed.). *Ethics*. Oxford: Oxford University Press, 1994.

Frankl, Victor. *Man's Search for Meaning*. New York: Touchstone, 1984.

Hanh, Thich Nhat. *Living Buddha, Living Christ*. New York: Riverhead, 1995.

Harris, Sam. *The End of Faith: Religion, Terror, and the Future of Reason*. New York: W. W. Norton, 2004.

His Holiness the Dalai Lama. *Many Paths to Nirvana: Reflections and Advice on Right Living* (ed. Renuka Singh). New York: Penguin Compass, 2005.

Hornby, Nick. *How to Be Good*. New York: Riverhead, 2001.

Hurston, Zora Neale. *Their Eyes were Watching God*. New York: HarperPerennial, 1990.

Ishiguro, Kazuo. *The Remains of the Day*. New York: Vintage, 1990.

Jacobs, Harriet. *Incidents in the Life of a Slave Girl*. In: Frederick Douglass and Harriet Jacobs. *Narrative of the Life of Frederic Douglass, an American Slave and Incidents in the Life of a Slave Girl*. New York: Random House, 2000.

Jefferson, Thomas. Letter to Peter Carr, August 10, 1787. http://www.stephenjaygould.org/ctrl/jefferson_carr.html

Johnson, Harriet McBryde. "Unspeakable Conversations." *New York Times Magazine*, March 9, 2003.

Johnson, Harriet McBryde. *Too Late to Die Young: Nearly True Tales from a Life*. New York: Henry Holt, 2005.

Kant, Immanuel. *Foundations of the Metaphysics of Morals* (trans. L. W. Beck). New York: Prentice Hall, 1989.

Kant, Immanuel. *The Metaphysics of Morals* (trans. M. Gregor). Cambridge: Cambridge University Press, 1998.

Kaufmann, Walter. *Existentialism from Dostoevsky to Sartre*. New York: Meridian, 1956.

à Kempis, Thomas. *The Imitation of Christ* (trans. J. Tylenda). New York: Vintage, 1998.

Kidder, Tracy, *Mountains Beyond Mountains: The Quest of Dr. Paul Farmer, a Man Who Would Cure the World*. New York: Random House, 2003.

Klemke, E. D., *The Meaning of Life* (2nd edition). Oxford: Oxford University Press, 2000.

Kramer, Peter. *Listening to Prozac*. New York: Viking: 1993.

Kuhse, Helga and Peter Singer, *Should the Baby Live?* Oxford: Oxford University Press, 1985.

Laxness, Halldor, *Independent People* (trans. M. Magnusson). New York: Vintage, 1946.

Lecky, W. E. H., *History of European Morals*, volumes I and II. London: Longmans, Green, 1898.

McCourt, Frank. *Angela's Ashes*. New York: Charles Scribner's, 1996.

Mill, John Stuart, *On Liberty*. In: Mill, *Utilitarianism and Other Writings*. New York: Meridian, 1974.

Mill, John Stuart, *Utilitarianism and Other Writings*. New York: Meridian, 1974.

Nagel, Thomas, "The Absurd." In: E. D. Klemke, *The Meaning of Life* (2nd edition). Oxford: Oxford University Press, 2000.

Nietzsche, Friedrich, *The Gay Science* (trans. W. Kaufmann). New York: Vintage, 1974.

Nozick, Robert, *Philosophical Explanations*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1981.

Nozick, Robert, *The Examined Life: Philosophical Examinations*. New York: Touchstone, 1989.

Nozick, Robert, "The Experience Machine." In: Peter Singer (ed.), *Ethics*. Oxford: Oxford University Press, 1994.

Nussbaum, Martha, *The Therapy of Desire*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1996.

Nussbaum, Martha, *Women and Human Development: The Capabilities Approach*. Cambridge: Cambridge University Press, 2000.

Nussbaum, Martha, *The Fragility of Goodness: Luck and Ethics in Greek Tragedy and Philosophy*. Cambridge: Cambridge University Press, 2001.

Nussbaum, Martha, *Frontiers of Justice: Disability, Nationality, Species Membership*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2006.

Plato, *Phaedo* (trans. G. M. A. Grube). Indianapolis, IN: Hackett, 1981.

Plato, *Symposium* (trans. A. Nehemas and P. Woodruff). Indianapolis, IN: Hackett, 1989.

Plato, *The Republic* (trans. G. M. A. Grube and C. D. C. Reeve). Indianapolis, IN: Hackett, 1992.

Pollock, John, *Contemporary Theories of Knowledge*. Lanham, MD. Rowman and Littlefield, 1999.

Rachels, James, "Active and Passive Euthanasia." *New England Journal of Medicine*, vol. 292, no. 2 (January 9, 1975), pp. 78–80.

Rawls, John, *A Theory of Justice* (revised edition). Cambridge, MA: Harvard University Press, 1999.

Sartre, Jean Paul, "Existentialism is a Humanism." In: Walter Kaufmann (ed.), *Existentialism from Dostoevsky to Sartre*. New York: Meridian, 1956.

Scanlon, T. M., *What We Owe to Each Other*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1998.

Scully, Matthew, *Dominion: The Power of Man, the Suffering of Animals, and the Call to Mercy*. New York: St. Martin's Press, 2002.

Shipler, David, *The Working Poor: Invisible in America*. New York: Alfred A. Knopf, 2004.

Singer, Peter, "Famine, Affluence, and Morality." *Philosophy and Public Affairs*, vol. 1, no. 1 (Spring 1972), pp. 229–43.

Singer, Peter, *How Are We to Live? Ethics in an Age of Self-Interest*. New York: Prometheus Books, 1993.

Singer, Peter (ed.), *Ethics*. Oxford: Oxford University Press, 1994.

Singer, Peter, *Practical Ethics* (2nd edition). Cambridge: Cambridge University Press, 1993.

Smith, Jean, *Radiant Mind: Essential Buddhist Teachings and Texts*. New York: Riverhead, 1999.

Sobel, Dava, *Galileo's Daughter: A Historical Memoir of Science, Faith and Love*. New York: Penguin, 2000.

Sophocles, *Oedipus Rex*. In: *Sophocles I* (trans. D. Grene). Chicago, IL: University of Chicago Press, 1991.

Stockdale, Admiral John, *Thoughts of a Philosophical Fighter Pilot*. Stanford, CA: Hoover Institution Press, 1995.

Styron, William, *Darkness Visible: A Memoir of Madness*. New York: Vintage, 1990.

Tanner, Michael, *Nietzsche*. Oxford: Oxford University Press, 1994.

Tolstoy, Leo, *The Death of Ivan Ilyich and Other Stories* (trans. R. Edmonds). London: Penguin, 1960.

Tolstoy, Leo, *A Confession and Other Religious Writings* (trans. J. Kentish). London: Penguin, 1987.

Troyat, Henri, *Tolstoy* (trans. N. Amphoux). Garden City, NY: Doubleday and Company, 1967.

Twain, Mark, *A Connecticut Yankee in King Arthur's Court*. New York: Bantam, 1983.

Ward, Benedicta (ed.), *The Desert Fathers: Sayings of the Early Christian Monks*. London: Penguin, 2003.

Warren, Rick, *The Purpose Driven Life: What on Earth Am I Here For?* Grand Rapids, MI: Zondervan, 2002.

White, Catherine (ed. and trans.), *Early Christian Lives*. London: Penguin, 1998.

Williams, Bernard. *Shame and Necessity*. Berkeley, CA: University of California Press, 1993.

Wolf, Susan. "Moral Saints." In: Peter Singer (ed.), *Ethics*. Oxford: Oxford University Press, 1994.

المؤلفة في سطور:

جين كازيز

- أمريكية تعيش في تكساس.
- عضو في عدد من المنظمات الدولية وغير الحكومية التي تعمل في مجال المساعدات الإنسانية.
- حصلت على الدكتوراه من جامعة أريزونا في عام ١٩٩١.
- تقوم بالتدريس في جامعات دالاس، وتكساس، حيث محل إقامتها مع أسرتها.

المترجمة في سطور:

السفيرة عواطف شلبي

- مثلت مصر دبلوماسيًا في العديد من الدول في قارات آسيا وأوربا وأستراليا.
- لها عدة مؤلفات في أدب الرحلات، صدر منها عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سلسلة كتب تحت اسم "دبلوماسية فى بلاد السحر والعجائب".
- صدر لها كتاب "سريلانكا الجزيرة المتألقة" عن دار هبة النيل العربية للنشر.
- لها كتب أخرى تحت الطبع منها "الصين بلاد الحكمة".

المراجع في سطور:

د/ محمد أحمد السيد

- أستاذ المنطق وفلسفة العلوم وعميد كلية الآداب – جامعة المنيا.
- عضو لجنة الفلسفة بالمجلس الأعلى للثقافة، وعضو الجمعية الفلسفية الأمريكية APA.
- له العديد من الكتب والأبحاث المؤلفة والمترجمة.

التصحيح اللغوى : عـــــادل عــــزت
الإشـــراف الفنى : محســـــن مصطفـــى